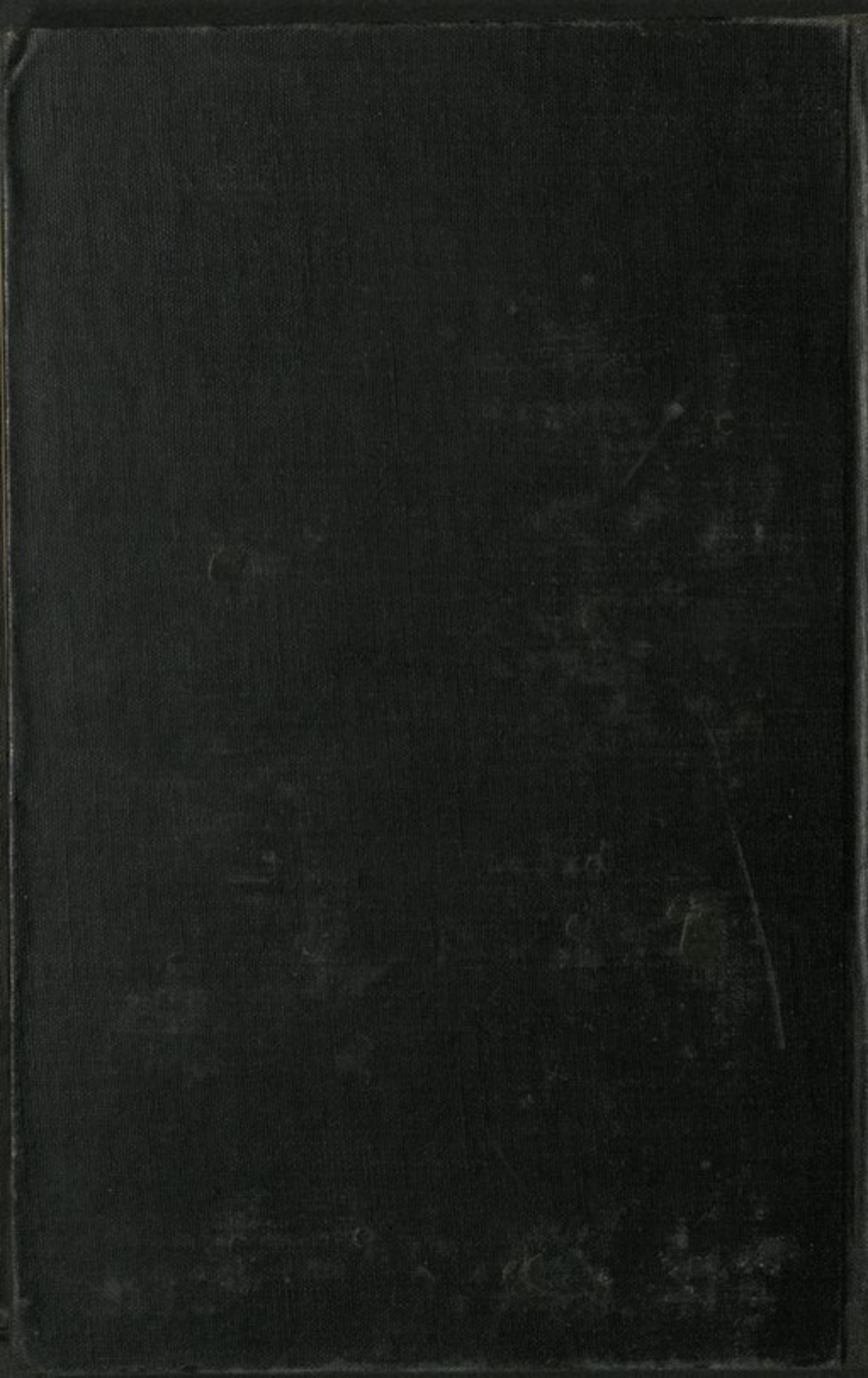
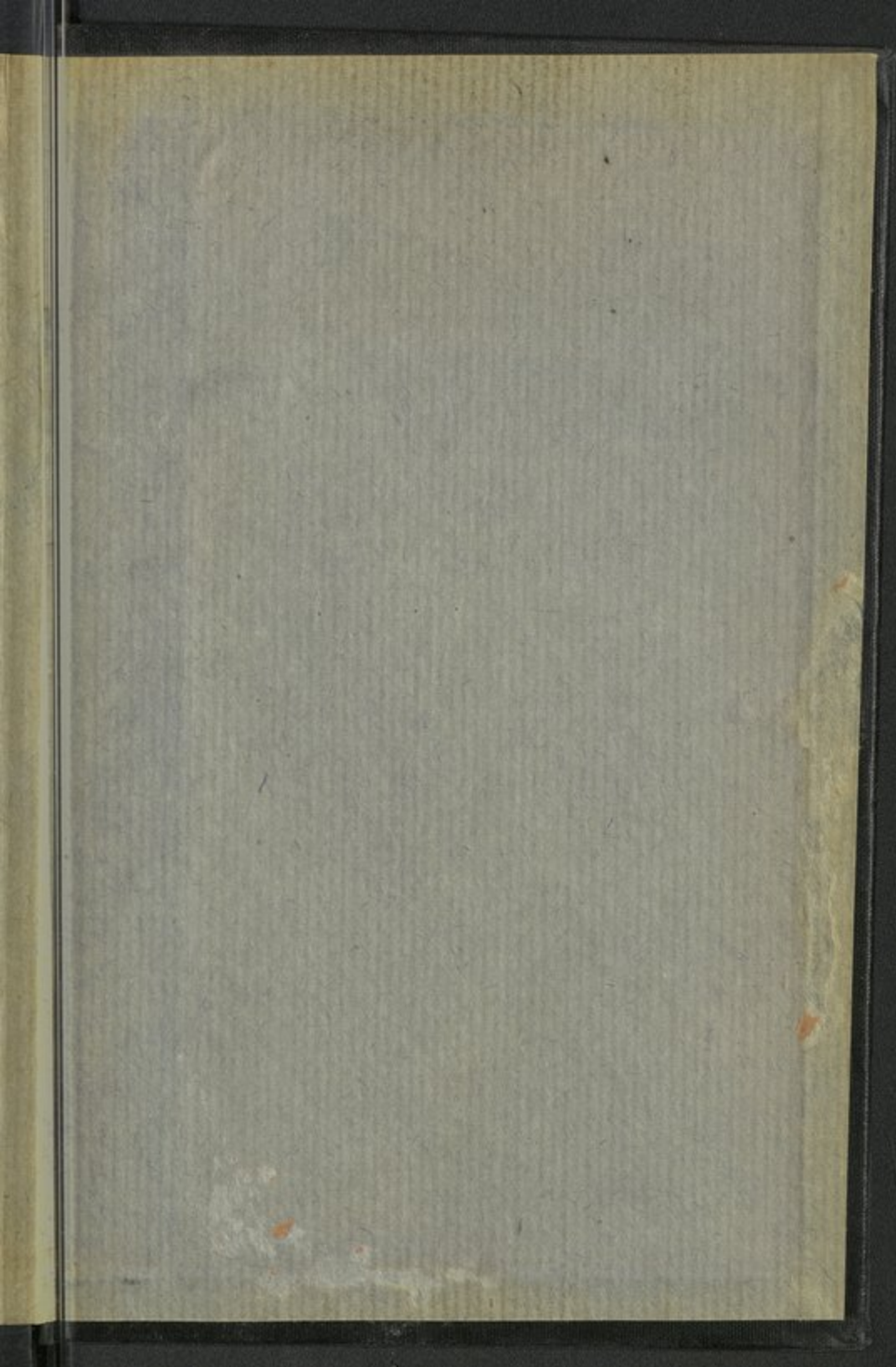






892.73:Sh551sA

الشهاب - شعبان رجب

سلمن التغلبية او قصة الفتح الاسلام

لتكريت

JAN 14 5492

AUG 10 F177

APR 22 1971

892.73

Sh551sA

OCT 1 1970

JUN 1971

OCT 1 1970

OCT 1 1970

OCT 1 1970

892.78

SH598SLH

شعبان رجب الشهاب

892.78

SH598SLH

C.I.

لمى التغلبيّة

أو

قصة الفتح الاسلامى لشكريت

Cat. Oct. 1951

١٩٤٩ م - ١٣٦٨ هـ

77746

طبعة المعارف بغداد



فصل اول

الاهداء

الى من نعتهم نفايد المبتنع عن هاضمة الحياة فغطتهم
مقوقهم وبرد نهم من مؤلم نهم ومزايابهم .

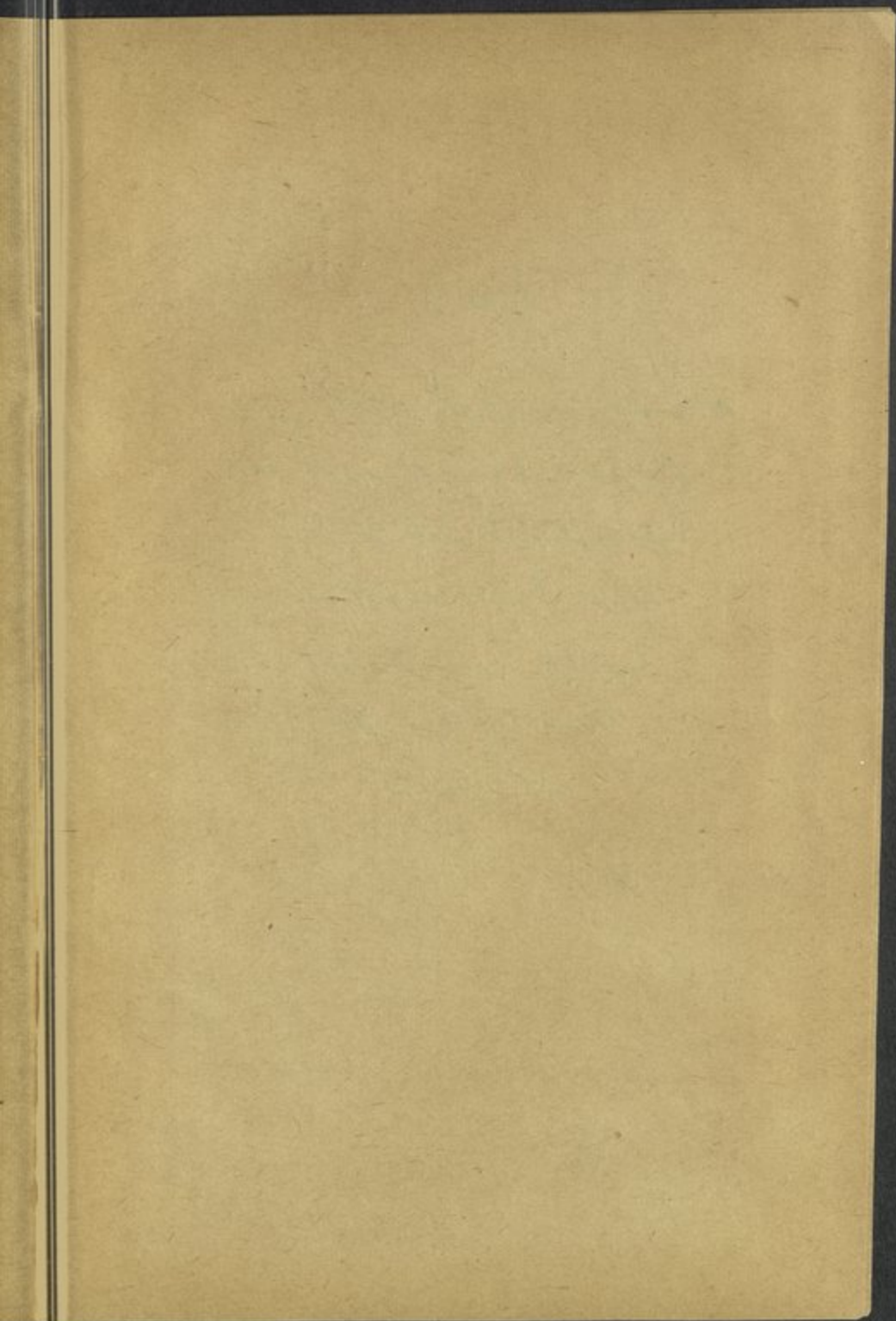
فعاثوا على هاشى الحياة بسكبونه عليها
دموعهم وعصارة انظارهم . بصرو

رهم ونفوس برينة لا يمازجها

الحفر او بخاطرها الانتقام

اقدم هذا الكتاب

المؤلف



نشأ في محيط قروي، بين أبوين فقيرين حريصين على راحته وسعادته،
لذلك تضاعفت أوقات اشتغالها في الحقل الجارر لقريتها « شوزرق (١) »
ليهيئاً من القوت ما يكفل لها العيش مع شيء من الزيادة في الملابس
والكماليات لوجيدها « ماروتا » ذلك الشاب الذي تفرق ماء الجمل في
وجهه وجرى دم الشباب الحار في عروقه حيث سبق بنموه أقرانه ففرع
بالطول المتناسب والاعضاء المتناسقة حتى صار مثال الشاب الكامل
بفضارته ونضارته وسلوكه وسبرته وجدده ونشاطه ، فاصبح من شباب
القرية الذين يشار إليهم بالبنان .

كان « ماروتا » قرّة أعين والديه لانه أملها المنشود وغايتها المثل في
الحياة فقد صفق له قلبها وطارا فرحاً وابتهاجاً حينما رآه يشعر بالمسؤولية
الملقاة على عاتقه تلك المسؤولية التي تدفعه الى العمل في سبيل مساعدتها
واراحتها من مشاق التعب المضني الذي لا يتناسب وسنها المتقدمة بالرغم
من ممانعتها وعدم رضاها خوفاً عليه من انعاب العمل ومشقته ، وحرصاً
على راحته ، لانها يريدان أن يخلقا من الشاب دمية مصقولة الجوانب
تلائم المحل الذي توضع فيه ، أو مزرعية تحفظ لها أزهار الشباب الذي
يسرها مرآة . لكن روح الشاب المتوثبة وشعوره بالواجب أبت عليه
إلا المشاركة في العمل لأن لم ينفرد به لوحده فيوفر الراحة لأبويه .

فلا عجب من شاب يتمسك بتلك الصفات ويتمحلى بهذه السجاياء ويحمل

(١) قرية من قرى (بانوهديرا) من أعمال الموصل وبانوهديرا تشمل على قضائي
زاخو ودهوك اليوم .

ذلك الجمال الأخاذ أن يكون حديث المجالس ، تلهج الافواه بالثناء عليه
 فيردد اسمه على كل لسان إعجاباً به وتعلقاً فيه ، وبالوقت نفسه كان حديث
 فتيات القرية في أسماهن عند ما ينفردن بمجالسهن وبتطرقن بمحادثاتهن الى
 المحاسن والاخلاق ثم القوة والنشاط فالإعجاب ، والحب والفرام ، فله في
 قلب كل منهن حب ولوعة واشتياق ، فسكن يتسابقن في كسب وده
 والحصول على رضاه ، كما يتفانين في حبه وهواه ، لذلك ضايقته في تعرضهن
 له مجتمعات أو غير مجتمعات في كل طريق يسلكه أو عمل يشتغل به أو
 حفل يرتاده ، أو مهرجان يحضره أو اجتماع ينتظم في عقده ، فيعرض عنهن
 اعراض الناسك المتبتل ويتحاشى لقاءهن بتغيير طريقه ومسالكه ، أو
 انقطاعه عن الحفلات والاجتماعات لانه لم يكن من ذوي العواطف الثائرة ،
 والأهواء المتقلبة أو النفسيات الضعيفة ، فتخلبه البسمة ، وتصرعه النظرة ،
 وتسكبه القبله ، وإنما كان في معزل عن ذلك كله .

كان يستغل أيام الأعياد وانشغال القوم في المهرجانات والاحتفالات
 والاعراس ليمتدح في محل ناه منزو ، يتعبد ويتبتل ، تلبية لنداء قلبه
 ذلك القلب الذي ما انفك يدعو الى التعمد وسلوك الطرق الحسنة التي
 تتفق وقداسة الدين وتلتئم ومرامي الصلحاء من الناس . وقد نمت عنده
 هذا الميل ، وتمركزت في قلبه تلك الرغبة ، لانه تربى في بيت يحافظ أهله
 على الدين وقماليه ويتمسكون بأصوله وحرمة قداسته ، ويجلون
 أهدافه وغاياته ، لهذا فقد عزف ماروثا عن الحفلات ، وازور عن الاعراس
 والمهرجانات ، لا مكابرة وتزمتاً أو تحاشياً وكتباً لميوله ورغائبه ، وإنما تلبية
 لداعي العقل واستجابة لنداء الضمير ، وعبثاً حاول الناس استمالته واغراءه
 الى مواضع لهوهم ومجونهم لانه لم يعزلهم حياء أو خوفاً أو عناداً ، وإنما

كان يرى في اعتزاله من اللذة اضعاف ما يشعر به فيما لو كان بينهم ، كما ذهبت جميع محاولات الفتيات في مغازلته واستهوائه سدى ، فقد كن يحاولن إيجاد طريق للحب الى قلبه ، فيتملكن بابتسامة الرضا أو القبول يفتر بها ثغره ، أو يبتهجن بكلمة الحب التي يستخلصنها منه بداعين بها قلوبهن المشغوفة ، لكن الايمان الثابت والارادة القوية ، وقوة المبدأ التي كانت عنده قد حالت دون بغيتهن ، فترك وشأنه بعد ان افسح المجال امامه لأجل ان يعتزل الناس فيتعبد ويتنسك ، وقد تسرب الضيق والضرير الى الابوين من جراء طبع ولدهما الشاذ وحالته التي تدعو الى القلق وعدم الاستقرار ، لانها يريدانه فراشة جواله تهفو الى المناظر الحسنة من الحدائق والبساتين يشمها عطر الازهار وتخلبها مناظرها وتجذبها نضارتها ، فيسكره رحيقها . يريدانه ان يكون خير من يتمتم بالشباب الغض ليرفه عن نفسه ويروح عن خاطره بمغازلة كعب ناهد ، أو مداعبة حسناء جيده أو الوقوع في اشراك حب من خلبيته بحسن فحذبه بخفة الروح والظل وصرعته بشهم اللحظ فيعرف قيمة الحفلات والاعراس والمهرجانات ، ليقبل عليها وينتظم في حلقات انسها وملاذها .

وكثيراً ما كانا يفتاحانه بما يشعران به من السأم والملل من طبعه الشاذ وتصرفه الذي يخالف تصرف اقاربه من اهل زمانه ، فيجيبهما بأنه يشعر بلذة ممتازة وسعادة تفوق سعادة القوم ولذاتهم ، فترك الوالدان شأن ولدهما كما تركه المجتمع وشأنه ، أما هو فقد شعر بالراحة التامة على أثر ذلك الاهمال فاستمر على سيرته التي اقتصر على اشتغاله في الحقل وتعبده وتنسكه في سفوح الجبال او منحدرات الوديان في أيام الاعياد واوقات الراحة دون ان يلتفت الى مجتمعه الذي كان يعيب عليه اوضاعه ، وتصرفات افراده التي لا يستسيقها الذوق او يقر بها العقل .

بقي كذلك حتى اوشك ان يدخل سن العشرين من عمره فترك القرية
وعجز بيته على اثر حادث ألم بحياته فنفصها وجعلها جحيماً لا يطق . ذلك
الحادث هو فقدان والديه الذين اودى بحياتها طعام مسموم على اثر تناوله
وهو لما بزل في الحقل .

بعد ان رأى مصرع والديه عند عودته من الحقل وكل منها يرسم
علامة الصليب على صدره ، أبت عليه نفسه ان يسكن بمفرده في بيته حينما
فقد القلبين النابضين بحبه الخافقين بهواء ، فلم تنفعه تمازي اهل القرية ولم
تخفف عنه حزنه وأساه ، لأنها لم تؤجل له قدراً ، او تدفع عنها ضراً او
ترجع اليه الظاعنين ، فاخلد الى الهدوء والسكينة مع ما يكابد من الحزن
الشديد والامسى العظيم ، فكيف لا يحزن وقد فقد خير من يعتز بهما في
هذا الوجود ، وبم يتأمل ؟ أبالانس الذي جفاه ، أم بالملذات التي عزف
عنها ، ام بالحفلات التي عافها ؟

لقد عرضت له فكرة الرحيل ، فتباورت في عقله وبدأت تراوده
وتحمله الى التنفيذ لتخرج الى حيز العمل ، وتخلص من الحجز والتقييد .
وما ان جن الليل حتى حزم امتهته واخذ من البيت ما امكن حمله بما يفيد
ويحتاجه وخرج منه وهو يودعه بالدموع الحارة التي الهبت خديه وهيبت
نار الالم في قلبه وسار دون ان يلتفت او يترث الى ان اعتلى الرتبة المقابلة
للقرية ، فوقف وقفة حزين بألس يودع القرية الوداع الاخير بآخر ما في
عينه من دموع . ثم استأنف سيره وظل البؤس يلزمه وبماشيه حتى
شابت ناصية الليل ، لكنه لم يفتر او يتعب رغم احتضار شبح الليل على
مرأى منه ، فترك جثته تفسخها أشعة الشمس المطلة على الكون وسار
دون ان يقف امام ذلك الميت وقفة الخشوع ، او يوجه اليه كلمة شكر

من جراء حسن صليبه حينما لقه باردته السوداء ، وتسلل من قريته هارباً
تتفيذاً لرغبة ملحة دون ان يراه احد او يشعر به انسان ، بل واصل سيره
واستمر في طريقه يذلل الصعاب بالموارض والعواقق ويهزأ بالتمب والكلال
ظل كذلك حتى توسطت الشمس كبد السماء فوضع عصا ترحاله الى حين
تحت شجرة توت وارفة الظل . ولما رأى نفسه بحاجة الى الطعام بدأ يأكل
من خبزه الاسود الذي تزود به ثم شرب من عين قريية كان ماؤها البارد
الصافي يستهوي حتى من لا يشكو الظمأ والصدى . ولم يلبث ان اختلى
بنفسه واتقرد بافكاره وبدأ يستعرض صفحات حياته من سجل ذاكرته
حتى انى على نهايتها .

وهنا بدأ النعاس يداعب اجفانه ورغبته للنوم نعتت باوصاله وعينيه
حتى اتقاد رغم اقعه الى سلطان الكرى فسجله في سجل رعاياه وحاول
اغراءه لاطالة مدة بقاءه في امره بما عرض له من الصور الخيالية (الاحلام)
لكنها كانت السبب في تمرد واعلان عصيانه على سلطان النوم فهب
مذعوراً مضطرباً وبين فكيه بعض أحرف متناثرة تمكن لسانه بايعاز من
عقله جميعاً في كلمة لطقها بصورة متفككة حمل على اعاتها لتبيان حقيقتها
واظهارها بمقاطعها وتام حروفها لـ . . . لك (لبيك) فما ان صحا وهدأ
اضطرابه حتى بدأ يستعرض ما رآه في نومه فتذكر انه رأى نفسه بين يدي
رجل تملوه مهابة الرجال الكاملة بقوام حسن وطول معتدل ووجه منير
ينبعث منه نور لا تقوى الابصار على مقابله او التحديق به ، وهو يسأله
ويقول :-

ما اسمك ؟

— ماروثا

- اني قد دعوتك بهذا الاسم ولا ازال ادعوك به واسكني لم اسمع
اجابة تكون صدق لدعوتي اياك فهل تصامت ام تجاهلت ؟

- لم اتجاهل ولم انصام وانى على علم من اننى لم اسمع احداً دعاني .
- فان كنت تصدق فيما تدعى وتقول فما بالك هجرت قريتك وتوجهت
الى جهة غير معلومة ؟ ومن اوحى لك بهذا ومن استخفك للهجرة ؟

- لم اجد في قريتي ما اتعل به او اتسلى لتباين الذوق واختلاف الميول
بيني وبين اهل القرية الذين عملوا كل ما يمكن عمله لمشاركتهم في عيشتهم
ومشاطرتهم في ملاذهم ، لسكني كنت اشعر بالضيق والملل بينهم رغم حبهم
لي وتقائهم في سبيلي .

- اني اكرر عليك دعوتي بان تذهب الى احد الأديرة المجاورة
وتنصرف بكليتك الى فهم الدين وتعاليمه لتسكون ممن يتبتون بديانه ويقون
دعائمه واركانه .

- وما ادراك اني سأكون كذلك يا سيدي .

- لتوسمي فيك النيل والطهارة وتوقمي منك الجهاد والنضال في سبيل
الدين الذي تعلق به منذ صغرك دون ان تستمليك ملاذ الحياة وزخارفها .

- لم تكن من سكان قريتنا او القرى المجاورة لنا حتى تعرف عني ما
لا يعرف غيرك من المعلومات التي اصابك صميم الواقع واستهدفت جوهر
الحقيقة .

- أنا يسوع آمرك بالتبذل الى الله والانصراف الى الدين فيها . . .

قال ذلك بصوت مرتفع استيقظ ماروثا على اثره وهو على تلك الحالة
قام من لحظته وسار لأن الايمان يحدوه والرؤى تسوقه ، وقبل ان يشيع
شعاع الشمس المحتضر رأى على البعد برجاً عالياً تحته بناء نفيم ، ولما حث

السير اليه تقرب منه فتمكن من ان يرى ديراً من الاديرة يتربع على قمة
تل مرتفع وحيثما وصله طرق باه ففتح له ودخل ثم سار اثر من فتحة فادخله
غرفة معدة للضيوف ثم احضر له الطعام بعد ان استقبله بالتحية العطرة التي
يستشف منها الود والاخاء الصادر من روح صافية الجوهر والماهية .

لم يكذب يفتي ماروثا من الطعام حتى دخل عليه راهب الدير فسلم
عليه فما كان من ماروثا الا ان استوى واقفاً فرد عليه تحية . وتبرك بلم
يده وبعد ان جلس الراهب وماروثا بدأ الراهب يسأل الشاب اسئلة تتعلق
بسفره ودواعيه واسبابه وماروثا يجيبه عنها حتى قدر ان يفهم تاريخ حياة
الشاب بصورة مفصلة فمش له الاب وبش وفرح به واستبشر بعد ان رنى
لحاله وعزاه بمصيبته وقال :-

لئن فقدت رحمة الابوين وعطفهما فقد كسبت عطف الاب والابن
ولئن ضيعت عائلة قوامها ثلاثة اشخاص باضافتك اليهم فقد حظيت بعائلة
ديرنا المتكونة من ثلاثين شخصاً قد نجد عندهم حب الابوين وحنانها
وشفقة الابناء وعطفهم وانسجام الاخوة وطاعتهم فطب نفسك وقر عيناً
فافك لا تجد في دير (نروس) الا ما يسرك ويرضيك وان تأقت نفسك الى
اكثر من هذا بما ليس في حوزتنا أو تحت تصرفنا فانا سنكون لك من
المساعدين المؤازرين ولو تجشمتنا المصاعب وتحملنا الاضرار .

شعر ماروثا بأنامل الامل تداعب قلبه الحزين فتوقظ فيه روح المرح
والاغتباط لتهز كيانه وتبسط اسارير وجهه وقسماته ، ثم يجيب الراهب
ويقول :-

لا شك اني قد لمست قوة ايمانك وثبات عقيدتك في دين المساواة
والاخاء فيما ابدته نحوي من احسان وقدمت لي من معروف بعد ان

غمرتني بمطعمك واغرقتنني بفيض لطفك فأحببت في قلبي ميت الآمال
 ووجهتني باتجاه مما كس لما كنت قد ازممت عليه وان لسان الشكر مني
 ليعجز عن التعبير بالفاظ الثناء التي قد تكون قليلة في حقك غير كافية لكرم
 اخلاقك فقد نورت تجاوبف قلبي الفاصة بظلام اليأس والحزن والقنوط
 وستجدني خير ولد بار واحسن خادم مطيع لك وللانسانية جمعاء تلبية
 لداعي الدين الذي يهدف الى اصلاح تلك السكتل البشرية التي شذت
 بتصرفاتها بمخالفتها لقوانين الحياة فتاهت في وادي الجهل وضلت في
 صحاري الجشع والانانية فانقرط العقد وتفرق الشمل و... و...

فقاطعه الراهب وقال :- لا داعي للشكر والثناء يا بني فانك قد اصبحت
 منا لك ما لنا وعليك ما علينا والآن ارجو ان تأخذ قسطك من الراحة
 فتنام لأنك متعب من السير وعناء الطريق ثم حياه الراهب وانصرف
 فاستسلم ماروثا الى نوم عميق لم يستيقظ منه الا على رنين ناقوس الدير
 يدعو الى الصلاة فهب من فراشه مذعوراً لتأخره في النوم الى مثل هذا
 الوقت وتوجه الى محل الترابيل يقوده احد الخدم واشترك مع الراهب
 ثم نعرف بجميع من آواهم ذلك الدير .

- ٢ -

لم تمض الا عدة ايام حتى كان ماروثا يتفوق على زملائه في الاعمال
 الزراعية التي اشتغل بها على حساب دير (نروس) بما له من استعداد
 سابق بنفس العمل . وامتاز بسرعة فهمه وتوقد ذهنه حتى لمع نجمه ،
 وسطم نوره في افق الدير المذكور فكان احسن من يتقن تعاليم (يسوع)
 تلك التعاليم التي تلقاها من الراهب المذكور . فازداد في نظر الراهب

أكباراً واجلالاً بعد ان احتل من قلبه محلاً ممتازاً ، فاجبه وقربه ،
واتخذها صاحباً وتلميذاً ومشيراً ونائباً عنه في غيابه . حتى الهبت هذه
الاورضاع نار الغيرة والحسد في قلوب رجال الدير ، فاصبحوا غير مهتاجين
لوجوده في ديرهم وبين ظهرانيهم .

احسن ماروثا بما يحتاج لقلب القوم من الحقد والكراهية حينما عرضوا
عنه ، وبدأوا يتصدون لاقواله وآرائه بالتكذيب والتسخير والحط من
اهميتها وعظمتها فلفقوا الاكاذيب واسندوها اليه واختلقوا العيوب
والمشينات ولصقوها به . غابتهم الحط من كرامته او نحو آثار اعماله
الناصعة بعد ان يجروا عليها ذبول الخزي والعار . وقد اوصلوا ما اختلقوه
او لفقوه الى مسامع الراهب فلم يزد الراهب المذكور الا تعلقاً به وحباً له
واعراضاً عنهم وابتماداً منهم لانه كان يرى الشاب بعكس ما يسمع منهم .
استمر ماروثا دائماً على تأدية اعماله باتقان وتأن مكباً على مطالعة
الكتب الفلسفية واللاهوتية مواظباً على تلقي التعاليم الدينية من الراهب
غير ملتفت لما يحاك له من الشراك وينصب في طريقه من المصائد والانفاخ
وما تدبر ضده من المكائد للايقاع به والتخلص منه . لانه حجب نور
شهرتهم وقضى بذكائه وحسن سيرته على آمالهم واحلامهم .

لم يقابل اعراضهم باعراض او عداوتهم وحسد ثم بمداوة وحسد بل
بالتحريات التي تعبر عن صفاء الود وعظم الاخلاص وشدة المحبة . فتزداد
مراحل الحقد والكراهية التي في قلوبهم غلياناً . في مثل هذا الجو المشبع
بروح الانانية والحسد تمكن ماروثا من ان يقضي ثلاث سنوات تلقى من
الراهب خلالها احسن الدروس الدينية وتلقى من الحياة والمجتمع جميع
الدروس ، الصبر والاناة وعدم الاكتراث مع التسامح التام لانه اصطلحهم

بحقيقة الحياة السافرة . لذلك قدر على تكليف نفسه بالنسبة لمطالب الحياة وغاياتها ، دون ضجر او ملل بل برضى واطمئنان وعدم اهتمام او الالتفات الى ما يدور حوله او يحاك ضده .

لكن الزمان الذي سايره وماشاه الى حين لم يلبث ان قلب له ظهر المجن فتمر له وتمرد عليه ففجعه بوفاة الراهب على اثر سقوطه من الجبل حين زلت قدمه فتداعى وانهار ما تحته وهو لا يملك من وعيه غير لفظ انقاسه الاخيرة بعد لحظة قصيرة من سقوطه ولم يتناول الموت على الراهب الا لاجل ان يفقد (ماروثا) العطف الابوي والحب الاخوي والاخلاص التام . فترك الدير وبهم على وجهه وهو لا يلوي على شيء . وقد تحققت امنية الزمان الفادر فهاجر ماروثا بعد اتمام مراسيم دفن جثة الراهب وترك الدير ولم يتزود منه الا بمثل ما تزود من بيته الذي هجره بالامس . خرج في ليلة حالكة الظلام مدلهمة ثم بكى ما شاء له ان يبكي . بكى الراهب الذي لمس عنده عطف ابويه فتجدد حزنه عليهما وبكى سوء طالعهما ، فسار على غير هدى تواكبه الافكار والاخيلة وتماشيه الاحزان فتتفجر الدموع من عينه كأنها الينابيع ، فلم يهتم بوعثاء الطريق وعرافيله التي كانت تتغالب مع الدهر في ابدائه واتعابه . واصل السير حتى انهزمت جحافل الليل امام فرسان النهار فاهتدى الى الطريق المطروق فاطمأن قلبه وهدأت ثائرة وخف حزنه فازدادت رغبته للسير السريع دون ان يعين له هدفاً أو غاية بقي كذلك حتى قاربت الشمس ان تتوسط قبة الفلك فبدت خطواته تقصر وسرعته تنقر شيئاً فشيئاً حتى شعر بثقل في قدميه لا يطاوعه على السير فاتجه الى سفح الجبل الذي كان جائعاً بقربه ولما وصله تداعى بجسمه ورمى بنفسه بدون ارادة . في ذلك الظل الظليل فقد نال منه التعب والضنى ما

جعلته يفقد السيطرة على زمام نفسه فاصطدم في الارض اصطداماً قوياً
 لسكنه غير مكرث لما اصابه من الاذى وقد واصل سيره بعد فترة استراحة
 قصيرة تمكن بواسطتها من اعادة قواه فاكل ما تبصر له من المتاع الذي
 كان بصحبته وسار في تلك الخيفة والجبال العالية الشامخات تحمل من التعب
 والمشقة ما لا طاقة له به لسكنه ذلك الصابر المحتسب . ظل كذلك يواصل
 في سيره الليل والنهار تتقاذفه الافكار وتعبث به الهواجس والتصورات ،
 فسكن ضل وكم اهتدى وكمرج على قرية فيجد من اهلها الحفاوة والترحيب
 والضيافة الحسنة التي تنسيه همومه واحزانه فيجد نشاطه وبضاعف قوته
 بعد ان ينفض عنه غبار التعب والكلال ، وكثير ما كان يقوده سواه
 الطالع الى بعض القرى فلا يلقى من اهلها الا المهافة والاستهزاء ولا يستطيع
 الحصول منهم على قدح ماء الا بعد ان يبذل من ماء وجهه اقداحاً ،
 فيغادرهم دون ان يأخذ قسطه من الراحة بينهم او بالقرب منهم . ولم يكن
 سفره هذه المرة دون غاية او من غير قصد ، كما سافر بالامس حينما هجر
 قريته ، وانما كان من اجل العلم والفلسفة والدين ذلك العلم الذي كان يأمل
 ان يجده في احد الاديرة او السكنائس ، ولم يحظ بما اراد الا بعد ان
 انهكه السرى وانعبته الطرق واسقمه السهر ، فقد ذاق من العذاب والشقاء
 ألواناً متعددة وصنوفاً متباينة ظلت تراوده وتضايقه مدة عشرين يوماً
 وبعد هذه المدة ترامت له الابنية الضخمة والابرار العالية ، ولما ايقن انها
 غايته تجدد نشاطه فحث السير حتى وصل .

وقف ماروثا على باب الدير ينتظر فتحه بعد ان طرقة عدة مرات

وهو يراوح قدميه في وقفته بعد ان قال منه الاعياء ما افقده القوة والنشاط ولا سببا في سيره الاخير اثر رؤيته بناء الدير قد بصره في بلاهة واسترخاه كما اطلق لتفكيره العنان ليحول في اللانهاية : وخجأة افتتح الباب واذا برجل يقول له ادخل ايها الضيف الكريم . ولما وضع ماروثا رجله على عتبة الباب قال :-

ما اسم ديركم ايها الاخ ؟

- لملك لم تكن من هذه الديار او من الاقاليم المجاورة ؟

- أجل يا أخي .

- ولهذا لم نعرف اسم الدير مع انه مشهور تقرب وتعرف المحلات

المجاورة باسمه . فدير « مارزكي » منبع التعاليم الدينية ومقر الرهبان والهربان وموطن الفلسفة اليونانية المعزوجة بالديانة المسيحية .

- عفوك يا أخي لما بدر مني لانني لم اكن من مجاوركم أو القريين

منكم ، فلم أصل ديركم هذا الا بعد ان تعرضت لمشاق السفر عشرين يوما لياليها تتخللها فترات راحة واستجمام قصيرة .

- اذن انك بحاجة الى الراحة والطعام .

وما هي إلا فترة وجيزة غاب الرجل خلالها ثم عاد يحمل طبقاً من الطعام

وقدحا فيه شراب وضعها بين يدي ماروثا فأكل وشرب حتى اكتفى ،

ثم شعر بارتخاء في مفاصله وفتور في عضلاته لأن الوهن والنصب قد قضيا

على ما تبقى عنده من قوة ومقاومة فدب النعاس الى أعفائه يداعبها فما

لبث أن استسلم لقوة النوم الخفية التي غزته من الباب المرمر فأمرته

وقادته دون مقاومة أو تمنع ونفور .

ولما اوشكت الشمس أن تتوسط السماء استيقظ ماروثا فوجد رجل

الامس يحمل له طعام الافطار فقال له بعد أن رد عليه تحيته .
يوسفني أن تطلع الشمس وأنا لا أزال أغط في نومي لأنني لم أعتد
نومة الضحى أبداً ، كما يوسفني أيضاً أن يكون تعبك ومجهودك من
أجلي .

- لا بأس من ذلك ولا تثرب عليك فانا مهمتي السهر من أجل راحة
ضيقنا وكل انسان يطرق محلنا .

- أظنك لم تصادف أكسل مني خلال اداء معروفك لضيقك .
- لم يكن استغراقك في نومك وتأخرك في رقدتك دليلاً على كسلك ،
ولسكن لهوائنا المنعش الطلق وخصوصاً في ليالي الصيف سحر عظيم ،
يستبد بالمرء فيسليه الى نوم عميق بالرغم منه ومن ممانعته الجاذبية النوم .
أما أنت فلك الحق الكبير في تأخرك في نومك الى مثل هذا الوقت لأن
رقة الهواه وعدوبته مع تعبك وعنائك جعلتك تغط في نوم عميق .

أخذ ماروثا ابريق الماء وبدأ يغسل وجهه ويديه ليترد شبح النوم
الذي ما اتلك يرأوده ثم انكب على طعامه فأكل منه كفايته ثم غسل
يديه وجلس برهة أمام زجاجة معلقة على الحائط تعوض عن المرأة وهو
يرجل شعره ويصباح من هندامه وزيه بعد ان قض غبار الطريق منها وبعد
هنيهة عاد الى الرجل نفسه وقال : -

الريان^(١) (نادورو) يستدعيك ويطلب مواجعتك في غرفته .

قال ماروثا السمع والطاعة . فنهض من لحظته وسار خلف الرجل حتى
دخل غرفة الريان بعد أن استأذن في الدخول ، فوقف أمام رجل اسمر
اللون صغير العينين بادي عظام الوجنتين قد وخط الشيب شعره فبدل لونه

حتى استحال سواده الى لون رمادي . فتقدم الرجل منه وقال : - هذا هو ضيفنا يا أبي فقال الريان أهلاً وسهلاً ومرحباً .

فتشجع ماروئا وتقدم الى الريان ولثم يده ثم ارتد الى الوراء فأمره الريان بالجلوس أمامه وبدأ يداعبه بيمض النكات حتى تشجع وشعر انه غير غريب من هذا الدير وأهله ، فاستدرجه الريان بالكلام وقال :

يوسفني لعدم معرفتي اسمك ووطنك والمحل الذي قصدتنا منه يا بني .

- اسمي ماروئا ومسقط رأسي قرية (شورزق) من قرى (بانوهديرا) من اعمال الموصل وأتيت من دير (نردس) ، بعد ان قضيت فيه ثلاث سنوات .

- حقاً انك قد أرحمتنا باجوبتك هذه فأزالت الشك الذي كان يحاصرنا من عدم معرفتك وعدم اطلاقنا على هويتك ، اما جذسك وعنصرك فمروف عندنا من سحنة وجهك وتقاطيعه بأنك من عمومنا المريان . ثم سكت برهة استأنف الكلام بعدها قائلاً : -

أظن ان راهب دير نردس هو (يعقوب) ؟

- أجل يا مولاي

- وكيف حاله عندما هجرت الدير ؟

- لم اتجشم مشاق السفر وألافي اخطار الطريق واتذوق مرارة الفراق والأب يعقوب من الأحياء ولكنني هجرت الدير بعد أن سجله القدر في سجل الاموات على أثر سقوطه من قمة الجبل المجاور ، وبموته فقدت كل شيء في تلك الديار ، لأنه استاذ عظيم . نورني بعلمه وهداني بعقله . وأب كريم لمست العطف والحنان منه فغممني بحبه ورعاني بعنايته عند فقد الأبرين وانقطاع ذات البين .

كان يتكلم بصوت متهدج تنبعث منه رنات الحزن والأسى ثم سكت
بعد حصرة طويلة فاستأنف الكلام وقال : - تركت الدير يا سيدي لأنني لم
أجد بعده ما أعمل به أو أتسلى لأن محبته اياي وحده علي قد اهلبت نار
الغيرة والحسد في قلوب رجال الدير فتتمروا علي وكرهوا صحبتي وبقائي
طمعاً بالافضلية وأولاً بنوال الاسبقية .

فقاطعه الربان (ثاودر) قائلاً : -

رحمه الله انه كان عبداً صالحاً وصديقاً مخلصاً عرفت الاخلاص والمحبة
الحقة مع الصداقة الصادقة فيه حين عرفته وصادقته في عهد التلمذة في
كنيسة الرها . فلزمته لاخلاصه ووثقت به لدائمة اخلاقه وتضحيته .
بقيت معه على أحسن ما يكون من الود والوفاء الى أن تفرقنا بحكم الواجب
الذي كرسنا حياتنا لأجله وواصلنا شعيناه . فانتدبته الكنيسة راهباً في
تلك الربوع لانه منها . كما انتدبتي ربانا لهذا الدير .

ولما كنت تلميذه فاني استجلي فيك صورة افكاره وآرائه ان لم أرى فيك
أخلاقه وفضائله . لذلك فإن قلبي قد هفا اليك وتعمي تاقت الى ان تشاطرنا
عيشنا وتصبح أحد افراد ديرنا لنشترك وياك في السراء والضراء فنحقق
امنية واحدة مشتركة ونصل الى غاية واحدة نهدف اليها وهي انارة مسالك
قافلة الحياة بنور مشعل الدين المسيحي ، فنصل الى الهدف السامي الذي
يكفل لنا السعادة الحقة تحت راية العدالة والاخاء والمساواة عند نزاع ما في
قلوب الناس من غل .

فأرجو ان تركز الى الهدوء والسكينة وتخلد الى الراحة التامة فتلقى
بعضاً ترحالك في ديرنا هذا لتزى كل شيء يصرك ويرضيك فان كنت تشهد
الراحة فهذا موضعها أو تطلب العلم والفلسفة وتعاليم الدين الحقة فهذا

معيها ومن هنا بزغت شمسها فأنارت بلاد الشرق بعد أن تركت اليونان
وبلاد الشام ومصر ينعمون بالحياة تحت نورها الساطع وضياؤها اللامع .
فأجابها ماروثا قائلاً :-

لك الشكر الجزيل يا أبانا . فإني قد سمعت منكم ما هو كفيلاً بضمان
راحتي وتحقيق لنوال غايتي وبغيتي فيها أنا قد القيت بعصا ترحالي في دبركم
بعد أن تحسست عطف وتلطف ربانه وحاشيته قبل أن يطلع على أعمالي
وميزاني وهذا شأن المؤمنين الصالحين وهو شعورهم تجاه بعضهم البعض
مهما نأت الدار وشط المزار .

ما كاد ماروثا يفتحي الى هذه العبارة حتى تقاطر رجال الدير على اختلاف
أصنافهم وتباين منازلهم الى غرفة الربان (ثاودور) ليأخذ كل واحد منهم
منهجه اليومي ، فأقضوا من حوله بعد أن أخذ كل منهم منهجه يومه من
العمل أو الدرس ثم التفت (ماروثا) الى الربان وقال :-

اعطيت كل رجال الدير مناهجهم اليومية وكلاءتهم جميعاً بالتطبيق العام
لاخراج أو انتاج العمل الصالح بصورته السكاملة ثم تركتني رهين الانتظار
بعد أن سلمتني الى عفريت البطالة الذي يقود المرء بالرغم منه الى ما فيه
التخريب والتدمير فلا جرام . فإن كنت من المقربين اليك رغم قصر مدة
تعارفنا فأرجوا أن لا تذيبني مسارة الانتظار أو تركتني مستسلماً لعفريت
البطالة فتجني علي وعلى المجتمع الذي سيخمرني ويسخر مني حينما اوجه
اليه سهام الشر ونار الضرر . فهذا العفريت المتمرد سيخلق مني انساناً
متمرداً متمراً على البشر مطيعاً مخلصاً له فرد عليه الربان :-

لا تظنني قد أهملتك أو تركتك دون عمل أو واجب فالعمل سيأتيك
والواجب يوافيك متى ما اخذت قسطك من الراحة التي انت بامس الحاجة

البها . لأنك الآن من ضيوفنا السكرام الذين حققت علينا تأدية حقوقهم كاملة غير منقوصة . ومتى ما استعدت قوتك ونشاطك ونفقت عن جسمك غبار التعب والانهك فأنك ستجد عملك المناسب بانتظارك . أما الدراسة فمكن قربة العين هادي الفكر مطمئن الخاطر طيب النفس من جهتها ، لأنني سأكون عند حسن ظنك وسأطول القيام بها كما تحب لأجعل منك صورة ثانية مني كما أنت الآن صورة من الراح « يعقوب » الذي صقلك بتعاليمه ونورك بأفكاره . وبعد مرور ثلاثة أيام على إقامة ماروثا في دير « مارزكي » قرب الرقة انخرط في سلك العمل واختار « الفلاحة » مهنة له لهوايته الخاصة بها ورغبته الملحة لما له من استعداد سابق واشتغال كثير .

كان اشتغاله قليلاً لتوفر الأيدي العاملة المتآزرة هناك . الأمر الذي جعله يخصص أكثر أوقاته للدراسة على يد الربان ثاودر بالإضافة إلى المطالعة الخارجية مع الانفراد بنفسه للخلو بأفكاره يستعرض ما علق بذهنه من الدروس الفلسفية والعلوم الإلهية والتعاليم الدينية التي تلقاها من الربان أو طالعها .

وحينما يخرج من عزلته ويتصل بأخوانه من قساوسة الدير وتلاميذه ، ينتظم معهم في حلقة واسعة للحوار والنقاش وتبادل الرأي في مختلف المواضيع كاللاهيات والفلسفيات وتعاليم الدين إلى غير ذلك فكان يبدى من البراعة وطلاقة اللسان وسداد الرأي لما يستمد من العقل الراجح الذي اختمرت فيه العلوم المكتسبة ، ما يجعله فارس الميدان المسيطر على الحلقة .

وكثيراً ما يحضر الربان (ثاودور) ذلك الحوار والنقاش بطريق

الصدفة فيشاهد من براهه ماروثا في الرد والاقناع ما يعجبه ويرضيه .
 وذلك لعظم حجته وبلاغة قوله وقوة بيانه فيزداد حبه له وتعلقه به وتعمق
 منزلته عنده . الامر الذي جعل الربان يمتصر له بقية علومه وثمالة معرفته
 يودعها في عقله فيرتشف ماروثا تلك العلوم ارتشاف الصادي للماء الزلال . ولم
 يكد ماروثا يتم السنة الرابعة بدبر (مارزكي) حتى اتقن اللغة اليونانية
 التي تغفل بواسطتها في صميم الفلسفة اليونانية فعرّفها واتقنها بعد ان حل
 عقدها واكتشف مجاهلها وذلل مصاعبها ، فوصل الى اقصى ما يمكن ان
 يصله المرء في ذلك الزمان في العلوم الالهية (وليدة امتزاج المسيحية
 بالفلسفة اليونانية) .

لم يكد ينتهي الى ما انتهى اليه من علوم وفلسفة وتضلع في الدين في
 ذلك الدبر بواسطة الربان ثاودور حتى عرج الى الرقة فتطلع الى كنائسها
 وادبرتها باحثاً عن العلم منقّباً في زوايا تلك الكنائس عن المعرفة ولما لم
 يعثر على شيء جديد قفل راجعاً الى دبره المذكور يساعد استاذة في
 التدريس فاسند ثاودور مقاليد اموره وامور الدبر كلها الى ماروثا يوجهها
 كيف شاء ويصرفها انى اراد .

نهج في سيرته نهجاً محبباً الى النفوس بحسن معاملته إذ بذل من
 الجهود الجبارة ما عجز عنها غيره وذلك لان قلبه منار بنور الفضيلة التي
 استمدت زينتها من ينبوع العلم المتدفق الذي طغى سيله على ادران الحقد
 والاثانية والحسد فازالهما فأزداد لسانه طلاوة ومرونة ونشطت روح
 الامتزاج والاختلاط في عقله مسح تلافي الاغلاط والمفوضات
 والاختطأ ، وقد احبه الناس وقصدوه من كل فجح وصوب عند ما لمع
 نجمه وسطع ضوءه في جميع العالم المسيحي . حجوا اليه لتزود من علمه ،

والاستنارة بنور معرفته التي استمد أكثرها من استاذ «تاودور» ذلك
الاستاذ الذي وثق به وقربه منه لما وجد فيه من السكفاية والمقدرة
المنقطعة النظير وما عنده من العقل الراجح والاخلاق الدمثة والعلم
الغزير .

لسكن ماروثا لم يحفل بالجاء العريض الذي اكتسبه ولا بالشهرة التي
ملأت الاجواء لانه لم يكن ممن يحسب لزيف الحياة الحساب الكبير ،
فينمغذع بمظاهرها المغرية ونقوشها المزخرفة البراقة فيرضى بما بسط الله له
من سلطان وصيت ومال وبركن الى الهدوء والسكينة شأنه بذلك شأن
الصالحين . أو يتشبث بوسائل الظلم والجور والظفیان تلبية لنوازع النفس
الامارة بالسوء ، أو تدعيماً للمسكة من الافهيأ وما له من النفاد وجاهه
وصيته من الزوال . هذا اذا كان من ذوي النفوس الامارة بالسوء .
لسكنه زاع عن هذا وانحرف عن ذلك فكسر جهوده ووقف حياته
للدين ونشره ، فلام له في الحياة غير نشر الدين والعلم ولو كلفه ذلك
حياته ، وسرعان ما لبى طلب كبار رجال كنيسة الرها الذين ألحوا بكتبهم
بالشخص اليهم بالسرعة الممكنة .

أمرع ماروثا في سيرة بعد ان ودع استاذه وجميع اخوانه الذين
يعز عليه فراقهم تسوقه الرغبة وتحذره به الحاجة الملحة للاطلاع على ما في
السكنائس من كنوز العلم والمعرفة . لسكن هذه السفرة تختلف عما ألفه
من السفرات السابقة تلك السفرات التي قاسى اثناءها مختلف انواع المتاعب
والآلام وشتى صنوف المصاعب والمهالك . وقد ظن ان هذه السفرة
ستعرضه للمتاعب والاحطار فهياً نفسه لمجابتها ومقابلتها وجهاً لوجه
لسكنه لم يجد ما توقعه وظنه لان البرذون الذي هبأ له الربان (تاودور)

قد وفر عليه اتعاب السير وثقل الماء والمتاع ولذلك الرفيق الذي رافقه
 في سفرته بإيعاز من الربان قد ازال عنه الوحشة وقطع جبل السمكوت
 ومنمه من الاختلاء الى نفسه ، فقد كان واياه في نقاش مستمر وكلام دائم
 وابحاث كثيرة تدور كلها حول الدين والاراضي والطرق التي يبرون بها
 ويسلكونها ، لذلك فانها لم يشعر بالطريق الذي قطعاه والمدة التي قضياها
 في طريقهما . وحينما تراءت لهما ابراج كنائس الرها العالية الشامخات انفتحت اليه
 صديقه وقال :-

انظر الى ابراج كنائس الرها وقصورها التي كلفنا السير الوصول اليها
 سبعة أيام .

فاجابه ماروثا : أجل أنها هي

- حقاً أنه سفر مرهق لم نشعر معه بتعب الطريق أو مشقة السير .

- لأننا قضيناها بالحديث والنقاش ، فأسأمت الضجر والتعب والافئ
 تواني الشخص من جراء سيره في الطريق بمفرده ، فيضطر الى التعلل
 بالاستماع الى وقع اقدامه وتعداد خطواته أو الركون الى هواجس نفسه
 وأخيلتها .

وبعد ان تذاكراً قليلاً وسارا مدة ساعتين انحرف رفيق ماروثا عن
 الطريق الموصل الى المدينة واتجه الى دير مرتفع قائم على جبل يطل على
 المدينة من جهتها الشمالية الشرقية فقال له ماروثا :-

الى أين يا أخي ؟

- الى كنيسة الرها الكبرى الى مقر الذين طلبوك وأحبوك من
 رجال المسيحية الكبار ، الى حيث يقيم الربان (توما الفرير) ذلك
 الامتاذ الكبير والحارس الامين للعنديل الذي نشف به يسوع من ماء

التعميد ، الذي زاد في قدسية الكنيسة وعظم منزلتها . ثم سكت والتفت
فوجد انها قد اقتربا من الكنيسة المذكورة فالح على برذونه بالاسراع .
ولما سأله ماروثا عن سبب سرعته قال :-

لأسبقك الى القوم واعلمهم بقدمك حتى يستقبلوك .

- لا داعي للاستقبال يا أخي ولا معنى لهذا الاسراع فتعمل ودعنا
ندخل عليهم دخول الفقراء ، لا دخول من غرته السلطة وخدعه الجاه
فيصبو الى المظاهر الخلابه الفارغة وينبذ الجوهر والماهية . اسكن صاحبه
قد غاب عنه دون ان يلتفت الى قوله أو يعيره اذناً صاغية .

— ٤ —

لم يكد يصل ماروثا حتى أصبح بين جمع غفير من رجال الكنيسة الذين
خرجوا لاستقباله يرد عليهم التحيات مقرونة بالمصافحة والاشارة وحينما
دخل الكنيسة ارشده الى محل توما الضرب الذي منعه الشيخوخة
والسن المتقدمة من استقباله رغم تلفه الى مواجهته وتعطشه لرؤيته .
ولما دخل ماروثا حجرة الربان المنحوتة من الصخر استقبله شيخ طويل
حامر الرأس أبيض الشعر غريص اللحية وهو يتحامل على نفسه بوقفته
هذه وجسمه يرتعش لان السكر انهك قوته وهذ حيله وتركه بلحاته بعد
ان اعتصرت السنون الكثيرة شبابه وقوته .

تقدم ماروثا من الشيخ فلم يده ثم ربت على كتفه اشارة في طلب
الجلوس فقد عجز عن الوقوف . فجلس وجلس ماروثا بقربه والربان يجدد
تحيته وماروثا يردها بلطف وحياء ثم قال الربان :-

أظنك لم تتعرض الى الاخطار والمهالك في طريقك الينا .

- نعم يا سيدي الربان ، لأن مشيئة الله حالت دون جميع المصاعب والمهالك والاضطراب التي كانت تهددني في طريق فقد كنت وصاحبي تتمتع بلذة لقاءكم لأرتشف رحيق الحكمة والمعرفة من منبها الصافي وجدولها السلسيل . وها أنا قد استرحت من جميع المتاعب فحسن لفاك يا مولاي قد نقض عني غبار التعب والاعياء ، وجدد نشاطي فاعاد الي قوتي وجهودي بعد ان ايقظ ما عندي من القوة التي طمرت تحت ركام الظهور والوهن من جراء التعب والانهك .

- لم نستقبلك بالحفاوة التي انت أهل لها والتي تليق بشخصك ومقامك لأن مقدمك أتت به المصادفة وجاء وليد المفاجأة فارجو المَعذرة والصفح يا ولدي .

- الشعور بالاخلاص والمحبة التي لمستها منكم ، كافية لأن أبدي أو أظهر من الشكر والثناء ما يعجز اللسان عن ذكره والقلم عن تسميته .
- لم نبذ من الاعمال التي تستحق الشكر والثناء ولذا فاني خجل من ذلك يا بني .

فبدل الربان حديثه وقال :- كيف تركت أهل الرقة يا ولدي ؟

- على أحسن حال يا سيدي . لأن الايمان الراسخ في قلوبهم جعلهم يتوافدون زرافاتاً ووحداً الى دير (مارزكي) للدراسة والتعليم ، فالاطلاع على الدين ومقوماته ليكونوا من خيرة المناصرين الصالحين .
- وكيف حال الربان (تاودور) ؟

- بخير وعافية ، يتوق الى رؤيتك وهو دائماً في ذكرك لان أيام الدراسة تراوده في اكثر الاوقات وفي كل المناسبات ، للود الذي ربط بين قلبكما والمصادفة التي وجدت بينكما .

فقال له الربان توما الضيرير وقال :-

حقاً انه من ذوي الاحلاق الحسنة والفضائل الجليلة المتنازة فلولا الواجب لما اخترت البعد عنه والنأي منه ولسكنت أرم الى من ظله ، واخلص له من نفسه ، الا ان مطالب الحياة ومقتضيات الواجب تدعو المرء برضى بحالة ويرضخ للواقع فيستسلم للحقيقة الراهنة مهما كان نوعها أو اختلف وقعها وتأثيرها . ولكن يا ولدي تصرفات الدهر الشائنة قد حالت دون رؤيته والاتصال به لأن الظلم والاستبداد قد افسدا على الناس افسكارهم وعقائدهم ، إذ لم يكتف (ابردين) باذلال الامراء وطامة الناس بل جعل من الكنائس والاديرة ميادين لظلمه ومسارح لتمثيل فصول عسفه وجبروته فتصدى الى العقائد طاهاتها ووجهها التوجيه الذي ترتبته نفسه ويوجيه اليه عقله حتى انه تصرف بكنيسةنا هذه تصرفاً لا يتفق وحرمة الكنائس أو قدسيته فتطاول علينا وعمل على اجبارنا لا اعتناق المذهب النسطوري ذلك المذهب الذي تبناه ورباه هو بنفسه حسب مشيئته فسير اموره ونقد مطالبه السياسية متدرعاً بالدين الذي اتخذ واسطة لاث سيطرته أو آلة لنوال بغيته فوضع (أحيشا ^(١)) الاسقف النسطوري أسقفاً على كنيسة (الرها) ليساعده على مدة اقامته في هذه الربوع باسم الدين الذي ادعى انه من حماه . ولكن أهل الرها واساقفة كنيسةنا لم يرق لهم هذا التطرف الشائن لذلك اعلنوا عصيانهم وتمردهم على الملك الذي لم يحسن التصرف في الأمور ، فاقبلوا الاسقف المذكور رغم مساندة قوة الملك له وانتخبوا الرئيس الجليل الاسقف

(١) ذخيرة الازهان ص ٢٩٣ .

(يوحنا) أسقفاً على الكنيسة قاستشاط الطاعني بعد ان ارعدوا زبد
فلولا ان تداركته المنية لصب جام غضبه علينا ولنالنا من شره جقده
وغضبه ما لا طاقة لنا به ولكن الله كفانا شره لأنه يساعد عباده
الصالحين بعد ان يؤيدهم بروح القدس .

هذه الظروف وتلك الاوضاع هي التي وقفت حائلة بيننا وبين تحقيق
أهدافنا فعملتها وشجبتها الى حين . ولذلك انقطعت الصلة وانتثرت حبات
عقد المودة والاخاء بعد تلك العوامل .

- لم تعرض لمثل ما تعرضتم اليه من المصائب والنكبات لان الجيوش
قد جنحت اليكم بعد أن صدها قوات الروم القوية المتمركزة في ديارنا .
- ان قوات كسرى لم تنجح البنا كرهاً لنا أو خوفاً منكم ولكننا
أغراض شخصية ومصالح سياسية أراد ابرويز تحقيقها فكنا على طريقه
لذلك نالنا من شره بعض الشيء . سار ليقيم من الروم الذين فاقوا
بشورتهم ضد صديقه الوفي القيصر (موريني)^(١) وعينوا قيصر آخر محله .
- وهل ستظل هذه البلاد ساحة لتطاحن أهل المقاصد والأغراض
فلا تحبني إلا التعاسة والشقاء والتعسف والاضطهاد من الطرفين ؟

- أجل يا بني فالواقع الملم الذي تتمتع به ديارنا يجعلها دائمة التعرض
الى كل شيء من شأنه أن يعود عليها بالويل والخراب . لا سيما من قبل
الفرس أعداء المذهب والجنس والروم أعداء القومية .

- أظن أننا سوف لا نرى مثل تلك النكبات التي سجلتها يد الظلم في
سجل حياتنا الدفينة .

- لم ذلك يا بني ومن أدراك ؟

- لان الاميراطوريتين قد دب اليهما الضعف والوهن من جراء ظلم
قياسرتها واكسرتها وتعسفهم الذي أدى الى التمرد والانشقاق فتحدى
أفراد الشعوب هؤلاء المستبدين وأبعدوهم عن كراسي الحكم ونسكوا بهم
بعد أن قالوا كلنهم وكلة السيف هي العليا .

هذا ما جعلني اتكهن بزوال ملكهم ومحو ظلهم لأن الظلم لا يدوم
وان دام فعاقبته الدمار والخراب

- حقق الله نبوءتك وصدق تكهنك وظنك
صفق الشيخ (توما الضرير) فدخل أحد الخدم فلما مثل بين يديه
قال له : -

ضيفنا بحاجة الى الراحة فهي له فراشاً وثيراً في محل بعيد عن اللغو
واللفظ

انحنى الخادم وقال : - لك السمع والطاعة يا سيدي كل شيء جاهز
حاضر وللضيف الخيار في البقاء أو السير معي الى مضجع الراحة .

فقال الربان بعد ان التفت الى (ماروثا) : - اتنا قد اتعبناك بالكلام
والاصغاء بالاضافة عما صادفته من تعب الطريق فأرجو ان تأخذ
كفايتك من الراحة والنوم . وباستطاعتك استئناف الحديث في أي وقت
تشاء لأنك ستمكث عندنا كي نغمرنا بفيض علمك ونهدين بنور هديك
وسوف تجددنا على تمام الاستعداد لتلبية جميع طلباتك وتمثيل كل رغائبك
وأوامرك .

نهض (ماروثا) متثاقلاً غير راغب في الراحة التي تقطع عليه سلسلة
الحديث المعسول المحبب الى نفسه فودع الربان بعد تقديم جزيل الشكر اليه .
وفي اليوم الثاني صدر أمر الربان (توما الضرير) بتعيين (ماروثا)

استاذاً للعلوم الدينية والمبادئ الفلسفية في كنيسة الرها بصورة موقته .
وهكذا أصبح (ماروثا) استاذاً في الكنيسة وبالوقت نفسه تلميذاً عند
الربان . فتعلم الخط وتعلم ما كان مخفياً عليه من بعض المعلومات فأعدته
معلوماته الى البروز . وساعده نضوجه الى التفوق والامتياز على غيره من
معاصريه حتى طار صيته وتآلق نجمه وبعد مدى شهرته فلا الاجواء
البعيدة والقرية .

— ٥ —

عقد (بطريرك) انطاكيا في كنيسته اجتماعاً كبيراً يضم كل من في
الكنيسة من قسس ورهبان وشمامسة وأساقفة فترأس الاجتماع بنفسه
وافتح الجلسة بقوله : — ان الشهرة الواسعة التي يتمتع بها أحد رجال
كنيسة الرها المدعو (ماروثا) قد انتشرت في الآفاق حتى طرقت
مسامعنا نحن ففهمنا انه احرز من العلم والمعرفة ما لم يحرزه غيره من أقرانه
زيادة عما امتاز به من عقل راجح وتفكير صحيح واخلاق فاضلة حتى
استحق اعجاب الربان توما الضرير فاستدعاه من الرقة الى الرها ليكون
استاذاً فيها بعد ان نال ثقة الربان ثاودور في كنيسة الرقة وعلى ضوء تلك
المعلومات التي طرقتنا عنت لي فكرة اسناد دير (مارمتي) اليه لما للدير من
أهمية عظمى بحكم موقعه ، وما لماروثا من العلم الغزير والثقافة الواسعة
وان نحن عملنا على تنفيذ هذه الخطة واخراج الفكرة الى حيز الوجود
والعمل ، نكون قد درأنا خطر تمرب مذهب النساطرة الى اديرة
اليعاقبة وكنائسها . فاذا تقولون وبماذا تشيرون ؟

فلم يكذبتم كلامه حتى صاح الجميع بصوت واحد : — فكرة حسنة
ورأي سديد نحن على تمام الاستعداد لموافقتك ومؤازرتك . ثم استدعى

البطريك بقلم وورق ودواة فاحضرت له فكتب الكتاب وختمه بخاتمه
بعد ان عنوانه باسم الربان توما الضرير واعطاه الى أحد رجال الكنيسة
وأمره بالامراع في سيره الى كنيسة الرها ليسلم الكتاب الى صاحب
الاسم (توما الضرير)

أخذ الرجل الكتاب وسار به في نفس الوقت وبعد ان استمر في
سيره عدة أيام لاحت له ابراج كنائس الرها ، وقد تطلع أكثر رجال
الكنيسة الى ذلك الذي الهب صدر برذونه بالسوط يستعنه الى الاسراع
في ذلك الطريق المتعرج المؤدي الى كنيستهم من جهتها الغربية وقد
استغفروا من سرعته وزيه ووضعيته التي تسترعي الالتفات . ولم يكد
يصل باب الكنيسة بعد أن صعد الجبل حتى صاح بأعلى صوته المبحوح
ماء نخف ثلاثة منهم كان اسبقهم ماروثا الى الماء ، فلما شرب وارتوى
أسند ظهره الى أقرب جدار اليه بعد أن أخذ برذونه وأردع الاصطبل ،
وبعد برهة غير قصيرة تمكن خلالها ان يسترجع شوارد افكاره الثائرة
في ذاكرته وفضلات قوته المنهكة ، نطق فقال : -

أريد مواجهة الربان توما الضرير لأنني احمل رسالة من بطريك
انطاكيا . فاجابه ماروثا قائلاً ألك قدرة على السير ولو مسافة قصيرة .

- أجل يا أخي . قال ذلك ونهض وسار خلف ماروثا حتى دخل به
على توما الضرير وكان حينئذ مطرقاً برأسه الذي اثقلته الافكار ولكنه
حينما سمع وقع الاقدام رفع رأسه فبادره ماروثا بالتحية فردها الربان
ببشاشة ودعاه الى الجلوس وقبل ان يجلس قال : -

هذا رسول بطريك انطاكيا يحمل رسالة اليك من عند سيده

- أهلاً وسهلاً ومرحباً كيف تركت البطريك يا ولدي ؟

- بخير وعافية يا سيدي وقد كفني بالمثل بين يديك لا بلغك نحياته
 العطرة واسلمك رسالته قال ذلك واخرج الرسالة من طيات ثوبه وسلمها
 الى الربان . فتمسها فوجدتها مختومة بخاتم البطاركة ثم سلمها الى ماروثا
 وقال

اقرأها علي يا ماروثا ، فلما فض ختمها بدأ في قراءتها بنصها هذا

أخي الربان توما المحترم

لا شك ان الحوادث تتبدل وتتغير بتوالي الايام وتعاقبها فدولاب
 الزمان لا يبقى في دورانه حادثه من الحوادث على وضعها وبكامل
 جسامتها او نحوها وضاً لئلا يغيرها ويبدلها من حال الى حال فيكيّفها
 حسب جهود الناس وحظوظهم ، فمنهم من ينال من الشقاء ما لا طاقة له به
 ومنهم من يرفل بأحسن مافي العيش من رغد وسعادة ، فلا الشقاء يظل
 ملازماً لذلك ولا الرخاء والنعيم يبقى من نصيب هذا ، فالتبدل والتغير
 والانتقال تعمل اعمالها في هذا وذاك .

من كان يظن يا أخي ان سحابة الجور والظلم التي نشرها ابرويز علينا
 ستنقشم عن سمائها ؟ او تزول من عالمنا لنرى النور بأعيننا ، ولكن
 المرء يعتقد بأن الحوادث دائماً في تبدل وتحول ويحزم ان تبدد غيوم
 الظلم وزوال الاضطهاد من الامور المحتمة الوقوع وقد كان ذاك .

واليوم وقد تنفسنا الصعداء بعد زوال اضطهاد ابرويز بدأنا نعمل
 ونجد في عملنا بقوة الايمان وبروح المودة والأخاء على نشر تعاليم ديننا
 في مختلف الاقاليم والبلاد وقد تهيأ لنا من الاكفاء ما هو قادر على تحقيق
 آمائنا وأحلامنا ، ولذلك فقد اسندنا الى تلميذكم ماروثا رئيسة دير

مارمى^(١) لما فعهده فيه من الكفاة التي تؤهله احراز ثقتنا فنسند اليه هذا المنصب الرفيع الذي نضن به على غيره ولذلك ارجو ابلاغه بالأمر ليأخذ الكتاب ويذهب الى الدير المذكور ليكون أقوى دعامة في صرح الدين المسيحي الذي تلغينا تعاليمه من (اوطيخي^(٢)) والسلام عليكم .

ولما أتم قراءة الرسالة نظر الى الربان فوجده مطرقاً برأسه مصغياً بكل حواسه اليه وكانت سحنته الطبيعية قد تبدلت ، فقطع جبل السمكوت وقال : - اهنئك بهذا الانعام الممتاز الذي يتفق وكفاءتك كما وأرجوا أن تكون عند حسن البطريك .

— أشكرك على حسن تطفلك كما أشكر البطريك على هذه الثقة التي لا استحقها لأنها أرفع واعلى مما عندي من استعداد ومؤهلات .

— ومن يستحقها غيرك يا ماروثا ، انت الذي اخلصت لله وكرست حياتك لدينه ثم زكيت نفسك بما اكتسبته من علم ومعرفه وفلسفة وما انصفت من اخلاق فاضلة وسجايا حسنة . فثلك من يمز الدين ويرفع من شأنه . ويعمل على تقوية بنيانه وتدعيم اركانه ، ليكون ملاذاً للضعفاء والمساكين ومرتماً لدوي النفوس الصالحة الذين يتوقفون الى الالتئام والامتزاج ويحنون الى التعاون والتآزر والعمل بصورة موحدة كي يصلحوا الناس بعد أن ينقذوهم من مهاوي الظلم والجبل . فأجابه ماروثا .

— سأذلل المصاعب والأهوال باقتحامها عندما اتخذ من السلاح ما يقضي عليها ، بعد أن استطيع تهوين فراقكم والصبر على بعدكم .

أطل ماروثا من نافذة غرفته بعد ان استيقظ من النوم على المهرج

(١) مارمى دير كان بالقرب من الموصل . ذخيرة الأذهان ص ٣٣١ .

(٢) اوطيخي مؤسس المذهب اليعقوبي

المتوالي واللفظ الكثير فرأى رجال الكنيسة ينضمون جموع أهل المدينة في صفوف على حافتي الطريق ، فعجب من هذا المنظر في بادئ الامر لكنه سرعان ما عرف السبب . حينما ارتدى ملابسه وأخذ قسطه من الفطور باقضى ما يمكن من السرعة ليوفر من وقته مدة وجيزة تساعد على السير ما دام النهار لا يزال في دور طفولته والنسيم في رفته وعذوبته ولم يلبث أن خرج وتوجه الى الريان (تدما) كي يودعه ويتزود ببعض نصائحه وحكمه ، ولما وصل اليه وحياء مصافحاً ليودعه الوداع الاخير .

لكن الريان لم يكتف بهذا الوداع بل خرج معه ولما طلب منه ماروثا الرجوع ليرتاح قال له الريان ، يجب أن اشهد موقف التوديع يا ماروثا فأشبعك ولو الى مسافة قصيرة لأنني لا اضمن بدمعي بعد فراقك . قال ذلك بعد ان وهنت قوته وقصرت خطواته ثم تركه ماروثا واطلق لعينيه الغنان لتجودا بالدموع ما شاءتا ان تجودا بها . وسار بعد أن ودع جميع من حضر مهرجان وداعه وركب حصانه وقد أخذ ما عنده من المتاع وضعه على برذون معد لذلك وسافر بصحبة أربعة فرسان متجهاً نحو الشرق وسلك طريقاً لم يسلكه من قبل وفي نهاية الايام الثلاثة التي قضوها في الطريق وصلوا مدينة نصيبين فاستراحوا فيها مدة وجيزة زار خلالها ماروثا كنيسة تاعرف على بعض رجالها ثم استأنفوا سيرهم نحو الجنوب الشرقي في طريق وعر كثير الوديان ضيق المسالك عالية الجبال وفي سنجار جددوا نشاطهم أثر استراحة طويلة مكنتهم من استئناف السفر ومواصلة السير حتى وصلوا مدينة الموصل ومنها عرجوا الى دير (مار متى) فألقى ماروثا عصا ترحاله بعد أن عرف القوم بنفسه وقدم لهم كتاب غبطة بطريرك انطاكية فأعربوا عن شعورهم بالفرح والاستبشار بمقدمه وأقاموا

له الحفلات والمهرجانات ولا سيما بعد أن علموا انه من أهل منطقتهم ولما انتهت الايام الثلاثة على وصول ماروثا وجماعته دير مار متى خرج الفرسان الاربعة الذين رافقوه في سفرته قاصدين الزها عندما ودعوا ماروثا واستلغوا رسالته الى الربان اودع فيها ما يمكنه له من حب ويشرح ما تذوق من مرارة الفراق .

- ٦ -

تطلع ماروثا الى دير (مار متى) فوجده ديراً كبيراً منحوتاً في ذلك الجبل الشايع ورأى فيه مخدعين كبيرين خصص احدهما للأكل والثاني للنعام لأن رجال الدير رغم عددهم البالغ المائة والعشرين رجلاً ما بين راهب واسقف وشماس فانهم لا يأكلون وجبات طعامهم إلا سوية على مائدة واحدة ولا ينامون إلا في مخدع واحد لصفاء مودتهم واخلاص اخوتهم وصدق صداقتهم وبعد أن قضى وقتاً طويلاً في الدير تمكن من دراسة أهله وفهم عاداتهم وميولهم . خرج من عزلته وأنهى فترة استراحته عندما عباً جهوده للعمل المتواصل الذي لا هوادة فيه ولا اناة تخلق جواً مناسباً لتلقى تعاليم (اوطيخني) و (يعقوب البراوعي) ونبذ مبادئ ونعسايم (نسطوريوس ^(١)) التي أرشكت أن تعبر دجلة وتجتاح المنطقة الغربية وذلك بعد أن فظم أوقات العبادة والصلاة عندما خلق من الدير المذكور مدرسة لتعاليم الدين والآلهيات والفلسفة تلك العلوم التي تولى

(١) المغريان المستمر وهي منزلة أعظم من المطرانية وأصغر من البطريركية بمنزلة الجنادة ولم يبدأ استئصالها الا في عهد ماروثا فكرههم النساطرة لأنهم يمتدنون أن هذا القرب والمطران لهم . ذخيرة الأذهان ص ٣٢٦ .

تدريسها بنفسه نخرج الدين بمبادئ الفلسفة اليونانية للغور الى أعماق الحقائق فمعرفة الماهية والجوهر . لتقوى الحجة عندما يرسخ الايمان في القلوب حتى تم له ما أراد وما كان يأمل ويرتجي ، حينما رأى في اتباعه من رجال الدير الكفاءة الممتازة في المناظرة والمناقشة بعد أن تبلورت الفكرة في أذهانهم فقوت الحجة وزادت البلاغة في قولهم فاطمأن بما رأى وفرح بما لمس من ثمرة اتعابه التي أتت أكلها وهي ناضجة طرية عندما قصده القاصي والداني فنهل من علمه ما قددر على ارتشافه واستطاع من استيعابه .

وبينما هو في كفاحه يناضل الجبل ويحارب الخرافات أتاه أحد رجال كنيسة الرها يحمل له رقعة الانعام من بطريرك انطاكية (يوحنا) وهذا الانعام هو انتخابه من قبل (تاودور) وأعضاء كنيسة مع موافقة رجال كنيسة انطاكية وعلى رأسهم غبطة البطريرك (يوحنا) ليكون (مغرياً) لسكرمي المشرق بعد أن يتخذ مدينة تكريت ^(١) مقراً له وذلك بعد أن تعطلت رئاسة كنيسة اليعاقبة مدة أربع سنوات اثر وفاة آخر رؤسائها (شموئيل) المتوفي سنة ٦٤٤ م فكان صدى الخبر المفاجيء والانعام المنتظر اجتماع رجال الدير بكامل عددهم في القاعة الكبرى يطلبون من ماروثا التصريح بالخبر فما كان منه إلا ان اعلنهم ما في الكتاب فخرنوا لفراقه وفرحوا بمنصبه الذي يستحقه ولما كان لا يعرف عن مدينة تكريت اي شيء فانه قد طلب منهم ان يطلعوه على بعض الحقائق والمعلومات التي يحتاجها ، فقال أحد شمامسة الدير اني من ابناء البلد الذي

(١) تكريت بفتح الأول - تقع على بعد أربع مراحل من بغداد أي على بعد ثلاثين فرسخاً من بغداد لها قلعة حصينة (مراد الاطلاع) (الباب) .

سيضيك وبحتويك وعندى المعلومات التي تنشدها وترغب فيها .
 - وهل بإمكانك ان تنورنا بمعلوماتك لتكون على بينة من امرنا .
 - أجل يا مولاي ، فاعتدل في جلسته وقال :

— ٧ —

على إمد ثلاثة واربعين فرسخاً من الموصل الى الجنوب تقع مدينة
 تكريت وهي تطل على نهر دجلة من الجهة اليمنى من فوق جبل لا يتجاوز
 الخمسين متراً في الارتفاع مشادة على بضعة تلال تتخللها وديان منخفضة
 تتحدر نحو النهر بصورة تدريجية وبيوتها متلاصقة متقاربة الى بعضها
 مما ادى الى ضيق الشوارع وعدم اتساعها والمدينة محاطة بسور حصين
 عالي البنيان ، قوي الاركان ، سميك الجدران فيه ثلاثة أبواب رئيسية ،
 الباب الغربي والشمالي والجنوبي ، وأربعة أبواب صغيرة فيما بين هذه
 الابواب الثلاثة ، تفتح هذه الابواب نهاراً وتغلق ليلاً لحفظ المدينة
 من الطوارئ الخارجية . والسور يحيط بالمدينة بشكل نصف دائرة غير
 منتظمة المحيط لتمرجه وتمداد انحناءاته وهو يلفها من الجهات الثلاث
 الجنوب والغرب والشمال . أما الجهة الشرقية فقد اكتفى بانحدار الارض
 الانحدار الفجائي العمودي بان يكون خير حاجز ومانع يمنع عنها الغارات
 والهجمات المتكررة من قبل القبائل العربية أحياناً أو الروم والفرس
 أحياناً أخرى فلحصانة موقعها ومثانة سورها وقوة المدافعين عنها تمتع
 أهلها ببعض الحرية والاستقلال الذاتي من تعاقب الاستيلاء عليها من
 جانب الفرس والروم لأنها كانت قلعة حدود حصينة تسكبد من يروم
 الاستيلاء عليها الخسائر الفادحة ، ولهذا يمز عليهم تسليمها للطرف الثاني

المعادي لهم بسهولة أو بساطة ، ولكي يضمن المستولي بقاءه في المدينة المذكورة (من روم و فرس) فإنه يهب أهلها الحرية التامة والحقوق الكاملة خوفاً من أن يشقوا عصا الطاعة فيعقروا المعسكرين فيها من الورا ، حين حراجه الموقف وقرب الخطر وتآزم الحالة ، ولذلك فإنه ظلت تتأرجح بين الفرس والروم . يتكالب الطرفان للاستيلاء عليها وهي بحكم موقعها على الحدود التي تفصل الجزيرة عن ارض العراق قد تكون داخلة ضمن الممتلكات الرومية . وقد كان الفرس ينزعون سلطتها من الروم ، أما من جراء ضعف قياصرة الروم واهمالهم أو لضعف الحماية المدافعة ، أو من عدم تمكنهم من ارضاء أهلها عند ما يلجأون الى الشدة والاضطهاد وتم التسف والقوة في معاملتهم لتلافي نقصهم وتبرير حجبتهم وهذا ما كان يحدو بأهلها لأن يتفقوا مع الفرس لخراج الظالمين وابعاد المتعسف من الروم ، وكثير ما كانت الظلم يحيق بهم من جماعة المنقذين فيضطر أهل المدينة الى اخراج شوائب الفرس أو الروم ويملقون أبواب السور دونهم فيعتصمون بعد ان يملنوا عصيانهم ويتمتعوا بالحرية التامة والاستقلال الذاتي الحقيقي فتجري مناوشات وتدور مارك يضطر أهل المدينة الى التحصن داخل السور ^(١) لعدم مقدرتهم على مواجهة الاعداء وجهاً لوجه أو صدى لصدور لتفوقهم عليهم بالعدة والعدد ولم يلبث أن يستسلم أهل المدينة مرغمين الى اعدائهم وذلك حينما يطول الحصار . لأن المدينة بحكم موقعها الطبيعي تفتقر الى المواد الغذائية والمواد الاولية

(١) استمر هذا السور يدافع عن المدينة الاضرار ويصد الجيوش الهاجمة حتى أخريات الدولة العباسية تهدم السور ونقلت حجارته الى دجلة خوفاً من أهل المدينة أن يتعادوا في عصيانهم .

الآخري التي تأتيها من الخارج بطريق القوافل أو من القرى المجاورة لها . وعند ما تنفذ مؤونتهم تهددهم المجاعة التي تؤدي بحياة الكثير منهم إلى الدمار والهلاك فيفتحون أبوابهم لاعدائهم لا يسترقوهم ويستعبدوهم وإنما ليتعاونوا معهم على دره ما يهددهم من الأخطار وذلك بعد أن يتلافى المستولون أخطاهم وأغلاطهم التي أدت بأهل المدينة إلى أن يعلموا عصيانهم ونمردهم وانشقاقهم فيمتشقوا السيوف في وجوههم لذلك فهم مضطرون إلى أن يعاملوهم المعاملة الحسنة التي يرتاح لها ضمير الإنسانية ويقر بها العقل بأنها تتفق ومطالب الحياة الحرة . أما تلك المعاملة الحسنة التي كانت تصدر من الفرس والروم لأهل تسكرت فإني إلا من أجل الاحتفاظ بهذا الموقع الحصين ليتخذوه نقطة ارتكاز مهمة يثبوا منها إلى الطرف الثاني ليتحقق نصرهم لاحتفاظهم بخط الرجعة ، كما جعلوا المدينة منطقة تخمين للجيش الحاربة ليتسنى لهم الاستمرار والاسترسال في الحرب والقتال واحراز النصر ، ولا غرابة في عمل الفرس على تقوية السور وحفر الخندق وخصوصاً في زمن (سابور ابن اردشير ابن بابك ^(١)) الذي لم يكتف بما عمل من الحصون والمعقل ، حتى بنى القلعة الكبرى التي تقع في القسم الشمالي من المدينة بعد أن اغراه الموقع الحصين ، لأنها كانت عبارة عن صخرة كبيرة مديبة الرأس الشمالي يبلغ طولها حوالي ألف ذراع وعرضها ثلاثمائة ذراع محاطة بالماء من جميع جهاتها إذ بناها بالجص والحصى وشاد أبراجها وزخرف قصورها ثم جعل لها قنطرة من الجهة الشمالية فوق أبواب استخدمها لقطع جريان الماء في الوادي الذي يحيط بها من جميع الجهات عدى الجهة الشرقية المطلة على

نهر دجلة ، وذلك عند غلقها في اوقات الرقاء ويجري الماء بعد فتح
الابواب في الوادي المذكور عند مداومة الخطر .

وجعل في القلعة مسالح وغيوثاً وربايا تسكون بينهم وبين الروم كي
لا يأخذوهم على حين غرة ، ثم مواضع للمعانيق ، فقاطعه ماروثا قائلاً :-
ما أعظم هذه المدينة وأحصن قلعتها وما أشد حرص الفرس عليها .
فاذا كان الامر كذلك وانها بهذه العظمة والفخامة والأهمية والشهرة فما
بالنا نجعل عنها كل شيء .

- لأنها يا مولاي لم تكن في يوم من الايام مقراً لهيئة حاكمة - أو
مركزاً لدولة من الدول - وذلك لوقوعها في منطقة الخطر وقرب الحدود لا
في زماننا هذا فقط وانما في اكثر عصور التاريخ حتى في زمن الاكديين
والعموريين والآشوريين والسكديانيين وغيرهم . ومدينة هذا موقعها
لا تصبح حاضرة من الحواضر ولذلك لم تشتهر ولم يذكرها الناس ، لأن
الشهرة في كل زمن من الازمنة مبذية على الفخفة والبهرجة ولا تشتهر
مدينة من المدن الا اذا اقترب اسمها باسم ملك من الملوك أو أمير من
الامراء بان يتخذها حاضرة له أو مصيفاً أو مشقياً أو ساحة لتطاحنه
مع اعدائه . لذلك فان الاخبار عن هذه المدينة قليلة ومنقطعة غير منتظمة
ولم تذكر الا بوقوع معركة بقربها أو ظهور شخصية فذة فيها أو غير
ذلك .

فقال ماروثا ولـكننا نجعل الاشياء المهمة التي تتعلق بها . نجعل تاريخ
وأول بنائها ونجعل سبب تسميتها بهذا الاسم ، وهل هو اسم روماني أو
فارسي ، عربي أم سرياني .

- لقد اختلف الناس في تاريخها واشاداتها كما اختلفوا في سبب تسميتها

بهذا الاسم ومتى دعيت به وما هو اسمها قبل ذلك . أما الاختلاف في تاريخ بنائها فظاهر للعيان فقد قال بعضهم انها بنيت في الالف الثالث أو الرابع قبل ميلاد يسوع ومنهم من قال انها ترجع الى الالف الثاني قبل الميلاد ، ومنهم من قال انها بنيت في بداية المائة الرابعة قبل الميلاد ، وعلى كل حال فانها مدينة تاريخية قديمة لم تشتهر في العصور القديمة التي سبقت ميلاد المسيح لانها لم تكن مركزاً سياسياً لذلك أهملت وأهمل تاريخها .

أما سبب تسميتها بهذا الاسم فقد اختلف الناس به أيضاً كما اختلفوا في تحديد وقت بنائها وتاريخ اشادتها ، وقد تعددت الروايات في ذلك فمنهم من قال بان الاسم اسم روماني إذا ترجم الى العربية دل على انها كانت تدعى « قلعة دجلة » ومنهم من قال ان الاسم محرف من (نجريت^(١)) وهو اسم المدينة الحقيقي وقد تطرق جماعة من الناس الى ان اسم المدينة اسم يوناني وهو (فرث^(٢)) أو (برث^(٣)) (Burtha) وهو الاسم الذي دعاها به (بطليموس) وقد كان يطلق هذا الاسم على التل الذي عليه القلعة . اما اكثر الناس الذين لا يشك بصحة أقوالهم فيقولون ان سبب تسمية المدينة بهذا الاسم له قصة^(٣) .

قال ماروثا وما هي يا أخي ؟

قال الشماس : يقولون ان المدينة حينما كانت خاضعة لدولة الفرس كان يحكمها احد مرزاقتهم وله ولم وهواية شديدة في الصيد والقتل ، فخرج مرة يتصيد وقد شت عن اصحابه فقاده جواده الى حي من احياء العرب

(١) نجريت وهو اسم سرياني كان يطلق على تكريت . دائرة المعارف الاسلامية ج ٥ ص ١٨ .

(٢) دائرة المعارف الاسلامية ج ٥ ص ١٨ .

(٣) ذكرت في معجم البلدان ج ١

ولما تقرب منه وجده خالواً إلا من النساء فلقى منهن الحفاوة والترحاب
فقد تركن أعمالهن الخاصة وانصرفن الى اكرام وفادته من طعام وراحة
فلمست عينه من بينهن فتاة امتازت بجيهاها الساحر وحسنها الفتان
وجاذبيتها الاخاذة فشغف بها حباً ، فلم يستطع ان يكتم هواه ويخفي نار
حبه وهيامه ، بل اخبر النسوة بما خالج قلبه من حب وشغف لتلك الفتاة
بمد ان اعلنن بانه مرزبان القلعة المجاورة لحبيهم ، فقلن له ان الفتاة التي
وقعت في نفسك هي بنت سيد الحمي وانا نصارى وَاَنْتَ شخص مجوسي
فلا يجوز في ديننا ان نزوج من يخالفنا ديناً ومذهباً .

- انا ادخل في دينكم . فقلن له انه الخير لو فعلت ثم عليك ان تعرض
الامر على رجال الحمي وخصوصاً على والدها فهو رئيس الحمي حيفئذ يكون
لهم الخيار في قبولك أو رفضك .

وعند رجوعهم خطب اليهم الفتاة على ان يتنصر اذا قبلوا تزويجها
منه ، فزوجوه الفتاة المذكورة فنقلها الى القلعة وانتقل معها عشرين
اكراماً ومعظيماً لها ، فنزلوا حول القلعة ولم يلبثوا ان اتخذوا الابنية
الثابتة والمنازل الممتازة التي أسسوها من الجص والحصى والطابوق فسمى
ذلك الربض (تسكريت) كما سميت القلعة وجميع المدينة باسم الفتاة الايادية
التي تزوجها المرزبان (تسكريت)^(١) .

وقد استغل المفريان ماروثا سكوت الشمس فقال :- ما كنت أحسب
ان المدينة بهذا المجد وهذا التأريخ القديم وتلك المنزلة السامية . فشكرنا

(١) وهناك روايات كثيرة في سبب تسمية المدينة بهذا الاسم لكننا لم نتأكد
من صحتها .

لك يا أخي يتضاعف ويزداد فيما اذا نورثنا ببعض المعلومات عن طقسها
ومناخها وهل هو مشابه لطقسنا ؟

فأجابه الشمس :- مناخها معتدل بصورة عامة . أما فصولها فتتفاوتة
في الطول والقصر ، فصيفها طويل وشتاؤها قريب الى الطول كذلك أما
ربيعها فقصير لسكنه رغم قصره يحلم على صحراء المدينة أرديته السندسية
الموشاة بمختلف ألوان الزهور ومتنوع أشكال الورود الفواحة بالاريج
المعطر الذي تنقله نسيمات الرقيقة البليلة لذلك فانه يستفز عواطف المرح
والابتهاج عند الناس ^(١) فيخف أهالي المدينة الى خارج السور يحتفلون
بعوكب الربيع القادم فتظل مهرجاناتهم الشعبية عامرة خلف ذلك السور
دون ان يلتفتوا الى شيء حتى يرجع ركب الربيع بعد نهض احمال الفرح
والطرب عند القوم فيودعونه بمثل ما استقبلوه به لما له في قلوبهم من
منزلة عظيمة ويقام رفيع لانه سبب الالفسة بين القبائل وربط قلوب
الاحبة برباط الحب المقدس فانه شاب عاطفي يسمح لمن تنحرك في قلبه
عاطفة حب أو غرام ان يمثل دوره مع من أحبه واشتاق اليه على مسرحه
وفي جوه العبق الارجيج .

وقد يتبرم الاهالي بفصل الصيف لانه كان ينغص عليهم عيشهم ويكدر
صفوهم حينما كان يطارد بحرارته اللاخفة وهوائه الجاف آخر ما تبقى من
نسيمات الربيع الوسنى البليلة ولكنهم يستأنفون انفسهم ويسترجعون ما
افقدهم الصيف من مرح وهو في ليلائه واصائله لا اعتدال الجو وبرودة
الهواء في ذلك الوقتين وقد يتضاعف الانس وتزداد الغبطة في الليالي

(١) قال المري فيها :

هات الحديث عن الزوراء أو هيتا وموقد النار لا تسكرى بتسكربتا

المقبرة فيطيب الوقت ويتحسن الهواء في فصل الخريف لكن القوم يتخوفون منه لتبدل الطقس الفجائي ولتغير الهواء السريع الامر الذي يدعو الى الحيلة والحذر من الاختلاطات المرضية التي توافيهم من عدم الاستقرار في الطقس .

يمتلك الناس في بيوتهم اذا حل فصل الشتاء ليتسنى لهم السمر والنقاش في شتى الامور ومختلف المراضيع ، والشتاء هناك رغم عدم شدته يكون بمثابة السكون الذي يسبق العاصفة لان القوم يقيمون فيه لاستئناف انفسهم ومرحهم في فصل الربيع ، فقاطعه المفران وقال :-
يظهر انهم في فرح دائم ومرح مستمر .
- نعم يا سيدي .

- ومتى يشتغلون ؟ وما هو شغلهم ؟

- يستغرق شغلهم اكثر اوقات السنة لكنه شغل منظم تنحله الاستراحة التي بواسطتها يعلنون فرحهم ويعبرون عن سرورهم وأطول هذه الفترات هي استراحة الربيع ، فيه تترك اكثر الاعمال وتهمل للتمتع بمباهج الحياة ونضارتها التي تتجلى واضحة سافرة فيه ، فيزداد الاهالي تعظيماً وتقديساً له حيث تتجلى لهم محاسن الطبيعة الزاهية بزخارفها وثوبها القشيب ، ذلك حينما تكون حسناء الربيع بكامل اريدتها وجمالها في تناول ايديهم ونحت تصرفهم . وهم مهرة بزراعة الكروم في الارض التي تبعد نصف فرسخ عن المدينة الى الغرب ويعتمدون على الآبار في اسقائها وربها . أما الجهة اليسرى فانها منطقة غنية بانتاج الحبوب والبطيخ . كما انهم يمتازون بنسج المنسوجات الصوفية والقطنية بالإضافة عن اشتغالهم بالتجارة تلك الحرفة التي واتاهم بها موقع المدينة على طرق

القوافل التي تتصل بعدة أقاليم « ودير الحاطرة » الذي يبعد عن المدينة
بفرسخ إلى الجنوب الشرقي مشهور بعصر الكروم لتجهيز المدينة بالنبيذ.
فقال ماروثا : - قد يفهم المستمع كلامك أن مستوى معيشتهم
متوسط لأنهم بالفقراء المترين المعدمين ولا بالأغنياء المومنين المتخمين
بالثروة الثقيلين بالمال .

- أجل انهم كما نظن لأن عدد الاغنياء هناك لا يتجاوز عدد
الاصابع وعدد الفقراء المترين قليل جداً أيضاً ، فالحالة المالية لا كثر
أهالي المدينة متوسط .

- ومن هم سكنتها وإلى أي العناصر والاجناس ينقسمون ؟
- أغلبهم عرب يتألفون من ثلاث قبائل هي : أياد ، وهم أقدم العرب
استيطاناً في المدينة واعتناقاً للنصرانية . وأغلب ، وقد تنصروا على يد
الاسقف (أحودي) سنة ٥٥٩ (١) . والنمر والبقية الباقية تتألف من
الروم والفرس وغير ذلك من الاقوام ، وهم رغم اختلافهم في العنصر
وتباينهم في الجنس وتنوعهم في القوميات يشعرون بشعور واحد
ويسعون إلى غاية واحدة وهدف واحد هو العمل على جلب السعادة
والرفاه لجميع أبناء البلد وذلك لأن الدين المسيحي الذي يدين به جميع من
في المدينة قد وحد قلوبهم وربطها برابطة الاخوة المقدسة عند ما صهرت
تلك القلوب في بودقة الود والاخلاص وصبتها في قالب الانسجام
والائتلاف ليصبحوا متعاونين متآزرين في الدفاع عن الدين والمذهب
اليقيني والاخلاص لها .

(١) وهو باني دير حلا في نيكريت واول اسقف لليعاقبة وقد قتله كسرى
أنو شروان . ذخيرة الازهار ص ٣٠٠ .

وكثيراً ما كانوا يتصدون لكل من تسول له بأن يحط من كرامة
مذهبهم وعقيدتهم فيذيقونه من العذاب ألواناً فيما إذا تمادى في تسخيف
آراءهم ومعتقداتهم دون أن يقنع أو يقر بحقائق براهينهم وقوة حججهم .
وهم أهل ورع وتقوى وزهد . . .

فقال ماروثا :- شأنهم إذن شأن المؤمنين الصالحين الذين لا تأخذهم
في الحق لومة لائم .

- أجل يا سيدي ، قال ذلك ، وسادت فترة سكوت وسكون ثم لم
يلت ماروثا أن بددها وأزالها بقوله :

- حقاً أنك قد حببت لي الإقامة في مدينتك التي ذكرت لي كل ما
الشدء وأطلبه متيسراً فيها .

- وستبرهن لك الأيام على صحة ما ذكرت . ولولا أن يقال إنه بشيد
يمدينته ويتعصب لها فيسند إليها جميع المحاسن والفضائل لذكرت لك أكثر
من هذا . ولسكني اكتفي بهذا المقدار وأترك ما تبقى لك كي تلمسه
وتشاهده بأمر بصيرتك .

- سئرى ذلك . قال هذا وقام ليأخذ نصيبه من الراحة ، وينام ما
تبقى من الليل ثم قام اثره جميع من حضر من القسس والرهبان والاساقفة
ودخلوا مخدع النوم جميعاً .

— ٨ —

وفي صباح اليوم التالي كان رجال الدير يشيرون ركب ماروثا المتألف
من خمسة عشر راكباً بمد أن قضوا ما عليهم من واجبات الوداع
ومطالبه .

فكلما سار الركب وابتعد كلما ابتعد عنهم الصبر وواتاهم الجزع فكان
في قلب كل واحد منهم نار تملظى خلفها ذلك الركب الذي توارى خلفه
الجبال العالية عن عيونهم وقد شعروا بالضيق والفراغ المتسم الذي احده
ماروثا بغيابه . ومع ذلك فانهم قد صبروا واحتسبوا وأشغلوا عن
صاحبهم الضاعن بالانكباب على صلاتهم واعمالهم .

أما الركب فقد أخذ يجد في السير في تلك السبل الضيقة وسط المسالك
الوعرة الخيفة حتى اشرف على ابنية المدينة الرابضة فوق تلال مرتفعة في
نهاية اليوم الرابع . فالتفت ماروثا الى احد اصحابه وقال :-

أظن ان هذه الابنية والابراج هي ابنية تكريت .

أجابته الرجل نعم يا سيدي ، ثم التفت رجل آخر الى ماروثا وقال :-

ليأذن لي المفرقان بإبصال الخبر الى أهل المدينة قبل وصولكم .

وقبل ان يسمع من ماروثا كلمة السماح له انفصل عنهم بعد أن أطلب
صدر حصائسه بالسياط يستحثه على الركض ويحفزه الى الجري السريع
حتى وصل الى المدينة فاخبر أهلها وجميع من في الدير من رهبان بنجر
وصول المفرقان الجديد المدعو ماروثا ليتخذ من مدينتهم مقراً لكرسي
المشرق بناء على اقتراح ثاودور وموافقة رئيس كنيسة انطاكية وتأيد
زملائه لما للمفرقان من دراية واسعة وعلم غزير وشخصية ممتازة تصلح
لهذا المنصب وتنفق وأهميته نخف الناس لاستقباله ودخل ماروثا في موكب
مهيب لائق بمنزلة ونزل في دير (مريحنا) وسمح للناس زيارته في كل
وقت وحين متى شاءوا وأتى أرادوا . فبشهم خلاصة افكاره ونورهم بنور
معرفة فازداد رسوخ الايمان في قلوبهم وقد استغل اقبال القوم عليه
واطاعتهم لاوامره فافترح عليهم بنساء كنيسة كبيرة تناسب منزلتها

ومركزها وتلبق بأن تكون مركزاً لكرسي المشرق الذي اتخذ هذه المدينة مقراً له على أثر تعيينه مفریاناً له .

فرحبوا باقتراحه وحشدوا فكرته وتلففوا الى اخراجها الى حيز الوجود . فالحوا عليه بتنفيذها . رتطبيقها . فاخبرهم بأن الفكرة تحتاج في تطبيقها الى مساعدتهم المالية والاجتماعية . لذلك تقاطروا عليه زرافات ووحداً شيباً وشباباً ونساء يحملون ما عندهم من حلي ومال فيقدمونها بين يديه حتى تجمع من المال ما كان كافياً لاشادة أعظم كنيسة في بلاد الشرق تصلح لأن تسكون مركزاً لكرسي المشرق فارتفعت ابراجها الشاخنة المقامة على تلك الجدران السميكه المتينة بالرغم من ارتفاع الارض التي شيدت الكنيسة عليها .

ولما تم البناء وكل التأثيث على ذلك الجبل الذي يطل على نهر دجلة من جهته الغربية بمجنوب المدينة بدا المفریان ماروثا بحفر تفرق طویل یوصل الكنيسة بالقلعة التي هي اقصى الشمال وقد تم له ذلك ليكون منفذاً سريعاً لوقت الحاجة فانهم كل ما تأقت اليه نفسه

— ٩ —

وبمناسبة افتتاح الكنيسة اقيمت حفلة كبرى في الساحة الغربية المحاذية لها ، فأعلنت الأفراح واجتمع الناس من مختلف الطبقات ومتنوع الرتب فانظموا في حلقات أفراس التأمّت مع بعضها فكوفت مهرجانات كبرى انهم على أحسن ما أظهره القوم من شعور بالفرح والمسرّة التي وافتهم بها ظروف افتتاح الكنيسة ، فتفاهلوا بها وعدوا كمال بنائها فأمحة خير

ويعن وسلام تعود خيراتها عليهم ، وقد كان لهم ذلك .

وللنساء في هذا المهرجان الكبير الحصنة الممتازة والقدح المعلى لما أظهرنه من ابتهاج وجبور حينما شاهدن نتاج حليهن قد تحول الى ابراج شاذخة يجالجل فوق اعظمها واعلاها ناقوس يملن الحق والحرية والطمأنينة ، فيدعوا الى الانخراط في سلكها والتظلل برايتها ، بقلوب تقية وروعة بغمرها الايمان وتغلؤها الفضيلة والطهارة . وهكذا ملئت الاجواء بمبهر عطر النساء الفرحات ، فتلهف الرجال والشباب من الفقراء وذري الجاه والمال الى الاقتراب من مصدر العطور والدنو من ينبوعه ليشاركوا بقية حواسمهم الأخرى بالتلذذ والاستماع ، فكان اقتراب وكان اختلاط . وبينما كان الناس غرقى في بحار الآمال والاحلام أو في هواجس الحب والغرام ، فمنهم من كان يؤمل نفسه بلقاء حبيبته في هذا المجتمع الزاخر بالخلق ومنهم من كان يتأبط ذراع مثيرة غرامه وجواء لينتظم وايها في حلقة الرقص التي انظم كثيرأ من امثالهم .

في ذلك المجتمع وقف شاب مديد القامة أبيض الوجه حاد النظرات يتفرد بوجوه الفتيات وطائر حبه الذي انفك من قفصه وطار على الرغم منه وهو لم يزل يرفرف فوق تلك الرؤوس ولكنه سرعان ماصرعه سهم انبرى من لحظ فتاة اسيلة الخد بارزة النهد فرجسية العينين زجاء الحاجبين بيضاء جديدها نحيلة الخصر ثقبلة الدف غضة بضة يشتكي الطول منها الى القصر ويشتكي القصر منها الى الطول فلا هذا محصل منها بغيته ولا ذاك واجد فيها ضالته . فوقم الطائر بين يديها يتلوى ويتخبط وهي لم تلتفت اليه أو تهتم به رغم فداحة الخطب وجسامته بل لوت بحبيدها وصمرت خدها عنه غير عابثة به وكأن الأمر لايعنيها أو يهمها اوله مساس بها . قازدانت

لوعة الشاب وحرقة جواه ونصدي لها من الجهة الثانية وتعمد مكلتها
لكنها أعرضت عنه ونفرت بكبرياء وحشمة زادت في تلهفه وتمطشه للتمتع
بذلك الجمال الأخاذ ولو بنظرة عرضية تلتقي فيها العين بالعين لتثير في القلب
بعض العواطف والاحساسات ، لعله يرق أو يلين . لكنه لم يحظ بما كان
يأمل أو يتوقع لأن فراغ قلبها كان قد ملئ بحب عامر وهو الضيف
الأول المحبب فقد امسى لا يتسم لغيره ولا يستضيف سواء اقتض
الاجتماع فتفرق القوم ولذة الفرح لا تزال بادية على وجوههم الضاحكة
القسمات واجسامهم المتراقصة في سيرها . تفرق القوم وهم على تلك البهجة
إلا ذلك الشاب الذي غادرهم برأس مثقلة بالهموم والهواجس . كان يسير
بيطء وتناقل ورأسه مطرق الى الارض لا يكاد يرفعه حتى وصل قصره
المطل على دجلة في اقصى الشمال من القلعة فاحتضنه أحد المقاعد حينما
تداعى اليه وهو متهالك تواق الى الاستراحة . وبعد فترة وجيزة بدأت
الأخيلة تتردد على مخيلته فتراوات له وجوه جديدة لم تلبث ان برز من
بينها ذلك الوجه الذي حرم من التمتع بالنظر اليه لاعراض صاحبه عنه
وتفورها منه بكل ما في ذلك من غطرسة وكبرياء دون أن تلتفت الى هندامه
أو حسنه وجماله وعلو منزلته وسلطانه وهو أمير اياد تلك القبيلة العريقة
في المجد والشرف والتي احتفظت بمفاتيح الكعبة في يوم من الأيام
فاستوطنت تكريت قبل غيرها من القبائل العربية وعلى اسم فتاتهم التي
تزوجت من أحد سرازبة الفرس حينما اعتنقت النصرانية من أجلها نالت
تكريت شرف هذا الاسم . كل هذه المؤهلات التي كانت في حوزته لم
تحرك من الفتاة إلا عراطف الكراهية والاحتقار فزداد ايتعاداً عنه
وتفوراً منه . لكن خادمه قطع عليه سلسلة أفكاره هذه وحجب عنه

تلك الصور فطرد الاخيلة والتصورات حين دخل عليه وقال سيدي : ان الفتاة التي أسرني باقتفاء أثرها لمعرفة أهلها هي (ساسى التقلبية) حبيبة أمير بني ثعلب (عامر) وهي في غنى عن التعريف والابضاح ومسكنها قرب قصر عامر في جنوب المدينة فالتفت اليه سطيح وقال : -
اظنها ليس كما تدعي فقلها لا يزال مغلقاً دون ضيف الحب لأن افعال الطفولة لا تزال عالقة في مزاجه بحكمة غلقه . فأجاب الخادم

الحب فارس يغزو القلوب دون أن يعوقه عائق مما عظم أو كبر ، ليذلها ويستعبد لها ويجعلها خاضعة لارادته مستسلمة لمشيئته يصرفها كيف شاء ويوجهها انى أراد وهو ديمقراطي رغم قوته وجبروته واتساع سلطانه من حيث انه لا يتقيد بنظام الطبقات أو يتحدد بسن أو عمر أو ينظر الى اعتبارات البشر التي خلقوها من انفسهم وروجوها بين ظهراهم ، وهو فارس اناني لا يقبل المصاحبة والمشاركة معها عز الرفيق وكبرت منزلة صاحب .

- نعم انه كما تقول فالحب سلطان السلاطين وملك الملوك تذل له التيجان وتخضع لأوامره العروش يغزو القلوب لا ليذلها ويستعبد لها بل ليذل فراغها فيصقل العواطف ويهذب الشعور ويرهف الاحساس لكنه يزيد الاضطراب المحبب الى الحبيب رغم ما يخلعه عليه من اردية الضعف والسر والفتنى . ثم زفر زفرة طويلة وقال : - ويل لقلبي من نهم عيني وويح لعمري من نظرة اختطفناها اعتبناها حسرات وأثارت كنت أهزأ بمن جرفته تيار الحب الى حيث ما لا تحمد عقباه من سوء الطالع ورداءة المصير ، حتى صرت لا اقدر على مقاومة هذا التيار رغم ما عندي من

القوة والمقدرة لأنني لا أريد مقاومته اشعوري باللذة والاعتباط مع ما اقامي من آلام الصد ومرارة البعد .

.. من الارجح يا مولاي ان تحقق طفل حبك الآن ولا تفده بدمك وراحتك وصحتك ، لينمو ويكبر فيتمرد عليك ثم يسيرك كيف شاء وحسبما أراد بعد ان تستغل قوته الجبارة ضمفك ووهنك وخسارة ارادتك مع فقدان عزيمتك : -

فقاطعه سطيح وقال : ولم لا انمي هذا الطفل الذي اوجدته جاذبية من أحببت واكتفه قلبي ؟ وكيف اخنقه ولماذا ؟ وما يضرني ان عصاني أو تمرد علي ؟

- لأنك لا تحبني من وراء حبك هذا ثمراً فليس لك في سلمى نصيب .
قل سطيح ولم

- لأنها حبيبة عامر الآن وصديقه في صغره وطغولته .
فاغتاض سطيح من كلامه وظنه اهانة له فقال : -

وهل تظن ان عامر خير مني واقدر بل واجدر بحبة سلمى وغيرها ؟
- لم يكن خيراً منك يا سيدي فكلاكما في منزلة واحدة ان لم تكن أنت خيراً منه فهو سيد بني ثعلب وأنت سيد اباد ، فليس المهم هنا الأفضلية ، ولكن المهم ان اخبرك بأنها لا تحب سواء ولا يشغل قلبها غيره مهما تبدلت الأيام وتغيرت الظروف والامضاء ، وسوف لا يتسنى لحبك أن يحتل ولو زاوية من زوايا قلبها في يوم من الايام ، لذلك فاني أرى من الاصلاح أن تترك هذا الطارق ما دمت تستطيع الترك لان العاقبة منه تكون وخيمة والضرر عليك جسيم . فقاطعه سطيح بعد ان بلغ الغضب منه ذروته وقال :- اغرب عني قبلك الله يا سقيم الرأي . تريد

أن تردعني وتثني بي بهذه الآراء الفاسدة التي لا تمت الى الصحة والصواب
بصلة فتقف أمامي موقف المدير الحكيم والمشير الخبير بالحب والغرام
والفهم بأمور النساء والمطلع على قضايا المجتمع السرية منها والعلمية .
فارتعد الخادم من الخوف وقال بصوت متقطع .

- عفوك يا سيدي اني لم أتمد وظيفة الخدمة والاخلاص لها ولمن
استخدمني لأربح ضميري فراحة الضمير والوجدان خير من اراحة الجسم
وارضاء العاطفة . واني اعتقد ان انحس أعداء المرء صديق مخادع وصاحب
مخايل لا يردع صديقه عن الاعمال التي تضره وتخالف تقاليد المجتمع ولا
تتفق والتفكير الصحيح فيتركه يسترسل في غيه حفظاً لرضا صاحبه
وكسباً لوده .

فقاطعه سطيج وعلائم الندم بادية عليه على ما فرط منه تجاه خادمه
وقال بصوت رقيق مملوء بالشفقة والرحمة :

لا شك ان طول عهدك بالحياة لم يكسبك خبرة في بعض نواحيها
ولذلك بدأت تعذلي عن حبي لاسمي وتحذري من هذا الحب بل وتحذوني
بحببها عامر وتفضله علي في الوقت الذي بلغ بي الحب أعلى مراحلها ولم
تعلم بان الحب لا يقبل كلام العاذل بل ويسحقه مها كان نوعه فكيف اذا
قسا هذا الكلام واستمر على منواله كما كان كلامك ، لا شك ان المعذول
لا يلبث ان يظهر قوته وحماقته فينكسر بكل بمن لومه وعذله بل أهانه وخوفه ،
ولجبهلك في هذه الناحية حملتني على اهانتك مع عظم منزلتك عندي .

أدعيت ان قلب المرأة لا يتسع لأكثر من واحد وادعائك هذا باطل
من أساسه لأن قلب المرأة لم يخلق إلا ليكون مسرحاً لقصول الحب ،
وقد تختلف هذه القصول باختلاف المؤثرات والعوامل والاشخاص .

فكثير من النساء ما يكون جبهن فراشياً (أي انتقالياً) ، لأنهن يركضن وراء (القوة والصحة والجاه والمال والجمال) فان وجدت هذه المؤهلات في شخص عبده ، وقد تتطور الى كفر والحاد اذا لم يحظين باللذة التي تهبها لهن العاطفة . أما إذا فقدت الرجل الذي عبده من أجل تلك المؤهلات المذكورة فانهن يبغين شخصاً آخر ، ولو كان أقل درجة ومنزلة من الأول فيملأن فراغ قلوبهن بحبه ، ثم سكت سطيع وأطال سكوته والتفت بعد ذلك إلى خادمه وقال :

لك حرية الانصراف والراحة ، ففرح الخادم وترك سطيعاً مضطرب الاعصاب نائر النفس قلق الفكر ، مشغول الفؤاد يقدح زناد عقله ليجد وسيلة تخلصه من آلامه وكآبته ، أو يعثر على سبب يحقق له احلامه وآماله ومنال بغيته لعله يستطيع أن يعمل على تغفل حبه في قلب سلمى كما تغفل حبتها في قلبه ليسعد بها وتسعد به بعد زواج تباركة الكنيسة ويتوجه الحب باكاليل الغار . لكنه مع هذا لم يهتد الى خطة أحسن من ان يخطبها الى ابنتها فاذا أبى تزويجها أغراه بالمال العزيز . حينئذ شعر بالهدوء والطمانينة وبات ليلته في رغد وراحة . وعند ما استيقظ في الصباح أمر خادمه باستدعاء بعض الوجوه والأعيان فامثل الخادم أمره ولم تمض الا سويعات حتى اجتمع في قصره كل من استدعاه وبعد ان استراحوا مدة شاورهم في الامر ، فاستحسنوا فكرته واخذوا على عاتقهم القيام بالمهمة .

فقاموا على الفور وتوجهوا الى والد سلمى ، فلما وصلوه وجلسوا عنده ، فاتخوه بالقضية التي جاءوا من أجلها . لكنه أبى أن ينفذ طلبهم لان ابنته كما هو الواقع مخطوبة الى سيد قومهم (عاصم) ولا يمكن

إبدال سطّيح به أو تفضيله عليه . فهو الاول وهو المتقدم وله الافضلية والامتياز . وهكذا ذهبت جميع محاولاتهم لاقناعه سدى . كما آل مصير فكرة سطّيح الى الزوال والعفاء حينما رجعوا اليه واعلموه بالواقع . فقامت قيامته وهاج نائره ، لذلك لم يعد يفكر في الطرق السلمية التي يتوصل بواسطتها الى (سلمى) وخصوصاً في تلك اللحظة لأن وقع الصدمة كان شديداً عليه ولما هدأت أعصابه وسكن اضطرابه وهدمت سورة غضبه قال في نفسه .

لما كانت محاولتي للمرة الاولى فاشلة فيجب ان اكررها مراراً ولو لاقيت الفشل عدة مرات حتى احرز النجاح وأنال الغاية ولو كلفني اقدامي ما لا طاقة لي به من المجهود على أن لا أقف وقفة الحزين اليائس اودع آمالي وأحلامي بمجرد فشلي هذا .

لهذا فانه قد انفرد بنفسه وبدأ يقدر زفاد فسكره ليستخلص منه ما تبقى من الشرر فيوقد من النار ما يحميه قرصة البرد وينير له السبل ليصل الى ما كان يأمل الوصول اليه فينال ما أمل وارتجى ، وظل على شأنه هذا يتحرق جوى ويدوب صباية ، ينتظر الاعياد العامة أو فصل الربيع ليختطف من سلمى نظرة تبل أوامه ، وتطفي حراة حبه الى حين . وفي تلك الايام العبقة باريج الانس وعبير الحب ، كان يرى سلمى بين الحين والحين حتى كبر طفل حبه الذي غداه بدمه وصحته وراحته ، وصار لا يطيق مقاومته أو عناده ، بل انقاد له وسار بموجب أوامره وتعاليمه فكان يستغف بمقله أحياناً ، ويخرجه عن وضعه واتزانـه أحياناً أخرى ، ليقحمه في المآزق الحرجة التي لا تتفق ومزلة سطّيح الاجتماعية التي ترمت لها ويعتسكف في برجها البلوري وذلك قبل ان تتطفل لطفة الحب التي

وجدت طريقها معبداً الى قلبه فتدرجت في النمو والكبر حتى اصبحت
 غفريقاً عتياً . فسكات السكابة تلازمه وتواتيه في اغلب اوقاته ، لأن
 سلمى محتجبة عنه ، منصرفة بكليتها الى عامر . ظل كذلك تتقاذفه امواج
 الحب الثائرة وتحرقه تيارات الهيام دون ان يستطيع السيطرة على زمام
 نفسه بالرغم من دورات دولاب الزمان الثلاث التي لاقى خلالها مرارة
 البعد والصد والهجر ممزوجة بشهد الحب والغرام حينما تحدر بمجازية
 (سلمى) وسكر بمحاسنها وجمالها .

وبينما كان غارقاً في بحر من الهواجس والهموم ، مصغياً الى اصدااء
 حبه التي ملأت قلبه فلسكت عليه حسه وكيانه يستمع حديث نفسه الى
 قلبه ، ومشاورة عاطفته لعقله وتفكيره ، اذا بخادمه يدخل عليه ، فيقطع
 ساحة افكاره وينقذه من هواجسه المزعجة واخيلته المضنية ، حينما قال
 بالباب احد خدم الكنيسة ، مكلف من قبل المفيضان ماروثا باستدعائك
 الى الكنيسة للمشاورة في امر مهم . فاجابه سطيح وقال :-

اخبره بانني لاحق به على الاثر ، ثم اخبر سائس الخيل ليسرج لي
 الحصان الابلق ، ويهيئه ريثما ارتدي ثيابي .

ركب سطيح حصانه وسار امام كوكبة صفيرة من بني قومه (اياد)
 متجهاً صوب الكنيسة ، فلم يكذبصلها ويدخل القاعة ، بعد ان ترجل
 حتى رأى رؤساء المدينة وقادتها من عرب وروم مجتمعين ، فسلم وجلس ،
 ولما استقر به المقام دخل عامر رئيس (تغلب) فساكن آخر من يرحمه
 حضورهم .

التأم المجلس وغمر بالجالسين ممن ارسل المفريات اليهم للمشاورة
والمداولة في امر الكنيسة ونشر الدين في الاصقاع النائية والحلات البعيدة
فقطم المفريان جبل السكوت وقال :-

لا شك ان العمل المثمر والعاقبة الحسنة لا يحصل عليهما المره إلا من
عصارة الافكار الناضجة والعقول الذكية بعد المشاورة والمخاطرة ،
فالانفاق الاجاعي على رأي شديد ، وقول مزن معقول ، وقد يكون
التطبيق سهلاً والعمل فاضحاً اذا قرن بالاقدام والاخلاص ، مع التآزر
والتعاون بناء على اشتراك المنفعة . لذلك ايت ان ايت في رأي او اقدم
على عمل ما لم اعرضه عليكم ، لأنفق واياكم على رأي واحد يضمن لنا
النجاح التام . نخوفي من الزلل والشطط ، إذا ما استبدت في رأي
واقتردت في عملي هو الذي دعاني الى احضاركم ، للتماس رأيكم فيما عن
لي من الفسك التي اريد اخراجها الى حيز الوجود . وأني ايها الاخوان
قد ازمعت على نشر الدين في بلاد (سجستان) و (هرات) و (اذريجان)
وتعميمه على سكانهم لانه دخل هذه البلاد حديثاً فاصبح فيها غريباً .
واخاف عليه من الضياع ، لأن المجوس لا زالوا يدسون الدسائس عليه
فنوره الساطع ، وضوؤه اللامع ، بددا دياجير الجهل والظلم عندما عجزت
نار المجوس عن تبديلها وازاحتها . لان تلك النار قد استخدمها المفروضون
وامسلة لاصطياد الناس واستعبادهم ، فاذلهم ، بعد ابتزاز اموالهم
وسلب حريتهم لذلك لم يستفد من تلك النار إلا الملوك والامراء ، ومن
الامم وناصرهم من البطانة والحاشية ، واني لانتخوف من تغفل الفسطورية

ومبادئها ومعتقداتها الى عقول من استرشدوا بهذا الدين واستناروا بنوره
 فاهتدوا بهديه ، وليست النسطورية الحققة هي التي تخيفني ، وانما النسطورية
 التي تبناها الفرس بعد ان اعتنقها ملوكهم وروجها مراتهم ليتخذوها
 وسيلة لبسط السيطرة على البلاد والاقاليم ، أو رابطة للتحكم برقاب الناس
 واموالهم ومقدراتهم ، وقد تم لهم ذلك بمساعدة بعض مطارنة المدائن
 وبطاركنها الذين كانوا يوغرون صدور الأكلسة ويخرضونهم على خنق
 اليعاقبة في بيعهم وأديرتهم ، كي لا ينبروا عقول من أعينهم أضاليلهم
 فيبتدوا الى طرق الخلاص والتحرر . وقد برهنت الاحداث الماضية على
 صحة ما اقول ، وذلك ان (كسرى ^(١) انوشروان) لم يقدم على قتل
 (احوذي) صاحب الاعمال الجليلة والايادي البيضاء التي قدمها واسداها
 الى الدين الابعدين او غر صدره مطارنة المدائن النسطوريين ، لأن
 تعاليم (احوذي) لا تتفق وما يحرص عليه كسرى من الفطرسنة
 والكبرياء ، او يطلبه من الرعية ، بطريق النذل والاستكانة والرضوخ ،
 لأن ديننا كما تعلمون هو دين الاخاء والمساواة والعدالة ، والفضل للصالح .
 أما الاحترام فخري بمن تقع الناس ونفسه مع اطاعة الله ويسوع . فاذا
 ترون ؟ فاجابه سطيح وحب الظهور يدفعه الى ان يقول :-
 فسكرة حسنة ورأي شديد . علينا ان نتدارك الموقف بكل ما أوتينا
 من حول وقوة ونسرع في تنفيذه .

فقال المفريان :- هذا هو غرضي من اجتماعي بكم ، والى الآن
 اريد استبانة السبل ومعرفة المسالك التي يجب ان نساكها على ضوء آرائكم
 ومقترحاتكم .

قال عامر :- لا رأي لنا في هذا الباب غير رأي واحد ، هو بث
المبشرين ، وبناء البيع والاديرة في تلك الاقاليم ، لتكون مدارس يتلقى
الناس فيها أصول الدين على أيدي الاكفاء المقتدرين .

فرد عليه المقران وقال :- قول معقول اذا استطعنا تنفيذه .

فلعلت بوارق الامل في ذهن سطيح لذلك اهتدى الى خطة جهنمية
تخلصه من منافسه في حبه مقابل تأدية خدمة دينية فضرب على وتر
حساس يسكر عامر بنغمته فيقحمه في المهالك والاهوال دون مبالاة
فقال :-

إني لا أشك برجاجة عقل عامر ولا ارى رأياً غير رأيه ولاكني أرى
تطبيقه في تلك الربوع من الامور الصعبة ، لاحتياجنا الى الاكفاء
الذين يعرفون الفرس وتقاليدهم وعقائدهم ، بالاضافة الى اطلاعهم على
امور الدين وفهمهم لتعاليم اليعقوبية ، لان تلك الاقاليم تأخر باوامر الفرس
والفرس كما تعلمون لا يروق لهم ان يتغلغل العرب الذين تأدبوا بأداب
المسيح واتبعوا تعاليم اليعقوبية ، لتخوفهم من ان يشلوا حركتهم
ويقلصوا سلطانهم من البلاد الذي يحتلونها لاعتقادهم بان اليعاقبة من
الموالين والمناصرين لاعدائهم الروم ، ولم يعلموا باننا لا نوالي غير المصلحين
ولا نناصر الا الحق .

فاجابه المقران ماروثا وقال :- نحن نعلم كراهية الفرس للعرب والسكن
يجب ان نختار في انجاز مهمتنا هذه من تضلع بالفارسية واتفق السريانية
وبرع بالخطابة وامتاز بالديانة .

قال رئيس النمر :- ومن أين لنا هذا الشخص الذي تتوفر فيه هذه

المؤهلات فيؤدي الواجب الديني في تلك البلاد التي خيم عليها الجهل والفقر واجتاحها الظلم والاستبداد .

فالتفت ماروثا الى الجالسين وقال :-

من منكم يكون السابق في تأدية رسالة سيدنا المسيح في بلاد غزاها الظلم والكفر والباطل ليخلص أهلها من القيود ويهديهم الى سواء السبيل ففرح سطيح لعله أن عامر سيكون أول الملبين لدعوة الدين لشجاعته ونحوته أولاً ولحيازته لتلك المؤهلات ثانياً . ولم يلبث أن صاح عامر بعد ان اطرق بقية القوم وقال :-

أنا للامر ولو لاقيت حتفي . قال ذلك لجزعته من اطراق القوم وسكوتهم وحمودهم . فقام ماروثا الى عامر وقال بعد ان طبع على جبينه قبلة .

بارك الله فيك يا بني فانت العلامات من قبل ومن بعد ومثلك من يفتخر ببركة روح القدس التي اكتنفته وحفظته .

اما سطيح فقد كانت تتقاذفه عاطفتان متنافرتان : عاطفة حب الظهور والغيرة بما ناله عامر من شرف وعاطفة الانتقام منه ، لكنه قال على الرغم من ذلك :

لا يليق لهذه المهمة غير لانه قد تتلمذ في كنيسة الرها ونصيبين وتعلم اللغة السريانية وانقنها كما اتقن تعاليم (اوطيخي وبعقوب البرادعي) وقد فهم تعاليم النسطورية كما عرف اللغة الفارسية واطلع على عادات الفرس وتقاليدهم حينما درس في كنيسة المدائن وقد اتقن ما درسه في فترة قصيرة من الزمن رغم صغر سنه . فقاطعه المغيران ماروثا وقال موجهاً كلامه الى عامر :-

لا شك ان مجهودك ينحصر في تغفل الدين بين مختلف الطبقات في تلك البلاد بصورة محببة الى النفوس وهناك اتباعنا يساعدونك في مهمتك. واذا ما انجزت اصلاح الاديرة أو بنائها ثم تحسّن حالة من فيها ، فارجو ان نجعلها مدارس مجانية يقصدها من شاء بدافع الرغبة لا الرهبة لان الرهبة تفسد ثمرة العمل وتقضي على الرجاء والامل فالعمل الذي ينتج من جراء الخوف والرهبة يكون ضعيف البنيان متداعى الاعمدة والاركان .
فقام وأحضر كتباً كثيرة ثم قال لعاصم : -

خذ هذه النسخة من تفسير الانجيل الذي اكلمته قبل أيام واستعن به لتطلع على مخفيات الامور وغوامض العبارات ، وبواسطته تستطيع حل العقد المستعصية المعقدة لأنني وضعته بأسلوب سلس بسيط مناسب لمفاهيم الناس ، وخذ هذا الكتاب الذي ألفته في دير (مارمّي) لتستعين به على مناضلة النساطرة والرد عليهم بما يقبله الدين ويقر به العقل والدوق ، واحرص على الكتاب الحرص كله لأنّه لم يستنسخ بعد فهو غاية الذساطرة المطلوب وامنيتهن المنشودة

لا نني رددت فيه كيدهم الى نحورهم فسخفت اقوالهم ومعتقداتهم التي اطلعت على ظواهرها وبواطنها فبقاء الكتاب مع حفظ وفهم محتوياته كاف للحيلولة دون انتشار النسطورية بل والقضاء عليها ، وعند ذلك يلتفت الناس الى تعاليم اليعاقبة واعتقاداتهم التي تتفق والدين الحق الذي لا تغيير فيه ولا تحريف وخذ أيضاً هذه المجموعة من الخطب في الاعياد . ففتح الكتاب وقال انظر الى خطبة الاحد الجديدة التي بدأتها (يا أخواني انا لليوم الجديد معيدون ، وعلية الامرار متذكرون) وقد ضممتها النصائح الجملة والحكم الغزيرة فاستفد منها .

وفبل أن يهم عامر بمفادرة المسكان تذكر المفران التخشنات^(١) وقال له تريث يا عامر حتى أوافيك بسجل (التخشنات) وما هي إلا لحظة قصيرة غاب خلالها المفران حتى حضر ويده السجل المذكور فقدمه الى عامر وقال : - تستطيع عندما تقرأها بصوتك العذب الشجي ان تستفز الشعور وتستبد بالعواطف فتركزها في قولك ولحنك في عقول الناس فتغرس بذور الدين في قلوب من نرد عليه . كما أرجو أن توافينا باخبارك باستمرار وألا تطيل غيابك ، فاذهب راشداً مهدياً . فانقض المجلس بعد أن ودعهم عامر واحداً واحداً وبدون تعليق أو استرسال في الحديث .

- ١١ -

خرج سطيج قبل غيره من المجتمعين فقد بيت في نفسه لعامر أمراً جسيماً وشراً عظيماً . وقد تولاه من الفرح والابتهاج ما يحجز عن كته واخفائه ، ولما وصل قصره دعا بخادمه (مربع) فلما حضر قال له : - كثيراً ما ادعيت بالاخلاص لي يا (مربع) ولحد الآن لم اجربك إلا في الامور التافهة التي لا تكلفك من المشقة والتضحية كثيراً ، واليوم قد احتجتك لأمر جسيم يستنفذ منك بعض الجهد ويحملك التضحيات فهل أنت مستعد لذلك ؟

قال الخادم على تمام الاستعداد يا سيدي حتى ولو كلفني طاعتك حياتي - تذهب الى (سجستان) قبل عامر وتتصل بحاكم مدينة (ازريخ)

(١) التخشنات هي الابتهاالات وهي من وضع ماروتا بالاستناد على التخشنات رابولا وعددها ثلاثمائة وهي من أبداع الحان الكنيسة .

ورهبان أديرتها ، وتعلمهم بأن اليعاقبة قد غزوه وهم في ديارهم بمبشر لا يجارى ولا يناظر فإذا سمح له واتصل بالناس فإنه سيستميلهم الى مذهبه ويجرم الى حضيرته فيتمردوا عليهم وعلى مذهبهم ، ولأجل أن يتخلصوا من شره عليهم أن يقتلوه قبل ان يتصل بالناس ، فهل بإمكانك القيام بهذه المهمة ؟

- أجل يا سيدي

- إذن أصرع واسبق عامراً . فقام الخادم من ساعته وركب حصانه وشار يسابق الريح دون أن يلتفت الى شيء .

أما عامر فقد وصل قصره وجلس في محل استراحته فاسترسل في خنفس أفسكاره واستعراض صحائف ذاكرته والصور المرسومة عليها ، فتراث له صورة (سلمى) وثبتت أمام ناظره فوجدها بأثمة ، تلومه على عمله الذي أقدم عليه دون غيره ، وتعاتبه على ما بيت في خاطره ، واضمر في نفسه ، بأن يسافر دون علمها ، كي لا تضعف عزيمته ويتزعزع إيمانه . تراث له تلك الصورة بوجه شاحب واجم من ألم البعد ومرارة الفراق . فهب من فوره ونادى « مريم » . فلما حضرت بين يديه ، قال لها : - اذهبي الى « سلمى » وبلغيها بالحضور .

خرجت « مريم » من القصر متجهة الى دار سلمى ، وعند وصولها ودخلوها قالت : -

سيدي يستدعيك يا سلمى .

فاجابتها سلمى بعد أن زمت شفقتها وحدثت الخادم بعينها اليسرى :
وما سبب ذلك ؟

- لست أدري .

- لعل في الامر غرابة وخطورة ؟

- لا علم لي بذلك يا سيدتي .

فلم تر سلمى بدأ من الذهاب الى عامر ، لأنها هي الاخرى كانت مدفوعة بماطفة حب الاستطلاع وبرغبة ملحة جامعها الى مقابلته ، لتطمئن خاطره وتهديء بعض عواطفه المضطربة ، فارتدت ملابسها وسارت امام « مريم » حتى وصلت القصر ، فلما دخلت عليه وكلها شوق وتوق اليه . استقبلها بأعطر التحيات كأنه لم يرها منذ زمن بعيد . ولما جلست واستقرت بجلستها قالت له :-

ماذا حدث يا عامر وارسلت تستدعيني رغم مقابلتنا في صباح اليوم، هل من جديد يا عزيزي ؟

- أجل يا حبيبتي . نعم يا عزيزي .

- كأنك تريد ان تطلعي على ما دار بينكم اثناء اجتماعكم في الكنيسة ،

وما اتخذتموه من الوسائل للوصول الى اهدافكم ومراميك ؟

- نعم يا سلمى . وكنت قبل الآن ضيقاً به عليك . لأنني حاولت أن أتخذ الخطوة لولا أن تراهي لي صورتك ، وتعرض أمام ناظري وترتمم في خلدي . فانهارت عزيمتي وتقوضت ارادتي وتزعزع ايماني ، فعدلت عما صممت من عدم مواجهتك قبل مغادرتي الديار . ولذلك ارسلت في استدعائك ، لأتزوّد منك بنظرة ونفسي تطمع بدعائك وابتهالاتك ، لا أكون في حرج من المهالك والاضرار حصين . فردت عليه سلمى وقالت : ماذا ؟ وأي سفر تريد ؟ وما هي البلاد التي ستضع فيها عصا ترحالك ؟ ولماذا السفر ؟ وما هي الغاية ؟ وكيف تتركني ؟ خبرني يا عامر . هل من

زائر فضولي زار قلبك فاستوطنه عندما سقيته بعصارة قلبك ، وغذيته
بحشاشتك ؟ كيف يا عامر قد تغيرت ومن ذا الذي قد غيرك ؟
هل هذا هو المصير الذي كنا نعلم به ونتمناه ونعلق عليه آمالنا ؟
ما كان ظني بك هكذا ، أقصدك المداعبة والمزاح ام انك مجد في قولك
صادق في نيتك مصمم على تنفيذ خططك ؟

عامر : ان كانت غابتك الحرب والابتعاد عني فلا تكلف نفسك مشاق
السفر وتطوح بها في المفاوز والحزون . بل ابق يا عزيزي لاتزود منك
بنظرة من بعيد بين لحظة واخرى ، وامنح حبك لمن شغل قلبك . فحبك
يا عزيزي قد غلب على مشاعري واحسامي فأصبحت لا افكر إلا فيك
ولا انظر إلا اليك ، فأغلق قلبك من دوني واتركني ما شاء لك هواك ،
وتراني من احسن المخلصات اليك ، واعلم ان غيابك عني ، قصد الهجر
والقلى معناه ، ازهاق لروحي وزوال لحياتي ، فكن حارسي من الموت
الذي اتخوف منه من أجلك لأظل بقربك ، واستعذبه وارحب به إذا
ما انحرقت عني ، أو فأيت مني ، أو تغيرت عليّ .

ثم زفرت زفرة طويلة وقالت بعد ان جزعت : -

آه يا ربني ما جنائتي وما هو ذنبي ؟ فأجهشت بالبكاء بعد ان يأس
فقال عامر عليها يخفف من آلامها واحزانها ، ويطرد عنها المخاوف
والمآسي ، وقد أخذه العجب مما رآه وسمعه ، وكيف صاه ظن سامي به
قبل أن تعرف الأسباب وتطلع على الدواعي والدوافع ، فقال لها بعد أن
عيل صبره وخف بكأؤها : -

لم اعهد فيك التسرع في الحكم . وقد عهدتكم متزنة رابطة الجأش
قوية الاعصاب امام المفاجآت الجسيمة والاختطار العظيمة ، فابالك الآن

قد استسلمت لليأس والقنوط ؟ بعد أن أسأت الظن بحبيبك الذي يضحى بالحياة في سبيل راحتك . ما لك تشأمين من هذا الاستدعاء هل هناك باعث للتشائم ؟ خبرني بربك يا سلمى ؟

- كيف لا أنشام يا عامر ؟ وكيف لا تذهب في الظنون شتى المذاهب وقد استدعيتني في وقت لم أكن أتوقع فيه ذلك ، لأنني كنت قبل ساعات عندك بصحبة والذي الذي جاءك في الامر الخاص بنا ، وزيادة على كل هذه المفاجآت فانك قد قررت مغادرة الديار ، دون مواجهتي أو توديعي وما ارسالك في استدعائي إلا لأقناعي ، بالكلام المعسول ، فتخدع به فتاة هام قلبها بحبك ، لتسعدا بالآمال الضائعة وتسليها بالاماني التي اصابها العفاء .

- لم أكن كما تظنين يا حبيبتي . انما اردت تنفيذ خطة « ماروثا » في نشر الدين المسيحي ببلاد سجستان ، بعد ان احجم واجبن غيري من امراء العرب وقادة الروم . مع بث تعاليم اليعاقبة ، لتدعيم الدين ، والعمل على توسيع رقعته في تلك الاصقاع . ولم اغادر البلاد حباً في السفر ، أو تخلصاً من الناس أو هرباً منك كما تزعمين .

- اذا كان الامر كذلك فما بالك تتحاشى مواجهتي قبل سفرك ؟

- خوفاً من أن يستبد بي سلطان حبك ، بعد ان يستغل ثورة عواطفني التي تسد دوني جميع منافذ نور العقل والبصيرة ، فتوهن من عزيمتي وتزعزع ايماني ، وتضعف ارادتي ، ثم اضطر الى تغيير خطتي وتأجيل سفرتي التي نلت بها التقدير والاعجاب من رجال الكنيسة ، وقادة الحامية وامراء المدينة . واذا أحجمت واحنث بمهدي الذي قطعته على نفسي في سبيل ذلك أكون قد حلت دون تلاً لنجمي في افق الشهرة وسماء البطولة

والتضحية . فانا يا « سلمي » لم اطوح بنفسي في هذه المهالك إلا من اجلك ورضاك . فلولاك لما تاقت نفسي الى المعالي وحتت الى المنازل الرفيعة ، واشتأقت الشهرة والصيت .

لأن الحب يا « سلمي » اذا غزا قلب الشاب فإنه يحدث في حياته انقلاباً وتغييراً حيث يخلق من الجبان شجاعاً ، والمحجم مقداماً ، والبخيل كريماً ، والفاسي الطباع لين العريكة ، اذ أنه بصقل العواطف ويهذب الشعور ، ويرقي الاحساس ، وينمي الذوق .

فلولاك يا حبيبتي لم ارض الزيادة . ولم اتقهم المخاطر واتجشم الائماب لأنني في سعة من الرزق والحياة والسلطة . لكن حبك اخرجني من عزلتي وانزلني من برجي الذهبي ، فزجني في سوح القتال ، وميادين الجهاد والنضال . فالحب طموح يا سلمي ، وطموحي جعلني أحب الدين واقدسه وقد ازداد تمسكي به وعظم عندي ، عندما رأيتك تتفانين في سبيله بعد ان سمحت لتعاليمه ومبادئه ان تتغلغل في احساسك وشعورك وافكارك . ولما كانت سفرتي في سبيل الدين الذي احببته من اجلك . فلي فيك وطيد الأمل بأن تستحسني الفسكرة وتشجعيني على السفر ولو سبب ذلك آلام الفراق وعذاب البعد لمدة من الزمن . قال ذلك وسكت ليترك مجال التفكير واسمأ أمام سلمي ، كي تعطي رأيها وتبت في الامر . واخيراً تمكن من ان يستخلص منها هذا القول : -

وفقك الله يا عامر ، وحرستك عين عنايته ، وكلا تلك روح القدس من المخاطر والأهوال . سر على بركة الله فستجدني من الصابرات الداعيات لك بالخير واليمن . واسكن ارجوان ترفق بنفسك وتحترس على حياتك لا من أجلك انت فقط . بل من أجل من شاطرتك السراء والضراء .

عندما احتليت سويداء فؤادها ، وما سكت جميع مشاعرها واحساساتها .
 لا جلي انا التي غدوت لا أفكر إلا فيك ولا انظر في غيابك وحضورك
 إلا الى صورتك ولا يشغلني شاغل غير حبك . قالت ذلك وعيناها تضيقان
 بدمعتين جائلتين حائرتين لم تلبثا ان سالتا على وجنتيها بعد أن اجهشت
 بالبكاء .

فاحتضنها عامر ليخفف من آلامها واحزانها ، ويخفف دموعها ويمطرها
 بقبلاته . ولما هدأت وسكنت مدت يدها وصاحت . ثم خرجت تترنح في
 مشيتها كأنها سكرى .

— ١٢ —

وقبل ان تشيب ذؤابة الليل عبر (عامر) مع خادمه (جرير) نهر دجلة
 فركبا حصانيهما وسارا ينهبان الارض متجهين نحو الجنوب الشرقي دون
 أن تفر همتها او يعتريهما الوهن والتعب حتى اشرفت الشمس على المغيب
 وهي تجر ذيول اشعتها الذهبية البراقة لتعكس ذلك اللون على الطبيعة
 الزاهية التي بدت تستفيق من رقدتها الطويلة وتصحو من سكرتها على
 أثر انتعاش النائم من عطر الزهر والورد عندما فتحت اكمامها بواذر الربيع
 الباكِر . وفي سفح جبل (بارما^(١)) حط رحليهما ليستريحا من تعب
 الطريق ومشقته ويبيتا ليلتهما هناك يتوليان الحراسة ، لكنهما لم يكملا
 ليلتهما في الراحة والنوم بل ركبا حصانيهما وسارا دون ان يسلسا طريقاً
 معينة مطروقة يجتازان المعاوز الخيفة والجبال العالية والوديان العميقة

(١) جبل حرين - الاصطخري ص ١٥٥

لا يسمعان غير اصداه أصوات الوحوش أو اصطدام الرياح بالجبال والكهوف وكل ما هو مفزع مزعج . ظلاً كذلك يواصلان في سيرهما الليل بالنهار مدة ثلاثة أيام وهما في سكون دائم وهدوء تام وفي نهاية اليوم الثالث قبل ان تختصر أشعة الشمس الصفراء وهي تجمع ذوائبها لتودع الطبيعة ولو الى حين لاح لهما على البعد شبح أسود يحمله السراب لم يستطيعا ان يثبتا حقيقة أو يعرفا ماهيته ، ولما حثا جواديهما في السير اليه تمكنا تميزه ومعرفة ، فاذا هو برج مخروطي الشكل تحته كهف كبير منحوت في ذلك الجبل مقسم الى مخادع وغرف بحواجز خشبية غير منتظمة الصنع والترتيب ورأيا باب الكهف الضخم مفتوحة على مصراعيها ، فهم عامر الى ولوجها فاستوقفه جرير وقال : مهلاً سيدي تريت قبل الدخول فلا تجازف في حياتك وتطوح بها وتسوقها الى المهالك . فالتفت عامر اليه وقال :-

وأى مهالك يا جرير ؟ أتزعم ان في دخولي الدبر هو اقتحام المهالك ؟
إني لا أرى رأيك في ذلك . فما سبب الضرر والأذى ؟ فقد تهياً لنا المحل المعد للراحة الخاص لا يواء المسافرين واطعامهم وحفظهم من الاخطار .
- ليس كل ما بني على هذا الطراز وبمثل هذا المحل يدعى ديراً مخصصاً للمسافرين .

- ولم لا يكون كذلك ؟ وما الفرق بين هذا الدبر وغيره ؟
- عهدت الاديرة ياسيدي تبني قريبة من الطرق والمسالك ، بعيدة عن مناطق الخطر والمحلات المفزعة المنعزلة ، وعهدي بسكان الاديرة مسالمين متحفظين ، لا يتعمدون الشر أو يتصدون له أو يبحثون عنه كما هو ظاهر بـين في هذا الذي تدعوه ديراً . أنظر ياسيدي الى تلك الرماح

الطويلة والسيوف الكثيرة على ذلك الجدار في الغرفة المقابلة ، ثم انظر الى تلك الاواني والاثاث التي تملأ ارض المخدع المجاور . ثم اترك الرأي لك في شأن الباب الخارجي المفتوح رغم ما يهدد القوم من اخطار اللصوص والمصابات أو مهاجمة الوحوش السكاسرة الجائعة . أليس كل ذلك بغريب ، يدعو الى الشك في أمر البناء وسكنته ؟ لأن القسس والرهبان يتحاشون الشر ويتحفظون من الخطر ، ولا يفتحون أبواب أديرتهم إلا لمن طلب معونتهم أو لاذ بحمام . وهذه القلعة التي تحسبها ديراً لا يسكنها إلا لصوص أو قطاع طرق أشداء يتصيدون المارة بهذا الاسلوب وتلك الطرق من السلب والنهب .

وبينا هما كذلك إذ سمعا صوتاً يقول :-

إدخلا على الرحب والسعة فأتنا منكوناً كما خدماً مخلصين ، نسهر على راحتكم كما وطأ نيتكم كما يحكم مهنتنا وبدافع ايماننا بديننا .

والتفتا الى مصدر الصوت فاذا بشيخ طويل القامة مديدها حاد النظرات تفاذاها متغضن الوجه كئ اللحية عريض الصدر . فلولا يياض شعره ، وتغضن وجهه لظنه كل من ينظر اليه انه ابن العشرين لجودة صحته وقوة سواعده المقتولة .

فاقبل عليها وهو يحارل تثبيت جلبابه الاسود على كتفيه عندما بدء الهواه يعبت به ولما رأى جرير ان سيده سيكون مضطراً لقبول دعوة الشيخ تحداه وقال :-

شكراً لك أيها الشيخ الوقور على ما ابديته من لطف وعطف لكننا لا نرغب في الراحة الآن لأن مهمتنا تتطلب منا الاسراع في السير دون

«موادة أو فتور لنصل محلنا بأسرع وقت ممكن كي لا تفلت الفرص من أيدينا ، فأجابه الشيخ :-

السير في هذه المفاوز والجبال ، ويمثل هذا الوقت سيمرضكما الى الاخطار العظيمة التي اقلها سلب ما عندكما وطرحكما تتخبطان بدمائكما بين الحياة والموت ، فالارض معمورة بالصيود وقطاع الطرق والوحوش السكاسرة . وتلافياً لما سيمحدث ارجو ان تقبلا ليلتكما عندنا لنضمن لكما حياتكما في ديرنا هذا . قال ذلك وسكت . أما جرير فقد أخذته الشك وانتابته الريب من كلام الشيخ والحاحه فاجس خيفة منه وقال :- تعلمنا على الأحوال فركبناها بعد ان ذللناها لنا حينما تعودنا على تحمل المشاق والصعاب ، فارجو ان تسمح لنا بمغادرتك ولك منا الشكر الجزيل . فاغتاز عاصم من كلام جرير واندفع بحدة وقال :-

يجب ان نأخذ راحتنا عند هذا الشيخ الوقور الذي دعاه كرمه وحسن ضيافته الى ان يلح علينا ، فنحن بحاجة الى محل نخلد فيه الى الراحة والاستجمام ، ولما كان هذا المحل هو خير ما تصبو اليه نفساننا المضطربة وجسمانا المتعبان المنهوكان فيجب ان نزل ، ثم نرجل وتبعه جرير بالرغم منه وأخذ الجوادين الى الاصطبل بإرشاد الشيخ ثم رجع الى عاصم يتعثر بمشيته لعدم راحته ولا نشغال فكره بالهواجس والمهموم وفي فترة غياب الشيخ قال جرير :-

كن يا سيدي على تمام الاستعداد لمواجهة الخطر وخذ الحيطه والحذر لأننا قد وقعنا في فخ كان معداً لاصطيادنا واصطياد المغفلين الذين يخلبهم كلام الشيخ المعسول وتسحرم اقواله فتجذبهم متانة البناء وعصبة المحل بعد التعب المضني والخوف المستمر . فرد عليه عاصم .

وما السبب الداعي لاصطيادنا ، وما هي الغاية في ذلك ؟ وكيف يتسنى
لهذا الشيخ الهرم ان يوقعنا في حبال المسكيدة وفخ الصيد ونحن اقوى
منه وأقدر ؟

- لم يكن الدافع الا الطمع في الغنائم والاسلاب التي يسلبونها منا او
يغنمونها بعد اغتيالنا . وهل تظن ان بناء كهذا في هذا المحل المقفر
الموحش الخطر ، يسكنه شيخ هرم بمفرده ؟ لا شك انه معمور بشبان
اشداء عودتهم الحاجة والمهنة على اصطياد الحيوانات طعاماً في الاكل
واصطياد البشر املاً بالمال والاسلاب .

فوقع كلامه من نفس عامر الموقع الذي ينتهيه جرير ويريده لذلك
انتابته المخاوف وساورته الريب والشكوك عندما ايقن ان كلام جرير
ينطبق والواقع ويتفق مع الحقيقة السافرة وهو المسؤول الاول عما
سيحدث لها ، لأن غارسته وكبرياه واعتداده بنفسه ورأيه هي التي
حالت دونة ودون اتباع آراء خادمه المصيبة واقواله الراجحة . فالتفت
الى جرير يلتمس منه الرأي السديد والخطبة الناجحة التي تنقذها من هذه
الورطة وتخلصها من الخطر المحدق بها وقال :-

وكيف الرأي يا جرير ؟

- وهل غير الحذر والتحفظ ينقذنا من هذا الموقف الحرج والحرب
عند اختلاط الظلام ان امكن ؟

- وكيف يتسنى لنا الحرب يا جرير وخيولنا قد اوصد الباب دونها ؟
ونحن كما تعلم لا نستطيع السير على اقدامنا ولا سباً في هذه الارض الوعرة
فلاحسن ان نخلد الى الهدوء ونبقى الى ان يقضي الله امراً كان مفعولاً على
ان لا ننمى الحيلة والحذر ، و...

فقطع عامر كلامه حينما أقبل الشيخ يتمنم بادعية غير مسموعة الثبرات
ولا مفهومة المقاطع والاسكلمات يحمل بيده صحناً وباليد الأخرى قدحاً
كبيراً وعندما وصل وضعه بينهما وهو يعتذر من رداءة الطعام وعدم
ملاءمته لذوقيهما فقد كان يظنهما من اهل اليسر والثرى ، أو من أصحاب
الجاه والسلطان لذلك قال :-

ان طعامي هذا غير مناسب لكما لكن الضرورة ألجأتني اليه وانما
تعلمان ان محلاً كهذا لا يمكن ان يتهياً فيه كل شيء في اكثر الاوقات
والظروف لانزاله عن الناس وبعده عن المدن والكثره ضيوفنا الذين
يستزفون ما عندنا من المؤن والغذاء . فرد عليه عامر وقال :-

لا بأس عليك يا عم فانا في غنى عن اكلك هذا رغم ملاءمته للذوق ،
فقد اكلنا قبل مجيئنا بساعة ، لعدم توقعنا محلاً للايواء وتقديم الطعام
والغذاء في مثل هذا المحل . والآت وقد رأينا محلكم ودخلنا فيه ،
غضبنا ما لقيناك منك لأنك قد أنسيقنا أتعاب الطريق بتطافك
وعطفك . فارجو عدم مؤاخذتنا وعفوك من عدم تلبية طلبك بشأن
الاكل .

قال ذلك بعد ان تلقى الاشارة الخفية من جريب ، بعدم الاكل ولو
لقمة واحدة من هذا الطعام الذي نظير منه . فتقدم الشيخ وخاطبهما بكل
لطف وعناية وقال :-

لم أكن أتوقع هذا الرفض الذي ليس بالحسبان ، وقد كنت اتأمل
ان ستنزلان الى مستوى الشيخ البائس ، وتقبلان ما اقدمه اليكما ، ولو
هذا الذي بين ايديكما . لكن طعام الفقراء لذيق يستلذه الفقراء انفسهم
ويتوق اليه الاثرياء . فهذا هو ، فارجو ان لا تخيبا ظني وتجعلاني

وتركاني ارجع به من حيث أثبت . ثم تناول لقمة وقدمها الى عامر وقال :-

ما أشهاها وأطيبها ! إن الزيت يقطر منها فيزيد في الشبيه ، فهو زيت
نظيف ممتاز . أرجو ان لا ترجع يدي بما اقدمه اليك . فباسم السن
المتقدمة والشيخوخة أدعوك وأتوسل اليك في قبولها .

- لا أستطيع اكل الشيء الذي يحوي الزيوت والدهنيات .

فتناول الشيخ قدح النبيذ وقدمه الى عامر وقال :-

نبيذ معتق يغنيك عن الطعام ، فرشقة منه تحدد فيك نشاطك وتعيد
اليك قوتك التي خسرت بعضها في الطريق المتعبة .

فلم ير عامر بداً من تناول القدح . ثم ارتشف منه رشقة ضاغت بين
فسيكه . ولما تحول الشيخ الى جرير وطلب منه ما طلب من عامر رفض
الاكل والشرب رفضاً باتاً . وقد خاف على سيده من عاقبة الرشقة التي
نهلها من كأس الشيخ . فساوره القلق والاضطراب ، وانتابته الوسواس
والهواجس .

وحينما غادرهما الشيخ . افترق جرير أثره دون أن يحس الشيخ به .
لذلك دخل المخدع المجاور دون ان يلتفت ، فدخله جرير بعمده ، ولأذ
بزواية فحسرت بالظلام ، وبدأ يراقب الشيخ على كئيب . فراه يضع الطعام
على الرف المقابل ، وينحدر في قبو بوسط المخدع ، بواسطة سلم ضيق ،
صغير الدرجات فلم يقدر جرير على كبح جماح نفسه التي ساقته الى المغامرة ،
فتقدم الى باب السلم ونزل بضع درجات ، وبدأ يطل برأسه على ما في القبو .
فخال الظلام دونه وذوون ما كان يتوقع ، لأن ضياء الشمعة الخافت لا
يساعده على الرؤيا والتمييز . ومرعاه ما أجفل وارعد الى الوراء حينما

طرفت سمه، همسات خافتة ضميقة . ولما أصاخ السمع تبين صوت الشيخ بوضوح وهو يقول :-

أصبنا اليوم صيداً سميناً . فرد عليه صوت آخر .

وما هي الاشرالك التي نصبتها لافناصه ؟

- اشرالك المخدر الذي وضعته في الطعام والشراب ، فقدتمته اليهما ، وقد أوشكت التدابير تفشل والاحراءات تخيب لولا حياء الشاب من توسلاتي السكثيرة اذ تناول رشفة من النبيذ . أشك في أمر مفعولها بتخدير الشاب ، اما الآخر وأظنه هو الخادم فلم ينخدع بكلامي الممسول ، ولم يلبن أو يرق ، بل أمر على امتناعه ورفضه ، وقد جئتكم الآن اعلمكم بالامر لتتخذوا الأهبة والحيطه ، وتكونوا على استعداد تام لتنفيذ خطتنا على الوجه الاكمل والاثم عندما نسلب من الشابين أموالهما، فارجو ان تبينوا لنا رأيكم في الموضوع بسرعة ، كي لا يفلت زمام الفرصة السانحة من ايدينا . فسمع جرير صوت آخر يقول :-

وهل لنا غير قتلهم واخفاء معالمهم خطة تمكنا من سلب أموالهم ؟

فرد عليه الشيخ وقال :-

وهل تتصور ان القتل سيكون سهلاً الى هذه الدرجة ؟ فلمهم عندنا الآن هو القتل وكيفية تنفيذه ، لأنه خطر على من يقوم به . فقد اتوقع الشجاعة والاقدام عند الرجلين . وخصوصاً من الشاب المخدر الذي اخذ من الحيطه والمخدر ما اظنه قد يكون حائلاً دون تنفيذ خطتنا . فعدم اطمئناننا منا ومن محلنا الذي لمسته منه وعرفته فيه ، سيسهر الليل ليتولى حراسة صاحبه المغفل رغم حاجته العظمى الى النوم .

فقال آخر :- هب انه سهر واتخذ لنفسه الحيطه والمخدر ، فهل يقدّر

علينا اذا ما داهمناه وسدينا عليه طرقة وطرائقه ؟ أو نظن ان سيفلت
وصاحبه من ايدينا التي تعودت القتل والسلب والنهب ؟ مما ذا لله الا اذا
كانا ما-كين مجنحين .

فرد عليه الشيخ وقال :-

نعم انهما سيفلتان ، وربما انقلبت الحالة الى عكس ما نظن ونتصور ،
فيذيقانا ما كنا نروم اذاقتهما . لأن قلبي يحدثني بسوء العاقبة ورداءة
المنقلب . فقاطعه آخر وقال :-

الشك والريب لا يتسربان إلى قلب شخص ، ما لم يتمرب الوهن
والضعف اليه . ويظهر ان الشيخوخة قد اسلمتك الى الشك وعدم الاعتماد
على قوتك ، أو الوثوق بنفسك . فبدأت تتخوف من الشخصين بعد
ما كنت تهزأ بالعشرات . فان كانت السن المتقدمة قد نالت من قوتك
ما نالته فاننا لا نزال نقبض على ناصية قوة الشهاب الجبلي . ولذلك
فسنكفيك الشر الذي تتخوف منه ، ونحصل لك على الغنيمة التي تريدها
دون ان نكلفك بشيء . أو نقحمك خطراً ما ، ولا نطلب منك غير شيء
واحد : هو حمل الشابين على السهر بما تقصه عليهما من القصص المحببة إلى
نفسهما أو ما تقدمه لهما من الحاملات والتلطف . وبعد ان تطمئنهما على
اموالهما وروحيهما . تتركهما ينعمان في سبات عميق .

فامتعض الشيخ من هذا الكلام ، وغضب على صاحبه وقال : —

لا زلت اتمتع بقواي السكاملة ، ولا زال قلبي كما عهدتموه . فانا المقدم
المغامر الذي عرفتموه قبلاً لا ازال كما كنت . اما شيخوختي فهي التي
اكسبتني الخبرة والمعرفة ، ثم الحدس الصحيح والتخمين الذي يستهدف

الحقائق التي لا غبار عليها ، ولا تضليل فيها . في الوقت الذي سد عليكم
دم الشباب الحار جميع منافذ العقل وسبل التفكير الصحيح . فأنقذتكم
إلى أهوائكم بمقود العاطفة وزمام الكبرياء والاعتداد بالنفس فنبذتم
جميع ما توجهه العقول الناضجة ، وابتدعتم التفكير . ثم استهنتم
واستهزأتم بالصفائر بعد أن احتقرتم القلة .

وزيادة على ذلك كله فإن شياطين التمرد والانشقاق قد بدأت تتغلغل في
قلوبكم ، لتستحوذ عليكم وتصرفكم كيف شاءت ، لتفرقكم في الأرض
فتذوقوا مغبة أمركم ، فتحزنوا أو تندموا على ما فرط منكم .
فرد عليه صوت آخر وقال : -

ارجو أن لا تسمح لطلائع الغضب والانزعاج من أن تصيب منك
شيئاً لأنها تقتل المواهب وتثبط الهمم وتحبط المساعي ، فتوقع صاحبها في
المهاوي التي لم يكن يتوقعها ، رغم شجاعته ومقدرته .
أما الآن فأرجو أن تهدينا بنور عقلك إلى ما سنسلكه في اقتناص
صيد الليلة المشؤوم ، فرد عليه الشيخ بياس وقنوط وقال : -

ليس لي من الأفكار التي تهديكم إلى اقتناص المساكين اللاجئين . فإذا
تنتظرون من شيخ قد دبت علائم الكبر في أوصاله وعقله . فأضعفتها
وانهكتها فأفقدتها سيطرتها على نفسها . ماذا تنتظرون من هذا الشيخ الذي
افتقر إلى إرشادكم يا أهل العقول النيرة ؟ وإلى قوتكم الحديدية التي تغل
الصخر وتحطم الحواجز والموانع ؟ قال ذلك وقد بدأت علائم الغضب في
صوته المرتفع وهو يخرج الكلمات بسرعة فائقة مع التشديد والتأكيد
فساد القبو سيكون مخيف . قطع أحدهم حبله وقال موجهاً كلامه إلى
أصحابه : -

ان شيخنا قد قضى يده من عندنا اليوم ، فخرمنا من افسكاره التي تنورنا بها ردها من الزمن . فما علينا والحالة هذه إلا ان نعمل على ارضائه كي لا نحرم من افسكاره الراقية ، وآرائه السديدة ، ونقوم باقتناص صيدنا بأحسن وسيلة ، وبأسرع وقت : هذا اذا كنا من أعوان الشيخ المتنورين . بخبرته والمستفادين من مهارته وافسكاره . فقال آخر :

وكيف ذلك ؟

- يذهب الشيخ الى الضيفين ويمقد معها جلسة ممر مسرة الى وقت متأخر من الليل . وفي أثناء ذلك يطرق اثنان منا الباب الخارجي فيهب الشيخ ويفتح الباب . فيدخلان ، ويدعيان انها بمن ساقتهما الصدف الى هذا المحل بعد ما ضل الطريق . ثم يجلسان وينامان وقت النوم مع الضيفين ، وعندما يستسلم السك للنعوم ينهض الفارسان من مضجعهما ويباغتانهما بالضرب ، ثم يشدان وثاقيهما أو يقضيان عليهما . وعند ذلك نكون قد حصلنا على فريستنا بسهولة ، وبدون مشقة أو كلمة . فقاطعه الشيخ وقال : -

سأعمل على تنفيذ خطتكم . فليتبيا اثنان منكم . قال ذلك وسكت . ثم سمع جرير وقع أقدام متشاقلة على الدرج من جهته السفلى . وقبل ان يروح جرير محله سمع صوت آخر يقول :

ولا ينسى شيخنا من لبس درعه واخفاء سيفه تحت ثيابه ، للحيلة والحذر .

ولما كانت الاقدام لم ينقطع صوت اصطدامها بالدرجات فقد ظن جرير انه الشيخ قد أنسل من مجلسهم وقصدها لأجل ان ينفذ دوره في المؤامرة على مسرح الديور . لذلك امره يركض على اطراف اصابعه . وما ان

وصل الى عامر حتى رآه جالساً ورأسه مطرقة الى الارض ، يحاول بين الآونة والاخرى تعديلاً فلم يقدر أو يستطع . فاقن انه قد تخدر من تلك الرشقة التي أخذها من قدح النبيذ . تخاف سوء العاقبة ورداءة المنقلب وتقدم الى عامر . وقد نسي القروق الاجتماعية ، ولم يمتزج بمنزلته بالنسبة لعامر . وبدأ يهزه هزاً عنيفاً ، يحاول إيقافاً ، فلم يفلح . لذلك شمر عن ساعده فصغمه صغمة قوية على خسده كانت سبباً لايقافه وتضييقه فانفض عامر من ألم الصغمة وقال :-

أراك قد جنت يا جرير ! فتحدثيني وغررت بك نفسك وتناولت علي وجازيتني بهذا الجزاء الذي لا يمكن ان يقوم به شريف . فالعاقول هو الذي لا يركن الى الحاشية الوضيعة والبطانة السيئة ، ولا يعتمد على السوقة والخدم ، دعاء الرجز والذيلة .

قال ذلك بعد ان امتشق حسامه واستوى واقفاً . وما كاد بهم بسيفه على رأس جرير حتى سمع الشيخ بصيح :-

مهلاً مهلاً . ما هذا التطاول وهذه الجسارة ؟ هل بلغت بك الخسة الى هذا الحد ؟ وتفتحم دار الأمان والطمأنينة ، لتسفك بها دماً محرماً ، وتزهق نفساً بريئة دون أن تلتفت الى حرمة المحل وقديسيته ، أو الى الضيافة وآدابها . قف ولا تتحرك ، فإن تحركت ونفذت بفيتك وما هممت به لتكونن من المقتولين الذين تلقوا جزاء صنيعهم وذاقوا عاقبة عملهم وأمرهم . فالتفت عامر الى الشيخ فحجل منه بعد أن وقمت كلماته عليه وقوع الصاعقة . لكنه تمالك زمام نفسه الجامحة فقادها بمقود العقل والبصيرة ثم وجهها الاتجاه الحسن . فبدأت أعصابه المتوترة النائرة . عندما علم ان كلام الشيخ يتفق والحقيقة ويألف والواقع ، فاستسلم للالهانة

والتقريع رغم انها استهدفت كرامته ، ووقف وقفة المغلوب على أمره ،
يمتدحهما صدر منه عند ثورة النفس وتوتر الاعصاب ، وحدة الغضب .
ويقول : -

أرجو ان تغفر لي ذنبي ، وتسامحني على هفوتي ، وتصفح عن ذلتي .
كما أرجو من جرير ألا يحمل اهانتني له بالحمل السيئ . لأنه عالم بسريرتي
ودخيلة امرئي . وقد يفقد المرء وعيه وادراكه ، ويفلت منه ذاك ، فيستسلم
لثورة النفس ووحدة الغضب . عندما تحجب العاطفة المضللة نور العقل ،
فيتيه المرء في حزوب غيه وضلاله ويضل في مفاوز تهوره وتسرع ،
فيحظى بانحسار العواقب ، وينال انعاس الجزاء ، فيدبث في صحراء الخيبة
والفشل عندما تحز الندامة قلبه ويحرق الحياء شعوره .

وقد يحق لي كل هذا التهور أيها الشيخ الوقور ولا سيما وقد تلقيت
الصفعة القوية من جرير دون سبب مبرر . جرير الذي نشأ في ظل قصرنا ،
ونال من نعمتنا ما نلته أنا . ولم يعامل معاملة الرقيق أو الخدم . لأنه
كان يعتبر بمنزلة مستووي ، وقد نشأت وياها على الاخاء والمودة ،
وروابط الصداقة الصادقة تربط قلبينا دون تمييز أو التفات الى الفروق
التي اوجدتها تقاليد الناس الضعيفة ، ونظمهم الواهنة فكان مثال الأخ
الحكيم والصديق الصادق في التضيحية والتفاني . فكم انقذني من الهلاك ،
وكم خلصني من المآزق الحرجة . لكن شيطان العاطفة قد استغل رقدي
فنشط عزمي وقوي في كياني على أثر الصفعة . وبدأ بعزف لي موسيقى
الارستقراطية التي ذكرتها بما فطرت عليه عند الطفولة . فاستفز بي تلك
الروح التي لا أقر بها أو أعترف بوجودها عندما يكون العقل مسيطراً
علي . لاني لا اتفق ومطالب الغطرسة الفارغة والارستقراطية الجوفاء ،

التي نشأت في أبراج أهل النفوذ والجاه الذهبية ، فخالَت دونهم ودون معرفة البشر ومطالبهم ، لاستعلاء اموره الظاهرة والمخفية والوقوف على ماهية الحياة وجوهر المجتمع .

وقد لاحظ جرير اصفاء الشيخ الى حديث عامر اصفاء تاماً . وكيف كان يحرق الارم عندما كان عامر مسترسلاً في حديثه ، وكيف كانت علامات الندم بادية عليه من جراء صنيعه هذا ، حينما علم بالدافع الذي دفع جرير الى تحدي سيده . فقال بعد سكوت سيده : -

ليغفر لي مولاي زلي . لأنني لم أكن في اللحظة التي تحديته فيها اشعر إلا وأنا امام من اغلظ القول لسيدي ، وذلك على أثر تسرب سنة ضعيفة من النوم التي ففطت بصري ثم افقدتني اتزاني ، وسلبتني تفكيري وادراكي . فاستسلمت لهذا الطارق الفضولي حتى أوقفني أمام الشبحين اللذين يمثل احدهما سيدي في دور المظلوم المعتدى عليه من قبل الشبح الآخر . ولذلك انتصرت لسيدي . وما ان اخرجني صدا الصفعة القوية من موقعي واصعاني من سكرة النوم التي لازمتني حتى رأيت نفسي أمام سيدي يمتشق حسامه يحاول اغماره في صدري ، فعملت اني قد مثلت الدور على مسرح الحقيقة ، لا على شاشة خيالات الاحلام والالوهام ، وعلمت ان الاهانة كانت لسيدي لا للشبح الذي تصدى الى اهانته كما صورته لي الرؤيا ، وزخرقه لي الخيال .

ولم يلبث جرير حتى انكب على قدمي عامر يقبلهما ويتقرغ في ترابهما يطلب العفو والمعذرة ، ولما استخاض كلمة العفو من بين شفتي عامر ، اتجه الى الشبح يقبله ويشكره على حسن صنيعه ويقدر جهوده وفضله التي ان دلت على شيء فانها لا تدل إلا على كرم الاخلاق وحسن المعاملة ،

مع الحرص والسهر على كل من تقياً ظل سقفه ونشد الراحة في قلمته .
 فالتفت الشيخ الى جرير ولسانه يتعثر برد الشكر والثناء له ، لانه لم ينخدع
 بكلامه الخلاب ولا بعباراته المنمقة التي لا تنم إلا على حيلة صائغها ومهارته
 بالطلي والتمويه ، لاخفاء الحقائق وطمس معالم الاشياء التي يتعذر اظهارها .
 فقاطعه بعد ان استثقل وقم كلامه وقال :-

أنا لا استحق الشكر والثناء لأنني خدمتكم بحكم الواجب المفروض
 للضيوف على المضيف . قال ذلك بمرارة وألم لأنه قضى على آماله وأحلامه
 بنفسه وأضاع الفرصة التي واثته بالنصر الأكيد والنجاح التام بتسريعه
 وعدم تربيته وذلك عندما حسب ان عامر بهم يقتل أحد أصحابه الذين لم
 يحضروا مجلسه في ذلك القبو . ولهذا خاف العاقبة ونظير من المصير . ولما
 اظهر له الواقع عكس ما كان يتصور أو يتوقع انقلب على نفسه بالالامة
 والتقرير ثم استأنف حديثه وقال :-

لم أتصور انك تروم قتل صاحبك أو (خادمك) ولكنني تصورت
 انك ترد الصاع صاعين لمن فاجأك من الاشقياء الذين يملأون هذه
 الوديان ، وقد دخل الدير حينما رأى الباب الخارجى مفتوحاً فدخل قصد
 الاجرام . وقد حلت بينكما كي لا تدنس أرض الدير المقدسة بدمه ،
 ولا كفيك شره عندما أجره الى خارج الدير فأصفي الحساب معه . ولكن
 الحمد لله على حسن العاقبة والمنقلب والحمد لله ثانية على خلاص جرير من
 فتكك به وأنت في سورة الغضب وثورة العاطفة . ثم التفت الى جرير
 بطمشه ويهدئه بابتسامة خبيثة صفراء ضمنها كل معاني التحريض ولا سيما حينما
 حرك زاوية فم اليسرى وأردفها بغمرة بأعلا وجنته كانت سبباً في تحريك
 جفن عينه اليسرى بتلك الحركة الخفيفة التي يريد من ورائها ان يتقاضى

جرير عن ذنب سيده الجسيم بما يستحق من الحساب العسير .

فأظهر جرير للشيخ ما يسمه ويرضيه حيناً رد على اشارته بهزة خفيفة خفية برأسه، اشارة الرضا ودليل فهم الغرض والمقصد الذي يريده الشيخ ويتوخاه منه . فقد عرف اللغة التي يجب أن يكلم بها ذلك الشيخ بعد أن اتبع حركاته وسكناته وفهم أهدافه السيئة ومراميه الدنيئة . لذلك فإن الشيخ قد اقتنع بموافقة جرير على آرائه واعماله التي تستهدف التنكيل بعامر ، وايقن انه سيكونه واصحابه مشقة القتل وعناء التفكير فيه وسيقضي على سيده في هذه الليلة فقد أمسى موتوراً جريح الكرامة .

وبيناهم كذلك إذ سمعوا طرقاً قوياً على الباب الخارجي ، فأمرع الشيخ يستطلع الأمر ليتحقق من هوية الطارق ومقصده بمثل هذا الوقت الذي يتعذر السير فيه ولا سيما في هذه الارض .

وقد انتهز جرير فرصة انشغال الشيخ وابتعاده عنها فقال لعامر بصوت خافت غير مسموع : -

كن على حذر الليلة ولا تنم فإن نمنا فستكون نومتنا أبدية . فالسلامة بالحذر والتحفظ .

- وما حاجتنا الى الحذر والتحفظ والسهر ونحن في محل الأمان والطمأنينة قال عامر ذلك متعمداً ليزداد معرفة من جرير فيستدرجه الى معرفة السبب الذي جعله يتحداه فيضربه .

- لقد اطلعت على كل شيء في هذه القلعة المنعزلة ، وفهمت سبب بنائها في هذا المحل الخفيف ودواعي سكنها واعمارها بعد أن توصلت الى معرفة أهداف سكنها .

- وهل غير الشيخ بشر يسكن هذا الدير ؟

- لم يكن هذا دبراً خاصاً بالشيخ . وإنما قلعة يأوى إليها قطاع الطرق
واللصوص ، ليتصيدوا الناس فيسلبوهم أموالهم واسلابهم . وما ذلك الشيخ
بأهاب متبتل منقطع الى ربه بالعبادة لكنه رئيس السفاكين وزعيم اللصوص
الذين يسكنون القلعة الآن .

فرد عامر عليه يريد استدراجه الى الدواعي والاسباب التي دعتة الى
ضربه فقال :-

اني لأجدك اليوم قد انحرفت بتفكيرك ، ونصرفاتك ، وقولك عن
جادة الحق فابتعدت عن الاتزان والعقل . هل اصابك مس من الجنون ؟
أم حطمت اعصابك رعدة الخوف والفرع أثناء تغفلنا في الصحاري
المقفرة ، واجتيازنا الحزون المريرة ، وسلوكنا المسالك الضيقة المخيفة ،
وصمودنا الجبال العالية الخطرة ؟ أم نعمت التظاهر بالجنون لتثنيني عن
عزمي ، وتحول دون تنفيذ خطتي وتحقيق مهمتي . لخوفك وفرعك من
أن يصيبنا أذى أو يلم بنا مكروه . فان كانت غايتك هذه فارجع يا جبر
إلى اهلك راشداً مهدياً لا لوم عليك ولا تئيب .

- لم اكن كما تتصورني يا سيدي ، إذ لم يمسنى خبل أو جنون ، أو
يصيبنى ضجر أو ملل من مصاحبتك . وقد وهبتك حياتي وأنا الآن
ضعيفتك . ولاجل ان تطرد الشك والريب من مخيلتك ارجو ان تسمح
لي بأن اطلعك على الاشياء التي شاهدتها وسمعتها بقلمي ، حينما كنت
مدفوعاً بدافع الشك وعدم الاطمئنان .

- تكلم واوجز .

فقص له جبرير جميع ما شاهده وسمعه في تلك القلعة ثم اردف وقال :-
ومصدق قولي ما استراه الآن من أمر الشيخ الذي خف الى صديقيه ،
وقد تزيا بزي فارسين ، قصداً الدير للراحة والاستجمام . قال ذلك

وسكت حينما سمع وقع اقدام الضيفين والشيخ . وما ان رأها عامر حتى ظهرت على وجهه علائم الرضا والقبول والتصديق بكلام جرير . لكنه قد تغير وتبدل حينما رأى الشيخ يتقدم الفارسين . فزع وجزع . لكن جرير طمأنه وهدأه بنظرة خاطفة . ولم تمض فترة وجيزة حتى بدأوا الحديث ، وقد اظهر كل الارتياح من بعضهم البعض . ثم نهض الشيخ وهم بالخروج ولما اعترضوه قال : -

اظنكم بحاجة ماسة الى النوم الآن ولذلك فاني سأغادركم . وقبل ان يغادروا التفت الى الفارسين فرمقها بنظرة خاطفة عبر بها عما اتفقوا وايها ، ولما أحس بمراقبة جرير لحركاته وسكناته انتحل لنفسه عذراً يستتر به تلك النظرة وقال : -

لا شك ان ضيفينا الجديدين بحاجة الى الطعام والشراب : فرد عليه احدهما وقال لا يا سيدي ولـكننا بحاجة الى النوم فقط ولما خرج واغلق الباب اختطف المفتاح أحد الفارسين .

- ١٣ -

اضطجع القوم كل في مرقدته ، فنام جرير وعامر في فراش واحد كما نام الفارسان في فراش واحد كذلك فتسنى لكل منهما التشاور والتآمر فالانفاق على تنفيذ الخطة في وقت معين . وقد استفاد عامر وصاحبه من بعدهما عن الفارسين إذ تمكنوا من رسم الخطة التي تدفع عنها الخطر الذي اصبح عنهما قاب قوسين أو أدنى . فاتفقا على وضع الرجلين بالاغلال في منتصف الليل ليتمكنوا من الفرار تحت جنح الظلام . هذا ما اقترحه جرير فرد عليه عامر وقال :

وكيف تقدر على الفرار والمفتاح عندهما ؟

— نأخذه .

— وكيف نأخذه ؟

— تتظاهر بالمفص الشديد فنطلب المفتاح منها كي نخرج لقضاء حاجتك ، فيرجبان بذلك لينقضا علي وبأخذاني اسيراً دون كلفة أو جهد ، لأنني وجيد بين قوتين متكاتفتين متحدثتين . اما أنت فأفتح الباب وتظاهر بالخروج علي ان ترجع متخفياً وتقف علي مسافة قصيرة منها دون ان يشمرا بك وحينما نحس بأنهما علي وشك الهجوم علي فبادر اقربهم اليك بضربة قوية علي رأسه . فاعمل انا بالآخر كعملك ثم يكبل كل منا قريسته بعد ان يجرده من سلاحه ويحول دونه ودون الصباح والاستنجاد بوضع السكام في فمه فنتركهما كذلك ونخرج متسترين بالظلام .

ولم يكذب يفتي جرير من كلامه حتى نهض عامر وقام بتشغيل الدور الذي اسند له بخذافيه ، وما هي إلا فترة وجيزة حتى اصبحت الفكرة حقيقة واقعة ، حينما جنم كل من عامر وجرير علي صدر خصمه يكبله بعد ان افقده الوعي والادراك من عظم الصدمة التي تلقاها . وخرج عامر وجرير وركبا جواديهما ولاذا بالفرار يسابقان الريح وهما لا يلتفتان ولا يوليان علي شيء .

وما ان تنفس الصبح حتى كانا قد قطعا من الأرض مالا يتصوره المرء لو عورتها وصمة رقعتها وفي كل سيرهما هذا كانا قد اتخذنا الحذر الشديد والحيلة واستعدنا لاطوارىء والمفاجآت خاصة وقد كانا يتوقعان ان يلحق بهما أهل القلعة لذلك واصلا سيرهما الليل بالنهار دون ان يركنا الى الراحة إلا في فترات بسيرة لا خوفاً منهم ولكن تحاشياً من وقوع الشر

الذي لا يناسب نفسيتهما وطبعهما . فاستمرا على مواصلة السير في تلك
المقاوِز الخفيفة التي لم يعمرها إلا ما هو ضاري مغترب ، وبين تلك الوديان
السحيقة البعيدة الغور . سارا أياماً ولياليًا أنسبها مشاق الطريق واتعبه
عددها ومقدارها . فقدروها بثلاثين يوماً بضمنها فترات الاستراحة
والاستجمام القصيرة الأمد . لأنهما لم يلتفتا الى الوقت الذي قضياه في
سيرهما إلا بعد أن عذت لهما على البعد ، ابراج عالية ، وأبنية مرهقة
فوق تل متوسط الارتفاع . ولما واصلتا سيرهما أصبحا على بعد قريب من
تلك المربيات التي تراءت لهما من ذلك البعد الشاسع ، فتمكنوا من مشاهدة
مدينة عامرة تطل على سهول فسيحة خصبة ، وكثبان من الرمل متنقلة
رغم كبتها ومقدارها وذلك بفعل الأعاصير والعواصف .

وقبل ان يدخلوا المدينة من الباب الغربي لذلك السور الذي بني لمقاومة
عبث البشر الطامعين في مختلف الأزمنة والمصور . سأل عامر أحد المارة
بلغة القوم المتداولة عن اسم هذه المدينة . فأجابه الشخص بأنها تدعى
« ازرنج »^(١) أكبر مدن « سيجستان » . وأول مدينة في هذه الاصقاع
احتضنت المسيحية وحدثت عليها .

فالتفت عامر الى جرير ، وعلاهم الفرح والابتهاج بادية عليه وقال :-
الحمد لله الذي هدانا الى ضالتنا ، وواصلنا الى بغيتنا رغم تشعب الطريق
واختلاف المسالك . ألا ترى يا جرير اننا قد توصلنا الى المدينة التي كنا
قد شدنا رحلتنا اليها !

- أجل انه رؤوف بعباده الصالحين . ثم التفت عامر الى الرجل فوجده

(١) المدينة القديمة لا الحديثة ابن حوقل ج ١ ص ٢٤

لما يزل على وقفته يتسمع اليها ليستطلع خبرها ويستجلي أمرها . فارتاد
أن يستفيد منه فقال له : -

هل تعرف أين يكون الدير الذي يقيم فيه الأب « تاريس » ؟
ولم يكذب يسمع الرجل ذلك حتى قال لها : -
اتبعاني بسرعة .

فسار وسارا خلفه حتى اخترق بهما المدينة من الغرب الى أقصى
الشرق فوصل الرجل وعامر وجريز خلفه الى الدير . وبعد أن طرق الباب
فتح ودخله على مريض من أهل الدير الذين ارتابوا في أمرهما لأنها
غريبة . أما الرجل فقد غادرهما قبل ان يفتح باب الدير .

فشعر عامر بقلق القوم . لذلك أراد أن يزيل الشك منهم ويدفع الريب
عنهم فسألهم عن الأب « تاريس » . فقيل له انه في عزلة المهودة . ولما
طلب منهم مواهبته والدخول عليه ، أبوا عليه ذلك لتخوفهم منه .
ولاجل أن يطرد عامر الشك من قلوبهم ، أخبرهم بأنه وصاحبه موفدان
من الغرب اليه ، من قبل رئيس « الكنيسة الخضراء ^(١) » بتكرير صاحب
كرسي المشرق « المفريان ماروثا » وهما يحملان بعض الهدايا والارشادات
التي طلبها الاب « تاريس » من المفريان ، عندما كان بأمس الحاجة اليها .
ولم يلبث ان اخرج الكتاب المعنون باسم الأب « تاريس » . والمرسل من
قبل المفريان ، وناوله لأحد الحاضرين ، ثم كلفه بإيصاله الى الأب .
فلاستئذان لها بالمواجهة لمشاورته في أمر على جانب عظيم من الأهمية .

(١) يقول ابن حوقل : - ان الكنيسة الخضراء مبنية من الجص والطابوق
والحصا ، وهي مركز السلطة الروحية . أما القلعة فكانت مركز السلطة وبها عدة
دور عظيمة .

ولم ينتظر عامر إلا قليلاً حتى خرج من الغرفة المقابلة شيخ طويل القامة حاسر الرأس أبيض الشعر مسترسل اللحية بارز عظام الوجنتين ضامر البطن رقيق القوام ، يتجلبب بجلباب أصفر يسترسل الى تحت ركبتيه . فتقدم اليها هاشاً باشاً مرحباً فكان لقاءه يعبر عن الاخوة الحقة والحب الصادق . غسكلمها بالسريانية (اللغة المسيحية الرسمية في ذلك الزمن) ثم قادها الى غرفته فجلسا واستقرا في مجلسها بعد أن مرت فترة من السكون قضاهما الأب في تلاوة رسالة المقيان . وعندما أتى في قراءته على آخرها التفت اليها فجدد سلامه ونحياته وغمرها بموجة من المجاملات الحسنة والتلطف والتبسط . وكأنه قد عرف منزلة عامر الاجتماعية من رسالة المقيان . وفي فترة سكوت قصيرة انتهى أمدها بانتفاض الأب (تاريس) تلك الانتفاضة الفجائية . صفق بعدها مرتين ، فحضر أحد الخدم على الفور وقال : -

أظن أبانا بحاجة يشرفني بقضائها ؟

- أجل يا بني . ارجو أن تحضر الطعام للضيفين السكرمين بكل ما اوتيت من السرعة . وما هي إلا ساعة حتى احضر الطعام في أطباق نحاسية واسعة . فالتفت الاب الى من رآه من الخدم وقال

ليحضر كل من في الدير من الاخوان كي يشاركونا الاكل . ثم التفت الى عامر وقال : -

أرجو أن يسمح لي ولدي عامر بهذا ، لاني قد تعودت مشاركة جميع من في الدير على اختلاف رتبهم ومنازلهم والاكل معهم على مائدة واحدة لا فرق عندي بين واحد وآخر فالكل سواء ، لعدم اعترافي بما يقر به الناس ويعترفون من وجود الحواجز بين فاس دون آخرين . تلك الحواجز هي حواجز الانفضلية بالرتب والمنازل والالقاب ، التي خلقتها

المادة وتبنيها الفطرية فربتها الأناثية وحب الذات ، واكملت فضيلتها
ونحوها الأغراض والمقاصد الشخصية التي ترمي الى التحكم في رقاب العباد
والتصرف بأموالهم وحرياتهم . ويا ليت انها القاب ورتب وأفضليات تقال
عن كثافة ومقدرة وجدارة ليتم بواسطتها الصلاح التام والسعادة
الدائمة . ولكنها جوفاء خرقاء . يتوصل اليها المضللون المدجلون بغير
جدارة تذكر أو عمل مثمر .

ولهذا فاني أجلس وخدم الدير ورهبانه وقسمه على طبق واحد دون
حياء أو تعفف لا بدافع المداينة والدجل والرياء والتفضيل بل بدافع
الانسانية المجردة من الاوشاب والأدران والبراقع والحواجز والاستار
تلك الروح التي تجمل من المرء شخصاً يلتأم والانسانية في الميل والشعور ،
ليشارك واياهم في عمل واحد بمحقق غاية واحدة تعود بالخير والسعادة
على المؤازرين المناصرين ومن ثم تعم المجتمع الانساني باكمله فقاطعه
عامر وقال : -

هذا دليل على شدة تمسكك بالدين وتعلقك بالفضيلة التي اجتبتك
وسمت بك ، وهذا هو البرهان الناصع والعمل الواضح على ما عند المؤمنين
من الشعور ، الذي يوحد الميول والاهداف ، رغم الاختلاف بالعنصر
أو التباين في الزمان والمكان . فعملك هذا هو كل ما نصبو اليه نفسي ،
وتتوق له بالرغم من تربيتي الارستقراطية التي تتطلب مني تقاليداً ان
اتقيد بنظمها الواهية وقوانينها البالية .

ثم استأنف « تاريس » اجتماعه بعامر وجريير في غرفة الخلوة . وذلك
بعد الانتهاء من تناول الطعام وحديث المائدة ؟

بدأ عامر يخاطب « تاريس » ويقول :-

ان ماروثا مطلع على أمرك تمام الاطلاع . فحملك مستودع سره ،
ومن ير كن اليهم وقت الشدائد والمهبات . لذلك كلفني بانجاز مهمتي هذه
بمساعدتك ومؤازرتك واستشارتك ، قبل البدء بالعمل . فهل كانت بينكما
معرفة سابقة ؟

- فتم : كانت بيننا معرفة وصداقة متينة العرى والاواصر ، من عهد
بعيد ، يوم كنت والمقران تلتقي العلوم والفلسفة في دير « مارزكي » على
يد الرمان « فاودور » فكنت وياه على أحسن ما يكون من الصفاء والمودة
والوثام ، يوم كانت الشعور الموحد والمشارك تجاه ما نراه ونحسه ، أو
ندركه يوحد قلوبنا ويؤلف بينهما ، وقد ازدادت تعلقاً به ووثوقاً
بصداقته ، لافكاره السامية واعماله المشرقة وتصرفاته الحسنة . لكن
المهمة التي كرسنا حياتنا من أجلها قد فرقتنا فابعدتنا عن بعضنا ، يوم
دعته كنيسة « الرها » فكنت رفيقه في سفرته ولكن الواجب قد
دعاني اثره عند الرمان « توما الضرير » فارجع الى دير « مارزكي » فلم
امكث فيه بعد غياب « ماروثا » إلا ثلاثاً . وقد غادرته على اثر انتخابي
لهذا المنصب .

- لذلك فانه يفتي عليك ، ويشيد باخلاقك وصفاتك . وقد كلفني
بمشاورتك بالامر الذي جئت به قبل البدء فيه .
- عهدي بماروثا انه قد وهب نفسه لله ، وكرس حياته للدين ، وضحى

براحته في سبيل مبدئه وعقيدته ، فمزز قواه وركز جهوده لاعلاء كلمة الله في كل مكان .

- وهذا هو الدافع الرئيسي الذي دفعه فافدني الى هذه الاقاليم التي يكاد بصيص الدين فيها يخبو وينطفئ . . نخوفاً من ضياع جهود اصدقائه أمثالك من أن تذروها رياح السكفر العاصفة ، أو تحتاجها أمواج الظلم الثائرة . هب لنصرةكم وانتفض لمساعدةكم بعد ما انجز مهمته في ديارنا والمحلات المجاورة لها . . .

فقاطعه الأب « تاريس » وقال :-

ان الجهود التي بذلناها هنا كافية لرد كيد السكائدين من المشركين الضالين .

- حقاً ما تقول أيها الأب الجليل . فجهودكم قد ثبتت أسس الدين وعززت بنيانه حينما قوت أركانه وأعمده . أما نحن فنتخوف من النساطرة الذين بدأوا يضايقوننا نحن اليعاقبة في كل مكان . فيثيرون الفتن المتكررة ضدنا وضد مذهبنا . وأنت تعلم ان تعاليمهم لا تلتأم والدين الحق الذي نورنا به السيد المسيح ، لأنهم انحرفوا عن الطريق السوي ، وزاغوا عن جادة الحق والصواب . قالوا هم أهواء أكمرة الفرس الذين اتخذوا من المذهب النسطوري واسطة ، بل مطية للوصول الى اهدافهم الخاصة ، التي تجعلهم يتحكمون في رقاب الشعوب ، فيبتزون أموالهم وخيراتهم . وقد تم لهم ما ارادوا ، وتوصلوا الى ما كانت تصبو اليه قوسهم وتثوق له . فباتت حال عذر نشر الدين وتمزيقه وترويج غزوا البلاد ، وحاربوا الامم . فقتلوا المعارضين الذين تصدوا لهم بعد ما عرفوا أغراضهم ، وأطلعوا على اهدافهم وغاياتهم .

وقد شعرنا بالخطر النسطوري وبالأحرى خطر ظلم الأكاسرة يتهددكم ويحيق بكم . فقررنا تلافى الأمر قبل حدوث السكارنة ، واتخاذ الجيطة والحذر قبل ان يقضى على جوهر الحرية وماهية السمادة التي جاء بها الدين . . .

فرد عليه « تاريس » وقال :-

نعم يا ولدي ، فأني قد احسست بهذا الخطر منذ أمد بعيد ، عند ما بدأت طلائع الغزو الصامت في بلادنا قبل سنة ، وذلك ان المبشرين بالنسطورية كانوا يتجولون في البلاد بزي التجار الغربيين . فيدسون السم بالعسل . وكثيراً ما كانوا يدخلون بعض تعاليم النسطورية اثناء ثناءهم على مبادئ اليعاقبة وكثيراً ما كانوا يشيدون بكرم اخلاق الأكاسرة ببعض الروايات الملفقة والقصص المختلفة عند ما كانت الفرص تسنح لهم . فكنت امنع الناس من الاتصال بهم والاستماع الى اقوالهم كي لا تتسمم افكارهم . ولسكن القوم سفسفاً يؤمنون يستميلون الناس بتطليلهم وتزويرهم أولاً وبتهديدهم باسم الأكاسرة وبقوة السلطان ثانياً . لأنهم حسبنا كانوا يفهمون الناس ، انهم يعملون من أجل الملوك والامراء . فقاطعه عامر وقال :-

لدي من كتب « مارونا » ما يسخف أقوالهم ، ويرد كيدهم الى نحورهم إذا ما عمانا على ترويح ما فيها من الآراء ، والتعاليم بين الناس . فلنبداً بها الآن فن الضروري ان تطلع عليها .

ثم التفت الى جرير فاذا بالنعاس يداعب اجفانه ، من جراء السكوت والاصغاء فقال له :-

يظهر انك بحاجة الى النوم يا جرير ؟

- أجل يا مولاي .

- لسكني أرجوك أن توافينا بالسكتب والرفوق التي زودتنا بها « ماروئا » ليطلع عليها الاب « تاريس » كي نسير على ضوء آرائه وافتراحاته ، التي لا يمكن الاستغناء عنها .

فقاطعه تاريس وقال :-

أشكر لك حسن ظنك بي ، كما اقدر فيك تضحيتك واهتمامك في الدين ، عند ما تقعمت وجرب الأهوال والمخاطر في سفرنا . كما . ولا سيما وقد سلكنا الطرق الملتوية الخطرة .

- لم نسلك تلك الطرق أو نتغلغل في تلك الصحارى والمضايق ، إلا توفيراً للوقت في الوصول ، وتجنباً من الاخطار . ورغم ذلك فأتنا قد تعرضنا للاخطار الجسام التي كنا نتحاشاها . ولكن حكمة جرب ورجاحة عقله قد امتزجتا واتحدتا بشجاعته فكانت سبباً لنجاتنا من الهلاك المحقق والدمار الاكيد .

- وكيف ذلك يا ولدي ؟

ولما قص عامر قصة سفره مع جرب . عجب تاريس ، وعقد نجاتها معجزة خارقة فحمد الله على سلامتها ، وحفظها من كيد الكائدين المتربصين للابرياء في المفاوز والطرق طمعاً في اسلابهم ومؤونتهم . ثم اتجه الى عامر وقال :-

فلو سلكنا الطريق المعهودة لتعرضنا الى اخطار اعظم وأجسم ، ولصادفتنا أعداء ألد وأقوى . لأنهم يقصدونكم بالذات ، ومهمتهم تنتهي بالقضاء عليكم ليحولوا دونكم ودون ما تبغيان .

فاجعل مامر . وانتفض كمن أفاق من سبات عميق بعد الوخر المؤلم أو
الصوت العالي المزعج . ثم قال :-

لماذا يقصدوننا بالذات مع اننا لم نجن على احد . ولم يعلم بسرنا بشئ
في هذه الاقاليم ليحول دوننا ودون تحقيق أهدافنا التي نصطدم بمصالحهم
الخاصة . فنعمل على تقويض صروح طغيانهم وجبروتهم . فهمتنا أيها
الأب لما نزل في طبي السكتات ، وصرأ مخفياً عن الناس ، عدا بعض
الشخصيات التي حضرت الاجتماع بالكنيسة . وعم من عليه القوم
وأعيانهم .

- ليس الامر كما نظن وتمتد . فالقضية قد تطورت كثيراً وقطعت
مراحلها الاولى وهي في طريقها الى مرحلتها الاخيرة الحاسمة . فالسر قد
فشى وانتشر وعلم به القاصي والداني من اعدائنا واصدقائنا . فالذي نشره
وفشاء هو احد من حضر اجتماعكم في الكنيسة وتمكن من ان يغمر
مقرراتكم التي تتوقون بواسطتها الى نوال أمانكم وغاياتكم . لذلك
خف الينا فأعلم النساطرة بامرك . وزاد في تحريضهم عليك . لذلك بثوا
عيونهم وجواسيسهم وفرسانهم في الطرق والمصحات كي يتصدوا لكم
فيحولوا دون وصولكم كما رلو أدى الامر الى قتلكم .

ولا أظنهم قد انتهوا من البحث عليك أو ينتهوا بعد . وسنحول
دونهم كما حال الله دونك فذاك ورعاك برعايته انت وجريرك . ولم أقصد
بكلامي هذا افزاعك او اراعتك . وانما اريد تنبيهك وايقاظك لتأخذ
للامر حيلته وعدته كي لا يأخذوك على حين غرة . فخرصي عليك وعلى
اداء رسالتك ومهمتك في هذه الاقاليم هو الباعث الأساسي . لأنني وأيم
الحق بعز علي ان ينالك ما يضرك أو يفيضك ، كما بعز علي أن أرى

الدين بهان ، والمذهب اليعقوبي نهتك حرمة ، وتذل عزته ، وتطأاً
 ليحط النساطرة كرامته . أولئك الذين لما يدخل الابنان في قلوبهم بعد ،
 فحرارة نار المجوسية قد اضرمت قلوبهم فعزلتها عن الدين المسيحي الحق .
 وأظنك لا تجهل النساطرة « السريان الشرقيين » اتباع « نسطوريوس »
 صاحب الكنيسة التي لم يعترف بها الرومان . وقد كان بطريقاً للقسطنطينية
 في بعض أيامه . وقد مات في منفاه سنة ٤٥٠ م ، فأتباعه يقولون :-
 « إن المسيح طبيعتين متميزتين : الطبيعة اللاهوتية ، والطبيعة
 الناسوتية » ، بخلاف قولنا إذ نقول : « ان الله والأنسان قد اتحدا في
 طبيعة واحدة هي (المسيح) » .

وقد دخلت عليهم آراء أخرى وتعاليم منافية لما عندنا من الآراء
 والمعتقدات لأنها وليدة التساهل والتساع مع المجوسية الصلبة التي اندست
 في صلب مذهبهم عند ما جازوا ملوك الساسانيين المتمسكين ببعض
 تعاليم المجوسية رغم تنصرهم . فالنساطرة هم انصار المجوسية المسبوكة في
 قالب جديد لم يغير منه إلا المظهر الخارجي .
 فرد عليه عامر وقال :-

وبناء على ما فهمنا من هذه المعلومات التي ذكرتها عن النساطرة .
 قررنا تعميم تعاليم مذهبنا « اليعقوبي » في هذه الربوع التي لا تزال
 متأثرة بتعاليم المجوسية دون ملل أو ضجر أو خوف . بالرغم من جهودكم
 الجبارة ، ومثابرتكم على محارم المعصية ، وتضحياتكم الغزيرة ، مع مقاومتكم
 العنيفة ، بالاضافة من انكم غرباء الديار ، مخالفين المذهب والعقيدة ، حسب
 عرفهم وعاداتهم .

وسنوحّد جهودنا ، وتقوي عزماتنا ، فنوجهها مشتركة الى ما فيه

الاصلاح فالصلاح ، دون ان نلتفت الى ما يحدث أو نسمع الى ما يقال ، بل نواصل العمل ، ونستمر في القول ، لننهي مهمتنا على أتم وجوه السكال .

- شكراً يا ولدي ، على هذا الايمان الراسخ ، والعزيمة الثابتة ، وعلى تحمسك للعمل الذي من شأنه ان يدعم الدين المسيحي بدعائم قوة الحق . وقد أرجع اليك فأذكرك بان لا تنسى الحبيطة والحذر ثم التريث والتدبر قبل البدء بالعمل ، واثناء الاستمرار فيه . فلا تغفل عن كيد السكاكين الذين يتربصون لك بصورة خاصة ولمذهبننا ومناصريه بصورة عامة ، ولا يدفعنك دم الشباب الحار الى المهالك والمسكاره ، أو يسوقك الى مهاوي الدمار . فذلك ما يعرقل مساعيها ، ويقصينا عن غايتها ، بل ويفقدنيها . فبسلامتك ادراك الهدف وتحقيق الغاية . فاحرص على حياتك حرصك على دينك وعقيدتك . لأنك لم تخلق لنفسك وشخصك ، وتظن ان حياتك لا تنهم غيرك . بل انك خلقت لمبدئك وعقيدتك أيضاً . واعلم يا عامر انك ستجني الجنابة التي لا تغتفر ، وترتكب الخيانة الكبرى ان انت اقحمت نفسك في المهالك وزجيتها في المآزق . لأننا بامس الحاجة اليك لتحقيق أهداف الدين ، وتقوي اركانه ودعائمه ، بمقدرتك العلمية ، وبما زودك به ماروثا من التعاليم والارشادات .

فسمكت الأب « تاريس » برهة كأنه يريد استئشاف حديثه أو السماح لعامر بابداء رأيه في الموضوع ، ليطلع على مدى تأثير كلامه في نفس عامر . فرد عليه عامر وقال :-

لا نفس أيها الأب الجليل حاجتنا الى التوضيحية ، وافتقارنا للاقدام ، لنكمل أعمالنا بالنجاح الذي نحن بامس الحاجة اليه ، فها صغرت قيمة

العمل أو كبرت ، فإنه لا يتم ولا يثمر الا بالاقدام ، والاستمرار عليه
 بلجد المتواصل والاجتهاد الدائم بالاضافة الى التعاون والتآزر مع
 الاصدقاء الذين ائتمنتهم بعد ان خبرتهم وعرفتهم بانهم اكفاء للنضال
 والجهاد في سبيل المبدأ ، والدين أو العقيدة .

أما الاقدام على العمل والدخول فيه بدون تدبير ، أو ترور وتفكير ،
 فلا يعتبر تضحية أو اقداماً أو شجاعة ، وانما هو ضرب من ضروب
 التهور ، أو سورة جنونية وقتية ، تعترى المرء العاجز الذي يحفز جميع
 اعصابه وقواه لمجاهدة أمر يحسبه نفسه غير كفء له . لانه يعتبره من
 الجسامة والخطورة بمكان . فتراه لا يقوم عليه إلا بعد ان يفقد أماله من
 الحياة التي اجتباها فاجبها وهام بهواها .

فانحن من أولئك ولا من هؤلاء أيها الاب المحترم . فستراني لا
 اقدم على عمل لا يرضيك ، أو يرضي ضميري وضمير الانسانية .
 رسأ كون طوع أمرك . اعمل بموجب ايعازاتك وارشاداتك ، واسير
 على ضوء افكارك التي تلتئم وتتفق وتعاليم مارونا ، فنجاحي منوط
 بمساعدتك ومؤازرتك .

- حسناً تقول يا بني ، ولا تحسبن ان سأتركك وشأنك في هذه البلاد
 التي لم يكن لك عهد فيها أو معرفة سابقة ، واسكني سأكون خير مساعد ،
 وأحسن نصير ولو اقتضى ذلك أبلغ التضحيات وأجسم الخسائر واقدمها
 لانك والحق يقال خير من عرف نفسه وقدرها ، لذلك استحققت
 الاعجاب والتقدير ، وأحسن رسول من ابلى رجال الدين واكثرهم اطلاعا
 وتضلماً فيه ، واني لأرجو لك فوزاً كبيراً ، ونصراً وتوفيقاً .

وقبل ان اختم قولي أرجوك أن تطلعي على تعاليم مارونا وكتبه التي

جئت بها من عنده . لا وحد قولي وغايي وحجتي وهدي ، هولاك
وغايتك وحجتك وهذلك .

- لك الحق بذلك .

فالتفت عامر الى جرير فوجده قد اعد كل ما كانا يحملانه في سفرهما
من الكتب والرقوق ، وراه يميل الى اليمين والشمال تارة ، وإلى الامام
والخلف تارة اخرى بعد ان لعبت طلائع النوم ألاعيها في عضلاته
واعصابه ، فانزعجت منه زمام السيطرة على نفسه ، وبدأت تعبت به
كيفما شاءت .

فاخذها عامر من بين يديه وسلمها الى الأب « تاريس » الذي انكب
هو الآخر على قراءتها ، واستسلم عامر للسلطان الذي استسلم له جرير من
قبل . واخذ النعاس يداعب اجفانه ، والخور يتغلغل في أوصاله فيعبت
بها . لأنه بأمس الحاجة الى طاعة سلطان النوم الذي رأى اللذة الممتعة في
ذاته ومهاتته . لما كابد من آلام وقامى من انعاب .

وقد أحس الأب « تاريس » بهما وتحقق ذلك حينما التفت اليهما
فوجدهما بين اليقظة والنمام . عند ذلك نادى أحد الخدم . وقال له عند
حضوره :-

هي الفراش للضييفين فأنها بحاجة الى النوم .

وقد تيقظ كل من عامر وجرير على صوت الاب . ثم سارا خلف
الخدام الذي قادهما الى مخدع النوم . فاضطجع كل على سريره . وراحا
يغطان في نوم عميق .

انشغل « تاريس » بدراسة الكتب والرسائل فبدأ بأعادة قراءة الرسالة
الخصوصية من المغيران اليه ، وقد دعاه داعي الذكرى الى محافل الماضي
البعيد . فلباه دون وعي أو ادراك ، وانقاد له انقياد المطيع ، ليتجول في
حقول الصبا ومراتم الطفولة ، ومسارح الشباب . الى أن وقف به امام
مناهل العلم ، ومنايل المعرفة التي ارتشفها من تلك الكنيسة المنظمة بفضل
الاساتذة العالمين امثال « ثاورود » .

ثم بدأ يستعرض صور اصحابه واصدقائه ، فتوقف الشريط فجأة ،
فرأى صورة شاب وديع حسن القوام ، نظيف الملابس والبشرة ، ابيض
الوجه جهوري الصوت .

فهت نفسه الى تلك الصورة ، وتاقت روحه لها لأنها صورة « ماروثا »
فترك الرسالة وعكف على الكتب يقرأها ، ولمس مما قرأه افسكاراً وآراء ،
تلتئم وافكاره وتمزج وأهداف الدين الحقيقية .

وفي اثناء ذلك سمع قرع الباب الخارجي بمنف وشدة ، وبعد فترة
قصيرة دخل عليه أحد خدام الدير ، فأخبره بأن رئيس النساطرة ورجال
ديره ، يطلبون مقابلتك بصورة خاصة ، لتسمح لهم بمقابلة الضيفين
لهذا كره في بعض الامور ، والاستفسار عن بعض الغوامض والخفيات
بالاسئلة والمذاكرة .

فقال الاب « تاريس » :-

خبر جميع من في الدير بأن يحضروا الى القاعة بلباس الرهبنة مخفين

اسلحتهم تحتها ، ثم يأخذوا عدتهم ويتأهبوا للخطر ، واوصهم بان يكونوا حذرين ، فيندسوا بين القوم ليكونوا على استعداد لخفق طفل الشر الذي تتمخض عنه افكار القوم ونياتهم ، واذا اكملت ذلك فاذهب الى الباب وافتحه لهم .

وبعد ان نفذ الخادم ما أمره به تاريس ، فتح الباب وتلقاهم بالترحيب ، ثم اعتذر لهم بيمض الاسباب التي دعت الى تعطيل فتح الباب ، دخلوا دون تعليق فوجدوا الشيخ « تاريس » بانتظارهم ، فاستقبلهم وتلقاهم بالبشاشة ، والاستقبال والترحيب .

وقبل ان يجلسوا دخل جماعة تاريس بلباس الورع والتقوى التي تخفي تحتها سيوفاً مرهفة أعدت لتلافي الشر والحيلولة دون وقوعه إذا ما سولت للنساطرة نفوسهم به ، وعند ما لاحظ تاريس تغفل أصحابه بين النساطرة وجلسهم حسب وصيته ارتاح واطمان .

وقد مل ميلوس من فترة السكوت وضجر ، ولذلك قال موجهاً كلامه الى تاريس :-

قد نجد الغرابة ويأخذك العجب من زيارتنا المفاجئة رغم البرودة والاختلاف بيننا . فظهر تاريس عدم الاهتمام والمبالاة وقال :-

لا غرابة ولا عجب من هذه الزيارة التي كنت اترقبها قبل موعدها ، لا لتكن الزيارة الاولى والاخيرة ، بل الفاتحة للتفاهم ، ليشد بعضنا ازر بعض في مكافحة الشرك ومحاربة الباطل عند توحيد الصفوف ولم الشمل وجمع الشمل ، لأننا مهما اختلفنا في العمل ، أو تفرقنا في السبل ، نهدف الى غاية واحدة لنحقق أمنية واحدة هي اعلاء كلمة الله ، وبث مبدأ العدالة والمساواة بين هؤلاء القوم الذين اكتشفهم الجبل فانهمكم الظلم .

فقاطمه ميلوس وقال :-

إن الامر كما تقول وتعني ، ولـكننا قد اسأنا التصرف باتباع تعاليم
فطاحل العلماء والمرشدين أمثال (نسطوربوس) ، (اوطيخي) ، (يعقوب
البرادعي) ، لأننا عند نهجنا هذه الطريقة قد اختلفنا عن بعضنا وانقسمنا
على انفسنا حتى عسر علينا التفاهم فالاتفاق والتعاون ، قال الامر الى ما
هو عليه الآن . واني متأكد تمام التأكد اننا معها اختلفنا في العقيدة
والمذهب نهدي الى غاية واحدة وهي مناصرة الدين وذلك بتعميمه على
البشرية لتـكون المودة وبحصل الاخاء الذي بواسطته صلاح البشرية
وتطهيرها من الادران والاشواب . ورغبة في تحقيق الفكرة وتوجيه
المسلك أتيتك ابها الأخ نستأذنك في مقابلة ضيفيك الذين قدما من بلاد
الغرب قصد التبشير في اليمقوية .

- انك تعلم ما لا اعلم أنا وتدرك أموراً لا تزال مكنونة ومكتومة
ان كان لها نصيب من الصحة .

- اني واثق بصحتها ومتأكد منها ، فقد استقيت هذه المعلومات ممن
حضر مجلس القوم في (الكنيسة الخضراء) بتكريت حينما قرروا ايفاد
الرجل وصاحبه الى ديارنا مبشرين بالمذهب المذكور وقد اخبرني اليوم
بمجيئهم فزادني يقيناً ، لذلك أتيتك ألتبس منك الاذن في النقاش معها
لأطلع على اهدافها ومراميها .

- وما يهمك من اهدافها ومراميها ؟ هب ان ما عندهما من الافكار
والتعاليم تخالف ما عندك فما هو مقدورك عليهما وهما في حمايتي وتحت
رعايتي .

غفوا أيها الاخ لم اقصد اهافتها أو التعرض لها بسوء بل أريد فهم

ساميتها وغايتها ، لأني أوجس خيفة من أن يدسا تعاليم اديان وثنية باسم المسيحية وبحجة مناصرة المذهب اليعقوبي المغلوب على أمره في هذه الديار ، وأنا في زمن كثرت فيه الدعايات الفارغة الجوفاء التي جاءت نتيجة للسكت الذي أصاب القوم من جراء انتشار الدين المسيحي بين طبقة الاشراف والنبلاء والملوك ، وقد لا تحمد عواقب السكت لأنها تزيد في قوة عاطفة التمرد وتساعد على تنافر الرعية بعضهم من بعض فيزداد العداء بين الرعية وحاكبيها من ملوك ونبلاء وقادة . فقاطعه تاريس بعد أن سئم من كلامه وضجر ، وقال :-

أراك تنقض أقوالك بأقوالك وتسكذب نفسك بنفسك وتغالطها .
فإن كنت تتعمد اهانتنا دون أن تلتفت الى حرمة المحل وقديسيتة او تراعي شعورنا ، لا شك أنك قادم الى توسيع شقة الخلاف بيننا وسوف لا تقف مكتوفي الايدي تجاه من يتعدانا ويتحدى عقيدتنا ومذهبنا دون أن يعيرنا اي اهتمام ، تقول أنك متأكد من صحة خبر بحيثتها لغاية التبشير ، ثم تقول (اني أوجس خيفة منها من أن يدسا تعاليم اديان وثنية) ، فما هذا التبليبل في الرأي وما هذا الخلط والخلط ، ولسكنك قد أعمدت ذلك لفنك بأن كل المذاهب المسيحية تسمم الافكار ببعض التعاليم من الاديان الوثنية كما هو واضح عندكم انتم النساطرة ، عند ما نشرتم عقيدتكم بين الملوك والنبلاء من الفرس ، فانقادتم اليهم في بعض ما طبعت عليه نفوسهم من تعاليم المجوسية والزرادشتية مقابل ترويج مذهبكم بينهم ، وجعلتم بقايا تعاليم دينك الدين من صلب مذهبكم ، ارضاء لهم ، فسمعتم الدين وطعنتم المذهب بما هو باطل مخالف ، لانكم لم تعتنوا الدين بعد الدراسة الحقة والتفكير الصحيح . ولم تقدموا عليه بدافع الرغبة المجردة من

الاغراض الدينية والكنيسة كنكم أردنوه مطية توصلكم الى جلب ود الطبقة الحاكمة من الملوك والقادة لتزفوا على غيركم وتنفخوا كما هو شأنكم الآن .

فمجب « ميلوس » من هذا الكلام ، وتلك الحدة ، وذلك التطاول ، فهبت في نفسه ثورة الغضب ، كأنها الاعصار المفاجيء ، والتفت الى جماعته ، فزاد غضبه ، وتضاعفت حدته ، حينما رأى مبعثرين بين رجال اليعاقبة ، وايقن انه مغلوب على امره رغم احكام الخطة التي كان يهدف من ورائها ، أخذ الضيفين وما عندهما من الكتب بالقوة والقصر ، اذا ما عجزوا من دحض حجتها ، وتسخيف قولها ورأيها .

فكمتم شعوره ، وكظم غيظه . حينما احس بتحيز اليعاقبة لمجابهة الشرور والاعتداء ، ثم اظهر البشر وانثنى على الاب « تاريس » يرت على كتفيه ، ليخفف عنه حدة غضبه بابتساماته الصفراء ، وضحكاته المصطنعة ، وقال :-

لم أقصد بقولي اهانتمكم او ازعاجكم ، او اهدف الى اي شيء آخر ، لاني لم اكن من المتبجحين بالنفوذ ، المتمشدين بالقول فاعرض لكم واحط من كرامتكم وقدركم . ولاكنني ابتغى مواجهة الضيفين فقط ، فان كان طلبي يزججك او يضايك ، فلا حاجة لنا بذلك ، ففايتي القصوى هي التقام التام ، ليمسنى لنا الاتفاق فالتعاون .

فلم ير الاب تاريس بدأ من السكوت والهدوء ثم الركون الى ما يوعزه العقل ويمليه عليه التفكير الصحيح ، وبعد ان تبدأ الليل العاطفة المضلة هدأ بعد حدة وسكن بعد غضب ، ورضخ اثر نقور ، وقال لخادمه :-

أذهب الى الضيفين واستدعهما للحضور ، اذا كانا يقظين ، أو اتركهما في نومهما اذا لم يكونا كذلك .

ولما اقترب الخادم من الغرفة ، سار على اطراف اصابعه ، وفتح الباب بهدوء وبطء وحذر ، ولما دخل وجدهما يقظين يتذاكران ويتناقشان الرأي بشأن الخروج وحينما أدى لهما التحية ، اخبرهما بقول الاب « تاريس » .

وبعد فترة قصيرة ارتدى خلالها كل من عامر وجيرير ملابسهما . سارا خلف الخادم فادخلهما القاعة ، وعند ذلك وقف اليعاقبة اجلالاً لهما فتمتعهم جماعة النساطرة بذلك ، فجلس عامر على كرسي معد له قرب الاب « تاريس » وجلس جيرير على كرسي آخر خلفه ، ثم التفت تاريس اليهما وقال :-

لقد ازعجناكم وتناولنا عليكم ، دون ان نراعي حق الضيف أو نلتفت الى حرمة ، ولسكن الضرورة ألجأتنا ، وذلك ان اخواننا النساطرة ، قد شرفونا بزيارتهم للمرة الاولى برئاسة الاب « ميلوس » للاتصال بك بصورة خاصة ، قال ذلك والتفت الى عامر ثم اشار اليه بيده ، ثم استأنف حديثه وقال :- ليدخلوا معك في مناقشة ومناظرة واستفسار واسئلة ، قد تؤدي الى غلبة أحد الطرفين فيملي الغالب شروطه ومطالبه على المغلوب ، حسبما ترأيه نفسه ويقبله وجدانه أو يقر به ضميره .

فاول الشروط وآخرها فيما اذا غلبت على امرك واثبت عجزك لضعف حجتك أو قلة درايتك ووهن عقيدتك مع سخافة مذهبك ، هو ان نمنع من التبشير في المذهب اليعقوبي هنا وترجع على الفور من حيث اتيت . أما إذا اظهر القوم عجزهم أمام حججك الدامغة ، وأقوالك المعقولة ،

وآرائك السديدة ، فلك الحق بالتبشير في سائر الاقاليم دون ان يتعرض لك الانسان ، وللقوم حريتهم في تصديقك او تكذيبك .

فانبرى الاب ميلوس وقال :-

بلغني انك يا ولدي قادم الينا في مهمة التبشير بالمذهب اليعقوبي الذي قد يتعارض مع بعض تعاليم النسطورية ، لذلك خفيت اليك لانا قشك رأيك قبل البدء في مهمتك على الشروط التي قالها الاب « تاريس » .
فهل لديك استعداد لذلك ؟

- ان معنى التبشير هو تحبيب الفكرة المجهولة الى من جهلها ، ولم يطلع عليها من قبل ، ولا يشترط في هذه الفكرة ان تكون حسنة مقبولة أو قبيحة معجوجة منبوذة ، لان قبولها ونسبها يتوقفان على الذوق ، ومدى التفكير فيها ، وقد تكون الفكرة المجهولة غير صالحة ولا ملائمة لاحد غير المبشرين بها ومناصريه ، عند ذلك يعبد الى اخفاء تلك الحقائق تحت الزخرفة والبهجة الناتجة عن ألوان منطقته ، وعذوبة لفظه وقوة حجته ليقدمها بالصورة التي يستسيغها الذوق ويقبلها العقل . وفي هذه الحالة تكون العاقبة وخيمة على المضلل الذي بدل الحقائق ، فالزركشة والبهجة تزول من فوق ذلك الجسم اللطيف اذا ما تعرض الى ضوء الحقيقة والواقع .

ولذلك فاني لا أحبذ التبشير الذي يكون من هذا القبيل ، فهمتي ايها الاب تختلف عما تظن ، لاني لم اقصد دياركم الا لانبرها بنفس المشعل الذي اثار لنا السبل فهدانا الى خيرها واكثرها راحة وطمانينة واماناً ، تلك الطرق هي التي تصل بسالكها الى حقول السعادة ومرامع الحياة الهنيئة والعيش الرغيد .

فصلاً حقاً هو الباعث الاساسي الى اصلاح غيرنا ، رغم ما فلاقينه من المخاطر وفصاده من المهالك . . .

فقاطعه الاب « ميلوس » وقال :-

تدعي انك جئت الينا بمشعل الهداية لتهدي السادرين في ظلمات الجهل والضلال ، الى سبيل المعرفة والحق ، تلك السبيل المؤدية الى السعادة الدائمة والحياة الرغيدة ، التي يكتنفها البشر ويكللها الوهم ، لأنك تجهل ان ديارنا قد نورها مشعل الهداية قبل قدومك اليها .

- لم أجعل ذلك وانا على علم من أمركم ، ولكن المشاعل تختلف في نورها وتباين في ضوءها وقوته وامتداده ومصدره ، فمن المشاعل ما يستمد نوره من زيت صاف نقي ، لا تنبعث منه الا الرائحة الطيبة عند الاشتعال والوقود ويشع نوره الى مسافات شاسعة ، ومنها ما يستمد نوره من زيت خبيث فيملأ الجو بالروائح السكرية فيكون مدى نوره محدوداً ، ودرجة ضوءه ضعيفة فلا يفي بالغرض ، بل يبلبل الفكر كما يشوه النظر ليعرقل السير على حمله والذين خلقه فيزداد اصطدامهم بالصخور وترديهم في المهوي والخفر .

فمشعل الهداية الذي بيدي لا يختلف عن مشعلكم بالزيت ، وانما في الضوء وقوته وانتشاره في الاجواء ، وتغلغله الى الزوايا وامتداده الى المسافات البعيدة وتداخله بمختلف الطبقات ومتنوع الاصناف ان كان هنالك طبقات واصناف .

فقاطعه « ميلوس » ايضاً وقال :-

لما كانت مشاعلنا لا تختلف عن بعضها في المادة المولدة للنور ، أي لا تختلف في الزيت ولا في الآنية الحاوية له ، فما سبب قوة ضوء مشعلكم

وضالة ضوء مشعلنا ، وعدم مقدرة مادته الضوئية من التغلغل في الفضاء
أو شق حجب الظلام للوصول الى المسافات البعيدة ، ليهتدي اكبر عدد
ممكن من الناس الى طرق الصلاح المؤدية الى السعادة .

- لاننا قبسنا نور مشعلنا من نور الهداية الحقيقي ومصباحه الحق
أما انتم فلم يكن نوركم الا من مصابيح مشابهة للنور الحقيقي الذي من
شأنه ان يهدي الناس الى طرق الصلاح والفضيلة ، بعد ان ينقذهم من
العمى في الجبهالات والضلالات .

- وما دليلك على قولك هذا ؟ وكيف عرفت باننا لم نأخذ نور الهداية
من النور الحقيقي الذي شع في ارض فلسطين ؟ وكيف تبرهن على انكم
اخذتموه من المصباح الرئيسي ؟

- ان من الامور المعترف بصحتها ، والمسلم بها ، هي ان الدين
المسيحي قد قام في فلسطين ثم انتشر الى الاقطار المجاورة ، ولا سيما
الاقطار الشرقية . فكانت مدينة « الرها » أول مدينة رحبت به ،
وضمته ضمة المشتاق وهو في عهد طفولته ويفوعه ، فربته وورعته ، الى
ان صار عريقاً عتيقاً كما نلاحظه الآن .

- اذا سلطنا بقولك الذي لا نعترف بصحته ، أو نفر به ، لما لدينا من
البراهين الكافية على اثباته خالياً من الصعقة ، مجرداً عن الحقيقة . أقول
اذا سلطنا حسب قولك بأنه أول ما انتشر في مدينة الرها . فاهي العلاقة
بينك وبين الرها ؟ وكيف يتسنى لك أن تدعي بأنك قد اخذت الدين من
منبعه الحقيقي ، رغم كونك من مدينة نائية بعيدة عن تلك المدينة التي
لا تتصل معكم بأية صلة أو رابطة من الروابط المقربة ، واذا كانت الحقيقة

كما تذكر وتدعي ، فانا بالمهداية أحق . لاني من اقليم حذيب المجاور لاقليم الرها .

- اما العلاقة بيني وبين تلك المدينة التي تحسبها نائية عنا ، بعيدة منا ، فهي قوية متينة وذلك لأن رئيس كنيستنا المدعو « ماروثا » قد أخذ علمه من كنيسة الرها والرقه حينما قضى ردها من الزمن هناك ، وعاد اليها بتعاليم الدين الحقيقي التي اقتبسها من خيرة المعلمين المتبحرين ، اما أنا فاني من تلامذة كنيسة الرها ، كذلك ان مدينة الرها هي أول مدينة شرقية احتضنت الدين فنشأته . فلدي من البراهين الكافية لاقناعك واثبات هذه الحقيقة .

فرد عليه الاب « ميلوس » وقال : - لا داعي لذلك . فانا لا اعترف بغير الاقليم الذي تبنى المسيحية ، فرباها ورعاها وعمل على تفلحها بين طبقات المجتمع الشرقي ، كما رباني أنا الآخر لاني من مدينة « اربل » عاصمة اقليم « حذيب » المشهورة بصلاته الودية المتينة بفلسطين ينبوع الديانات السماوية منذ القدم .

فابتسم عامر ابتسامة السخر والاستهزاء والتهمك ، وقاطع ميلوس قائلاً : ان ما قدمته من المعلومات وما ادليت به من الادلة والبراهين غير كاف بأن تفخر علينا فتسخرقوا لنا ، وتغصط حقوقنا ، رغم صغر القطرة التي استقيتها من منبع الدين . فقد عجزت من ان تسند قولك الى سجلات الحقائق التي تبرزها عند الطلب . او ترشد الشاك بواسطتها فيزال شكك وتذهب زيبه . كما بينت لك ايها الأب الوقور . ولكن لكثرة الروايات المشكوك في صحتها ، انحرفت عقيدتكم وزاغت افكاركم عن طريق الحق الذي عبده المسيح ، وما الذنب أو الجنابة ذنبك أو جنايتك . وانما هي

جناية السلف الذي بدّل وحوّر وصاير وتساهل وما ذلك التبديل والتحوير
والمسايرة إلا من عدم فهم جوهر الدين ومعرفة ماهيته ، او من عدم
تفلفه في القلوب . وبعبارة اقصر من عدم الايمان الحقيقي .

وقد ظهرت على (ميلوس) علائم الغضب والانزعاج . فبدأ يتحرك
في مجلسه بدون ارادته وهب كأنه الاعصار وبدأ يتكلم بصوت مرتجف
مرتفع مشبع بالخشونة خال من اللطف واللين وقال : -

أرانا لا تتعرض إلا الى الايام السالفة والسنين الماضية التي لا توافق
الرجل المجد حين يكرس حياته للعمل فيموذ نفعه على الانسانية بما هو
حسن صالح . فذكرنا الاجداد وتمشدقنا باقوالهم واسهبنا بذكر اعمالهم
في كل وقت وحين ، لا كبر دليل على الاعتراف بمعجزنا وضعفنا وعدم
مقدرتنا من مجابهة الحقائق وجهاً لوجه . لانتا اذا جابها الحقيقة السافرة
سرعان ما نرتد ونحجم املأ في الراحة فيكتنفنا القشل الذريع فلنترك
الماضي مسطراً في سجلات التواريخ ونفتح صفحة جديدة لسجل فيها
مناقشاتنا ومناضلاتنا فنضيفها الى تلك السجلات كي نعرف أي المذهبين
أحق وأينا اقدر على اثبات حقائق مذهبه تلك الحقائق التي اخذت من
(يسوع) دون تحريف أو تبديل .

فقاطعه عامر بهدوء رغم تحمس اليعاقبة وغضب النساطرة من تلك
المشادة العنيفة والمناقشة الحادة . ثم قال : -

ارجو ان يفتح لنا الاب الوقور الباب الذي يرغب ولوجه الى ساحة
المنازرة الحققة والجدال الصحيح .

فتملأ ميلوس ورقص ذقنه بعد ان جال ببصره في سقف القاعة كمن
يبحث عن شيء ثم التفت الى عامر . بعد ان اهتدى الى السؤال التالي : -

ماذا تقولون في السيد المسيح ؟ وما رأيكم في ذاته ؟
 وقبل ان يجيب عامر على هذا السؤال خف الخدم الى الباب الخارجي
 على أثر القرع الشديد ولما رجع أحدهم قال : -
 رسول حاكم المدينة في الباب
 فقاطعه تاريس قائلاً : -

وماذا يريد ؟

- أرسله سيده في استدعاء جميع من في الدير من اليعاقبة والنساطرة
 والضيغين دون ان يتخلف أحد عن ذلك . ثم اتجه تاريس الى ميلوس
 وعامر والنفس منها الرأي فأشارا عليه بتمثيل الامر وقاما على الفور .

- ١٦ -

وحينما رأى عامر علائم الفزع والخوف بادية على وجه الاب تاريس
 وامارات القلق والاضطراب ظاهرة في حركاته ومشيته عندما كانوا
 يقصدون قصر حاكم سجستان . سار بجانبه فسأله عما يحالجه من الوسوس
 والافسكار وما هي دواعي قلقه واضطرابه . أجابه الأب تاريس وقال : -
 اننا متجهون الى رجل مسيحي الدين نسطوري المذهب ، قلق
 الافسكار ، متبلبل العقيدة والايمان ، لانه لا يزال في الدور الميثاقين بقي
 من المعلومات ، أي دور الشك الذي يتعرض له كل انسان ، فينجو منه
 من تقدم بالسن والثقافة ، فيهدأ ويستقر ، بعد أن يؤمن بما اوحاه له العقل
 الناضج أثر التفكير الصحيح . ولذلك فاني اوجس منه خيفة لا على نفسي
 فقط وانما على الدين من الضياع ، وعليك من التكنيل ، لانه شخص
 عاطفي شاذ .

فأدام الأمر كذلك فاني سأعتمد الى اخراج بذور الشك من قلبه
لادخل الايمان الثابت اليه . فشكه هذا ناتج من عدم اقتناعه بتماليم
مذهبه . فهو كالغريق في لجج الاضاليل يتشبث بكل غثاء تمر به ليجد
لنفسه عوناً ومنقذاً ينتشله من غرقه . واكبر دليل على ذلك هو هذا
الاستدعاء .

فالتفت تاريس الى عامر وقال :

قد وصلنا قصر الحاكم فهي نفسك يا عامر .

ولما ولجوا القصر من الباب الخارجي ، قادم الحرس الى قاعة كبرى
عمولة بالمقاعد الوثيرة ، أمامها دكة من خشب الابنوس ترتفع بمقدار
ذراع عن الارض . فوقها كرامي مرصوفة حول كرسي عال وثير مرصع
بالاحجار السكرية ، يستقر على اربعة اسود من الذهب حجم القائمة
الواحدة بحجم القط المتوسط .

ولما جلسوا خرج اليهم من الباب السري رجل قصير القامة مقتول
السواعد متوسط العمر عليه طيلسان احمر تلمع تحته اللآلئ والدراري ،
وعلى رأسه قلنسوة طويلة تتدلى منها اربعة سلاسل من الذهب ، وخلفه
حاشيته . فنهض رجال الدين احتفاءً به ولما أشار اليهم بالجلوس جلسوا
وهم ينظرون اليه منتظرين كلامه . فلم يطل الحاكم انتظارهم فقال :

نقل الي ان بعض رجال كنيسة المشرق بتكرت قدم الينا للتبشير .
وقد حل ضيفاً عند الاب تاريس ، نخف اليه ميلوس ورجاله لناظرته
ومناقشته ، لمعرفة وجهة نظره والاطلاع على آماله (او طبعه) مؤسس
المذهب اليعقوبي . ولما كان الامر يهمني بصورة خاصة رغم ما تتوق نفسي
الى الاستماع لحواركم بهذا الشأن ، فقد أحببت مشاركتكم للاطلاع والفهم

ولمعرفة أي المذهبين أقرب إلى الحقيقة والواقع ، فارجو الاستمرار -
 بالنقاش أو استئنافه ان كنتم قد تناقشتم من قبل .
 فقال الأب ميلوس : -

تناقشنا بشئ بسيط بعيد عن غايتنا . فقال هو وقلت أنا ولم نتفق
 على ما قال أو قلت . لأن البحث كان يدور حول قضايا تاريخية ، موضوعها
 أينأ أخذ الدين من منبعه الحقيقي ؟ فكل منا قدم براهينه على انه وجماعته
 قد أخذوا تعاليمهم من أقرب الناس إلى السيد المسيح دون ان يطرأ
 عليها أي تبديل أو تحوير من جراء النقل والاخذ . فقاطعه الحاكم وقال
 لتاريس : -

أي الحجتين كانتا أقوى ؟ وأي الدليلين أقرب إلى الصحة والصواب ؟
 ارجو الاجابة ايها الأب دون تحيز او انحراف بتيار العاطفة .
 فرد الأب تاريس بهدوء ورزانة وقال : -

سمعت القولين من الشخصين كما سمع بقية زملاء والاخوان ، بالرغم
 من اطلاعي على الامر ، ومعرفتي بالبحث قبل ذلك . وقد سمعت كما سمع
 غيري ، من عامر البراهين الناصعة والحجج الدامغة على صحة أقواله .
 بالوقت الذي لم نسمع من ميلوس أي برهان أو دليل على صحة ما يقول
 ويدعي .

فالتفت الحاكم إليهم بعد ان اقتنع بسخف قول الاب « ميلوس » حين
 شرحوا له النقاش الذي دار بينهما ، وقال : -
 ارجو أن تستأنفوا نقاشكم الآن : -

فقال (ميلوس) وهو يحرق الارم من الغيظ الذي دأبه من جراء
 حكم الحاكم لعامر . والحكم على أقوال الضيف المبشر بالصحة والسداد : -

اني قد سألت عامراً أن يوضح لي رأيه ورأي جماعته اليعاقبة في السيد « المسيح » وذاته .

فرد عليه الحاكم وقال :-

عامر يسمع قولك ، فإن كان عنده جواب ، فليقدمه . ولا تحسباني وحاشيتي إلا من المستمعين المحايدين الذين يتلهفون الى الحقائق .

وقد تفاهل عامر من هذه الجلسة ولا سيما حينما سمع أقوال الحاكم التي استشف منها ميوله ومقدار علمه ودرجة ذوقه وحسه . فأنجبه بكلامه صوب ميلوس وقال :-

إني إذ أجيبك على سؤالك هذا ، لا أجيبك بما ترتأيه نفسي ويوحيه لي عقلي فقط وإنما هي تعاليم « اوطيغني » آمنت بها وصدقته أنا وغيري ممن سمع بها واطلع عليها فأقول :-

ان السيد المسيح هو ثمرة اتحاد الله بالإنسان .

فقال ميلوس :-

وكيف تم هذا الاتحاد مع اختلاف الطبيعتين وتباين النوعين ؟

- وكيف اختلفت الطبيعتين ، وتباين النوعين ايها الاب ؟ أليس

المخلوق من صنع الله وخلقته ؟

- أجل .

- فإذا كان الامر كذلك ، فلا بد أنه حوى بعض الجهود التي بذلها

الله في سبيل إيجاده « المسيح » .

- لا . ان الله لم يصرف أي جهد في خلق كائناته ، أو إيجاد مخلوقاته

ولكنه يوجد بها بمجرد ان يقول للشيء العديم الحياة والاشيء كونا .

فيوجد الحياة بهذا وبمنح الوجودية للاشيء .

- حسناً تقول ، فالإنسان وجميع الكائنات ، ما هي إلا وليدة فكرة عرضت لله والفكرة نتيجة التفكير ، والتفكير يستغرق وقتاً ، ويستغرق جهداً . ولم تعرض الفكرة إلا بعد الحاجة . وما حاجة الله الى مخلوقاته إلا ليظهر جلال اعماله عند من يُقدّر عظمتها من خلقه فلا غرابة إذن من اتحاد الله بالإنسان الذي هو بعضه ، لايجاد المسيح نفسه ، كي يقول كلمة الله لخلقه ، فيكون خير برهان على معجزة الامتزاج والاختلاط . فقاطعه ميلوس وقال : -

اني لا أرى رأيك ، ولا اقر به ، لان للسيد المسيح طبيعتين متميزتين هما : - الطبيعة اللاهوتية والطبيعة الناسوتية^(١) . فاللاهوتية هي التي تتمثل بالمسيح عند تلقي الاوامر الربانية ، واستقبال الوحي ، أو عند اظهار المعجزات وحمل الخوارق التي اختص بها فينزهته عن غيره . والطبيعة الناسوتية هي التي يتمثل بها وهو بين قومه واصحابه . ولن يتسنى لهاتين الطبيعتين الانسجام ، لتتافرها من بعضهما .

فرد عليه عامر وقال :

اذا كان الامر كذلك فما ينبغي للسيد المسيح أن يبلغ الناس بدعوته . إذ ليس باستطاعته ان يؤدي رسالته كاملة ، ويقوم بخوارقه ومعجزاته . لأنه اذا قام بتلك الخوارق والمعجزات يحتاج الى الطبيعة اللاهوتية التي لا تتكيف بالنسبة ومفاهيم الناس ولغاتهم وعقولهم . وكيف تتكيف وهي طبيعة لاهوتية منزهة عما عند البشر من الطبائع الناسوتية .

فأنك قد برهنت على صحة قولتي بنفسك . على ان اتحاد الطبيعتين

(١) الناسوتية : الطبيعة الانسانية ، بمعنى الناس مضاف اليها وءت مثل ملكوت : فجر الاسلام ، الأدب المرباني

وامتزاجهما عند السيد المسيح هو الباعث على إيجاد هذه الشريعة التي جاء بها والطريق الذي سلكه ، بعد ان طلب من حداة قافلة الحياة السير ومقتضياته . فيصلوا الى الصلاح والسعادة . فرد عليه ميلوس وقال : -

أنا لا انكر امتزاج الطبيعتين . ولكن امتزاج الزيت بالماء . فكل من الزيت والماء يعضهما انا . واحد يحفظهما بصورة منفصلة غير متفاعلة بعضها ببعض لتكوين مادة جديدة .

- لا أيها الاب الجليل . ان الطبيعتين عترجتين مع بعضها متداخلتين ، لتكون طبيعة واحدة جديدة ، تحتوي على الطبيعتين . فامتزاجهما كامتزاج الماء بالحر . ولذلك كانت ذات المسيح ذاتاً ملهمة ملتأمة والصلحاء من الناس الذين يصرم الاصلاح ويفرحهم الخير .

فصاح الحاكم وهو في موضعه وقال : -

قول معقول ورأي سديد . اني موثق من صحة كلام عامر ، ومصديق به لأنه يتفق والحقيقة ويلتأم والواقع .

فاربذ وجه ميلوس وتغيرت ملامحه ، بعد ان انقل انفعالاً شديداً من جراء تصريح الحاكم . فالتفت عامر الى اخوانه اليعاقبة ووجدهم في فرح تلوح علائم البشر على وجوههم الضاحكة المستبشرة ، وفرح هو الآخر . وقد زاده هذا التصريح عزيمته ومعنوية اللضاء والاقدام على تحقيق غايته ونوال امنيته المنشودة فتفاهل بالنجاح التام . وقبل ان يصحو ميلوس من عظم الصدمة التي تلقاها من الحاكم . سأله عامر وقال : هل يسمح لي الاب ميلوس فأسأله .

فرقم الاب رأسه بيظه والتفت الى عامر عندما زوى عينه اليسرى واحكم طبق شفقيه . فحكادت كلمة « سل » تستعصي عليه أو تحبس في فيه

لولا التآمر المجلس وحذره من ان ينهم بالمعجز والوهن أو ينمت بالجهل .
فقال عامر :-

ما قولك في الحشر ؟

- الحشر حقيقة منتظرة نص عليها الدين وذكرها يسوع .
- وهل يكون الحشر للابدان فقط أم للارواح أو للابدان والارواح
معاً ؟

- الحشر للارواح فقط ، لأن الروح شيء قدسي معنوي ، لا يرى
ولا يحدد ، أو يدرك بالحواس ، لأنه من الله ، وحينما خلق الله الاجسام ،
ادخل بعض مادته لتبعث الحياة في ذلك الجسم ، ودلائل الحياة فيها :
الحس والشعور والنمو ، أما إذا بلى الجسد أي ضعفت الروابط بين ذراته
وجزيئاته ، فإن الروح يلحق بيارثه أو اصله ، ليتلقى عقابه ، فيما اذا
ترك الجسم الذي كان فيه ، بعمه في طفيلاته ويسدر في جهالاته وغوايته
فعمله يكون حسبما تعلمه عليه العاطفة ، لأن الروح نفسي واجبه فوهن
وضعف أمام طفل العاطفة الذي نمته المادة حتى صار شهاباً قوياً يعجز
الروح عن صده أو رده ، والروح الذي وقف موقف الرادع الحكيم
بصرف الجسم كيفما شاء وانى اراد ، فيوجه الانجاء المناسب ومقتضيات
الحياة الصالحة ، فانه سيمحظى بالنعيم الدائم والجنة التي يخلد فيها .
فرد عليه عامر وقال :-

إذا كان الأمر كذلك والحشر لا يكون إلا للارواح ، فاهو مصير
الاجسام ؟

- مصيرها الفناء ، والتخلص من الهيكل الذي كانت عليه .

- وإذا انحلت مادة الاجسام وتبدلت هيكلها ، فما هي نقيضتها

ومصيرها ؟

- الزوال التام والالعدم الحقيقي .

ولم يكذب يقف ميلوس عند ذلك حتى ضرب الحاكم المنضدة التي امامه ضربات متقطعة استرعت التفات القوم فأصفاهم ثم اعقبها قائلاً :-

اني غير موقف ولا معترف بكلام الاب « ميلوس » رغم احترامي لشخصه وافكاره وآرائه . والآن وقد تاهت عنا الحقيقة ونحن في حزون الشك فأرجو من عامر ان لا يدعنا كذلك ، بل ينورنا بآرائه ، علنا نجد فيها ما يهدي الى سواء السبيل فينقذنا من حزون شركنا وقفاره .
- لك السمع والطاعة ، لم نطلب إلا ما هو بسيط ميسور ، وهاك

رأيي :-

الحشر يا مولاي للجسم والروح ، لأنها بمنزجين تمام الامتزاج ومناسكين مع بعضهما فمأسكاً حقيقياً لا أثر لأحدهما بدون الآخر ولا وجود .

فالروح جوهر الجسم وماهيته ، فاذا جردنا الجسم من الجوهر والماهية فانتا لا نحظى بأحدهما في الحالة التي نبتغيها ونريدها ، فنحصر وجودهما كما هو الآن وعند حشرهما بعد فقد بعض ظواهرهما اثناء الموت هو « الحركة النسيجية » التي بواسطتها يتم التقارب وينفجج المتنافران ، فيتحد المختلفان بصورة مألوفة مناسبة ومقتضيات الطبيعة التي نعيش فيها أو البيئة التي نحل عندها .

فالروح هو أس الجسم ، والجسم هو مجموع الأسس ، فان هددت حركة الجسم أو ضعفت فسببت لمادته الانحلال والتبدل ، فما ذلك الا

لأجل ان تسكين في وضعية جديدة أخرى لتستعيد بواسطتها حركتها ،
عند ما تجدد نشاطها كما هو الحال اثناء النوم .

فالمهوك القوى من جراء أتمابه يشمر بضعف وخور . وبالأحرى
الانحلال وعدم تماسك في جزئيات جسمه ، فيعجز عن الانبات بيمض
الحركات ولا يقدر ، لانه يشمر بحاجة ملحة الى استعادة ما فقدته من
الجهد بعد الاجهاد في حركة اجزائه فيستسلم لسلطان السكرى وينام ،
ثم يصحو وهو في قوة جديدة ، ونشاط متقد بعد ان نقض عن كاهله
غبار التعب والفضى ، فتتضاعف حركة جزئيات جسمه لتضاعف الجهود ،
وتزيد التماسك بين الجزئيات وهذا التماسك بدرأ عنها مختلف الاخطار
والاضرار ، لأنها متحدة متعاونة متماسكة ، لا متنافرة متناثرة مجزأة .

فان كانت رقدة الاجسام لاستعادة حركاتها ونشاطها ثانية في محل
مريح بعيد عن احداث الطبيعة وتقلبات الجو ، استيقظ بكامل القوى
المطلوبة لمسكافة الاحداث ، فتغمره السعادة والغبطة ، عندما تسكتنفه
الطمأنينة ويحفظه السلام من جراء ما يحس به من النشاط والقدرة على
الحركة اثر التماسك التام .

أما اذا نهأت للجسم الراقد من جراء الانحلال ، الاحداث الطبيعية
التي لا تساعد على تجديد النشاط ومضاعفة القوى ، فإنه يستيقظ وظل
النوم والنعاس الذي يمثل له خيال الماضي لما يبارحه بعد ، لانه يحس في
جزئياته الخمول من جراء التباعد وعدم الانسجام ، لضعف الجاذبية
لترابط ، فيظل غير مستقر أو مرتاح ، رغم تبدله وتحوله من حالته
القديمة الى حالته الجديدة ، ولذلك فالشقاء يلزمه ويؤاخيهِ .

فقاطعه الحاكم وقال :-

اني لأستشف من وراء قولك هذا ينبوعاً من الحكمة غزيراً ومنهلاً
من العلم لا ينضب ، فثلك من يوفد لهذه المهام الجسيمة ، فبوركت
وبورك مسلك . ثم التفت الى الاب « ميلوس » فرآه يحرق الارم من
الغيظ وقال له :-

ما رأيك يا أبانا في قول عامر ؟

فرفع الاب رأسه بحنق وقال بانزعاج :-

ليس لدي رأي .

- وهل لديك اعتراض أو رد على قول عامر لتكذيب زعمه ودحض
ادعائه واعتقاده .

- لم أملك الكلام المعسول أو القول الساحر ، لا تغلب على المشاعر ،
وأسيطر على الاحاسيس كما أثر هو ، فاستمال الناس اليه ، بعد ان جذبوا
رأيه وصدقوا قوله ، واظنني عاجز عن اقناعكم ان المبشر المذكور ما هو
الا سفسطائي مهرج مزج الفلسفة اليونانية بالدين المسيحي ، فشوه
الحقيقتين فأفقداهما طابعهما الخاص بكل واحد منهما ، لكنه قوال محترف
وخطيب مصقع ، قادر على تمويه الحقائق ، وطلبي المشوهات بدهان
خلاب جذاب ، مناسب للأمزجة والاذواق الفجة .

فرد الحاكم عند ما كظم غيظه واخفى غضبه وقال :-

وهل لديك من البراهين الواضحة السكافية للتدليل على صحة ما تدعي

وتقول ؟

- اكتفي بما قلت ولا حاجة للبراهين والادلة .

- ومن امتنع عن اثبات المشكوك في صحته فقد اثبت عجزه . واذا

ثبت عجزك الآن فقد آن وقت انسحابك من المعركة ، مفلوياً مدحوراً .
 - نعم أني قد غلبت على امري في مجتمعي هذا فقط .
 - واظنني سوف لا أكون مغالياً اذا قلت لك : وفي كل المجتمعات
 والاندبة عند المناقشة والمناظرة .

- قد غلبت وبالف ، لاني لم أفشل في اي مجتمع يقدر الحكمة ،
 ويعترف بالعلم ويأتمر بأوامر الله ويرتدع بروادعه ، اما في مثل مجتمعي فلا
 فراية من ان افشل واخرج من المعركة أخرج ذبول الخيبة والفشل .
 - لم تكن الجناية جنائقتنا في فشلك ايها الاب الجليل ، ولكنها
 جنائتكم انتم اهل الدين ، فأنتم الذين زجيتم بنفوسكم في هذا المسلك
 الشريف المبارك بعد ان لاحقتم السلطة وطاردتم التحكم في كل مكان
 فلم تكثرها منها الا بعداً ونأياً وقد حصلتم على غايتكم ووجدتم ضالتكم
 عندما ارتديتم اردية الورع والتقوى ، ونجلبينم بحلابيب القدس والنسك
 غهابكم الناس وخافوكم ثم عظموكم وبجلوكم ، لانكم تسلحتم بأسلحة امضى
 وأرهم من الرمح والسيف ، تسلحتم ضد الناس بكلمات الكفر والاحاد
 ثم التحريم ، فتلصقونها بمن عاديتموه بمن يتحداكم او يتناول على مناقشتكم
 او استمر على شكه وعدم اطمئنانه من جراء عجزكم عن ايصاله الى الحقائق
 الحققة التي يلتبسها الناس عندكم .

وهكذا اعتصمتم بأبراجكم البلورية التي لا تشف الا عن اجسامكم
 المزودة بلباس الورع والتقوى ، فخذعتم الناس بسموكم المصطنع واعتسافكم
 ورهبتكم وسكوتكم ، فاقادوا اليكم ، وخضعوا لكم ، بعد ان ساندتكم
 السلطات ، وأزرتكم الهيئات الحاكمة عند ما غررتم بها فخذعتم رؤساءها
 وزعماءها الذين لم يسبروا غوركم أو يعرفوا ماهيتكم وجوهركم .

وما كاد الاب «ميلوس» يسمع ذلك الكلام من الحاكم حتى استوى واقفاً وخرج من القاعة ، كأنه السهم دون استئذان ، وتبعه بعض زملائه وتابعيه ، وبقي البعض منهم ، اما لحوفهم من الامير وجبنهم أو لخالفه رئيسهم المقصود برأيه وعقيدته .

وما كاد الاب يتوارى عن الانظار ، حتى التفت عامر الى الحاكم وقال :-

لم أقصد دياركم لأفرق بينكم ، أو أوقع العداوة والبغضاء ، والسكنى بحكم الدين ورسوخ احكامه في قلبي ومشاعري ، لم أقصد كما هو شأن كل انسان مواطن الا الى زيادة الروابط ، وتقوية عرى المودة والاخاء بين بعضنا البعض ، لنزداد الانسانية تماسكاً وتمازجاً وتآزراً ، لكي نقدر على درء جميع الاخطار التي تهددنا .

فرد عليه الحاكم وقال :-

لا تظن انك سبب الخلاف الذي حصل ، وانما السبب الاول والاخير هو جهل الاب المذكور بامور الدين وتعاليم المذهب الذي يهدف اليه ، وعدم مقدرته على الاقتناع والهداية .

- عهدي بالامراء والملوك ينقادون الى العلماء والاحبار والفلاسفة ، ليكسبوا ثقتهم وينالوا رضاعهم ، ويتزودوا باحكامهم فيبتدوا بآرائهم .

- ذلك ما تقول . فالملوك والامراء ينقادون للعلماء الذين يعرفون مكائهم ومنزلتهم ، لانهم رجال الله بفضل علمهم ومعرفتهم ودرايتهم ، فيضطر المرء مما علت منزلته في المجتمع ، الى ان ينقاد اليهم ليهتدي بهديهم .

أما من تشبهوا بالعلماء فآخفوا جهلهم تحت اردبتهم القضيضات ولاذوا

بالاعتكاف والاعتزال . بعد ان حرموا النقاش والمناظرة في حضرة تهم ،
ونحاشوا الاسئلة فمروها . فانهم هم الذين ينقادون الى من هم اقل منزلة
من الملوك والامراء ، ليدجلوا ويراءوا ، أو يتعلقوا ويسداهنوا كي
يحظوا بالرضا وينالوا المساندة ، فيتمتعوا بالحياة المناسبة لأهوائهم النفسية
الجماعية ، تلك الاهواء التي لا يقر لها قرار الا برضا الحكام والامراء
بشئ الطرق ، ومختلف الاساليب ، فلو كنت اظن بالاب « ميلوس »
العلم الكافي الذي يستحق عليه التقدير والتعظيم ، لانقاديت اليه طلباً
للاستشارة والتماساً للرأي السديد في الحل والترحال ، ولسكني خبرته
وعرفته فهان في نظري وضأل لأنه مضلل دجال تزيا بزي غيره . وسلك
غير مسلكه وقد كشفت الايام عن ذلك .

أما الاب تاريس رئيس الطائفة اليعقوبية ، فاني كنت عنه بمعزل ،
لاختلاف العقيدة وتباين المذهب واني لا اعرف عنه شيئاً فارجو منه ان
يعذرني عما بدر مني لاني لم اقصده في كلامي هذا .

فتملح الاب تاريس في محله وقاطع الحاكم وقال :-

وبالرغم من ذلك فان شرر الاهانة قد اصابني كذلك وذلك لاني
امثلت امرك فحضرت ومن معي الى مجلسك في قصرك ، ولم امثل امرك
خوفاً منك أو نحاشياً من بطشك وتتكيلك ، وانما خوفاً على عامر
وصديقه من ان ينالا منك مكروهاً ، بعد ان يوغر قلبك وتستفز عواطف
الفتك عندك ، فاكون قد طوحت بعنادي بحياة الضيفين ، وحلت بينهما
وبين هدايتك . فالحمد لله الذي هدانا جميعاً الى ما فيه خيرنا وصلاحنا بعد
تفاهنا وتعارفنا .

فالتفت الحاكم الى جماعة الاب « ميلوس » وقال لهم :-

اظنكم يبقائكم قد شاركتمونا رأينا ، واتفقتم وایانا على تفضيل آراء عامر فترجيحها . فصاح الكل بصوت واحد :-
ولأجل هذا تخلفنا عن صاحبنا .
ثم استأذن الـاب تاريس من الحاكم بالانصراف مع جماعته ، فاذن لهم بعد ان طلب منهم مشاركتة في الغذاء في اليوم القادم .

— ١٧ —

انصرف اليعاقبة الى ديرهم وهم يحفون بتاريس وعامر وجريـر والفرح عملاً صدورهم ويهيج نفوسهم من جراء ما احرزوه من نصر محسوس .
وتحير النساطرة بعد خروجهم ، إذ لم يعرفوا الوجهة التي يتجهون بها ، وبعد برهة وجيزة توجهوا الى ديرهم عندما اتخذوا للامر حيطته ، لانهم كانوا يتوقعون حدوث أمور لا تحمد عقبياها بسبب تخلفهم عن رئيسهم وشقهم عصا الطاعة عليه ، وخذلهم له في وقت الحاجة اليهم ، والى مساندتهم ومؤازرتهم والافتقار الى تضامنهم واتحادهم معه بالرغم من ذلك كله ، فانهم توجهوا الى الدير غير عابئين بما حدث ولا خائفين مما سيحدث ويجري ، لأنهم مضطرين من عدم وجود مأوى لهم غيره ، ولما دخلوا الدير سمعوا لفظاً كثيراً في القاعة الكبرى ، فاقنوا ان الـاب « ميلوس » وجماعته هناك ، وحينما دخلوا القاعة وجدوا القسس والرهبان في اضطراب وقلق عظيمين ، وتقاش ولائمة متصلين ، ولما تفرسوا في الجالسين لم يجدوا الـاب « ميلوس » بين الجالسين فتحدثوا مع احد الجالسين بشدة وخشونة ، وسألهم عن سبب التحديق في الوجوه بهذه الصورة فرد عليه وقال :-

لأننا أفقدنا الأب « ميلوس » من المجلس فرد عليه وقال : -

تريدون بقاء الأب الى الآن . وقد تعرض لاتمس الاهانات من قبل الحاكم ونال اكبر قسط من الخذلان والانشقاق من قبلكم ، ثم يمل نفسه ؟ أبالصعب الذين خانوه وتبرأوا منه ؟ أم بالحاكم الذي أهانه وحط من قدره رغم مدة صحبته معه ؟ لقد ترك الدير ، وهجر البلاد ، وقصد الدائن ليأجأ الى كسرى فيشرح له حاله مع حاكم اقليم « سيجستان » القيم في مدينة « ازرنج » وكيف خذله وإهانته رغم ما يتمتع به من قداسة روحية توجب الاحترام والتعظيم . ويوضح له ما لاقاه منه على أثر نقاشه مع المبشر اليعقوبي الذي غزام في ديارهم فلقي اقبالا حسنا ومساندة حقة عندما ترك مذهبه ونبذ عقيدته .

فرد عليه أحد الاساقفة المتعربين على الأب « ميلوس » وقال : -
وانتم ؟

- لنا مالكم وعلينا ما عليكم .

- وما رأيكم بعامر ومذهبه وعقيدته .

- انه يستحق المهمة الموكلة بهما لأنه عالم نحرير عنده مهارة فائقة في الكلام والمنطق واطلاع كبير بمختلف العلوم . بالاضافة الى تضلعه بالفلسفة وتبحره في الدين . وقد آمنا بقوله واعتقدنا بصحة مذهبه وعقيدته .

فصاح آخر من آخر القاعة وقال : -

ارجو أن تطورا صفحة الماضي ، وتفتحوا صفحة جديدة ، تمكنكم من أن تسطروا جلائل اعمالكم ، وجهودكم عليها ، عندما تقدمون

التضحيات اللازمة والقرايين المطلوبة للسيد المسيح : بدافع الرغبة في الدين لا الرهبة من الغير أو منه . تغير الاعمال ما كان نتيجة رغبة ملحة ، تدفع صاحبها للتضحيات المثمرة . وخير لنا ان نخرج ونزامل مع اخواننا اليمامة على اهداء السادرين في حزن الشك والجهل والضلال ، الى معالم الحقيقة وربوع المعرفة . ليسيروا في قافلة الحياة الى الاهداف السامية والغايات الحسنة التي تعود عليهم بالخير واليمن والسعادة .

وقبل ان يفرق النوم بينهم ، تناولوا ما تيسر لهم من الطعام الخشن الذي اعتادوا عليه . وفي اليوم التالي استأنفوا مشاورتهم ومذاكرتهم فيما بينهم بعدما ادوا ما عليهم من واجبات دينية .

ولم يلبثوا الا قليلاً حتى قدم عليهم رسول الحاكم يستدعيهم الى القصر لتناول طعام الغداء على شرف ضيفي مدينة ازرنج « عامر وجري » فلبوا الدعوة ، وساروا الى قصر الحاكم فاحتفى بهم اليمامة الذين سبقوا في الحضور . ولما جلسوا سأل عامر عن ميلوس فاخبره بعضهم انه ذهب الى مدينة « اربل » محل ولادته وموطن أهله وعشيرته .

ولما تكامل المجلس . قدم عامر بجميع الكتب والرسائل التي زوده بها « ماروثا » الى الأب « تاريس » وقال موجهاً خطابه للحاضرين :-

هذه هي الهدايا النفيسة التي كلفني بها مفران كرسي المشرق بشكرت لا يصالحها اليكم كي تكون المرجع الوحيد لمن أراد فهم تعاليم الدين فهماً جيداً . فسكت ثم استأنف كلامه وقال موجهاً كلامه الى الحاكم : - من الامور التي ادخلت المرور الى قلبي والابتهاج لنفسي هو موقفي هذا بين يديك في الوقت الذي لم اكن اتوقمه أو يخطر ببالي . وذلك من جراء تباين العقائد واختلاف المذهب ، رغم اتحادنا في الغاية ، واتفاقنا في

الهدف . ولكن العاقل الحكيم هو الرجل الذي ينظر الى الامور بمنظار الحقيقة والواقع ، بعد التدبر والتحميم والتريث . ليحظى بالحقيقة السافرة التي لا تحجبها الستور المزخرفة أو تحتويها الثياب الملونة الخلابة . وعند ذلك يركن ذلك المرء الى الطمأنينة والراحة بعد تعب البحث والمنقيب . فيجيب عليه والحالة هذه ان لا يطيل من فترة استراحته أو يستمر على كسله وتقصاه عن القيام بالواجب المحتوم ، ولا يقف امام الحقيقة التي اكتشفها بعد أن أراح الستور والحجب عنها ، وقفة الوثنى أمام وثنه الذي يقدهه ويعبده . بل يجب ان تعقب تلك الراحة موجة عظمى من الجهود الجبارة التي تبذل في سبيل اتقاذ الضالين في مفاوز الشك والضلال ، والتائهين في صحارى الجهل والزيغ . فيهديهم الى ما اهتدى اليه بمساعدة مشعل الهداية الذي يحمله .

وأملى بك ان تكون كذلك لأنك من ذوي العقول الناضجة والمواهب السامية والافكار المنزنة . وأملى بك وبقية الاخوان الجالسين بأن يساهموا بأكبر قسط من الجهود التي تبذل في سبيل تعزيز اركان الدين ، وتدعيم كيانه بالعمل على نشره وترويضه في هذه الديار والديار المجاورة لها ، بالاكثر من بناء الاديرة والكنائس في مختلف الاماكن والمحلات لجعلها مدارس مجانية لمن يقصدها من الراغبين في الدين وبقية العلوم الاخرى . عندما تهيئوا الاكفاء من القسس والاساقفة فقاطعه الحاكم وقال : -

هذا هو رأيي يا عامر . وتلك كانت خطتي . سوف ترى ما سأقوم به من الاعمال التي تعجبك وترضيك .
ثم استوى الأب تاريس واقفاً وقال : -

والآن يجب عليّ أن أقدم كل منكم إلى الآخر . فرد عليه عامر وقال :
قد عرفت الإيمان بعضنا ببعض حينما جمع كلتنا ووجد هدفنا .

فرد عليه تاريس وقال : -

ولكن الحاكم لا يزال يحجل منزلتك الاجتماعية في مجتمعك ويظن أنك
من اتباع الكنيسة البسطاء . وقبل أن يسمح لعامر بالكلام التفت إلى
الحاكم وقال : -

عامر أحد امراء مدينة تكريت ورئيس من رؤسائها البارزين ، تدبّر
له تغلب وهي عشيرته بالامر والطاعة . ولكن حلاوة الإيمان كانت الدافع
الرئيسي بأن يطوح بنفسه ويقحمها المهالك ، ويربها الأهوال ويعرضها
على الاخطار وهو يستحق الشكر والاعجاب والتقدير على هذه الجهود
الجبارة والأعمال الجليلة التي سجلتها له الانسانية في سجل الخلود . ونقشتها
على صخرة الحياة الدائمة .

فصانح كل منها الآخر فأكرم الحاكم وقادة عامر واستبقاه في ضيافته
حينما هفت اليه جوارحه ووقع من قلبه الموقع الممتاز .

ولم تمض على إقامة عامر وجريير في سجنستان مدة ستة شهور حتى كانت
الاديرة والسكنائس مشادة في كل مكان تملأ الأجواء برنين فواقيسها .
ويرشد اساتذتها وربانيها الناس إلى ما فيه صلاحهم وخيرهم بمد فهم الدين
لذلك فرح عامر واستبشر عندما رأى ثمرة جهوده واعماله قد برزت
لوجود بذلك الرواء والجمال . فاقن أن مهمته قد انتهت . وأن له الرجوع
وقد اخبر « تاريس والحاكم » بذلك فوز عليها فراقه وبمده . اسكنها
سلما بالواقع ورضخا للحقيقة . وهكذا أصبح الصباح التالي موعد سفر
عامر وجريير .

سار عامر بصحبة جرير عندما ودعا القوم فرداً فرداً ، ثم خلفا في قلب كل فرد من أهل « ازرنج » حسرة وفي كل عين دموع حائرة تائهة بين الجفنين لم تلبث تلك الدموع ان انحدرت على الحدود حينما توارى عامر وجرير عن العيون الدامعة .

وشاء القدر بل شاءت حسن الصدف بان يصلا تكررت بعد أن سارا عدة أيام دون أن يتعرضا الى أي خطر من الاخطار التي كانا يتوقعا منها في رحلتها فقد غفل عنها القدر ونام الى حين وصولها . تخف المفريان وجميع من في المدينة من وجهاء واعيان وعامة لاستقبالها . لأن خبر رجوعها سبقها . فسارا في وسط ذلك الموكب المهيّب حتى وصلا الى القصر . لأن عامر أبى ان يتوجه الى أي محل كان مالم يأخذ لنفسه بعض الراحة التي هو بأمرس الحاجة اليها . ولذلك انصرف الناس وانفضوا من حولها عندما دخلا القصر .

وبعد أن أشار الى جرير بالانصراف والراحة . دخل باحتفال مهيب من قبل من فيه لا يقل روعة وجلالاً عن ذلك الاحتفال . لأن « سلمى » كانت قد نظمت المحتفلين في القصر . ولما شق طريقه بينهم بعد ان صاحهم سار متجهاً الى الغرفة التي اعتاد الجلوس فيها ، ولم يكد يستقر في جلسته حتى دخلت « سلمى » وهي لا تملك زمام نفسها من جوار فرحها وابتهاجها برجوع حبيب الروح وشريك العقل بل وحبيب القلب وما أن وصلت اليه حتى الفت بنفسها عليه فاحتواها بين ذراعيه وضمها الى صدره بتلفظ واشتياق عظيمين . فاستسلم كل منهما لحبيبه ورضى بأن

يختطف من أفر حبيبه قبلات سريعة رنانة بنهم شديد ثم التصقت الشفاه بالشفاه ، واستسلما لنشوة قبله حارة طويلة ضمناها جبهها وشوقها . ثم أجفل كل منهما من حرارة شفتي الآخر الملتهبة بحرارة الشوق والهيام ، فجلسا متقابلين يجددان التحيات والسلام على استحياء وضجل رغم سخوفة المشق ووقدة الغرام . ثم تمكنت سلمى من استرجاع بعض شجاعها فسألته عن حاله وسفرته . فشرح لها كل مصادفه باقتضاب وإيجاز وهي مصغية اليه بكل حواسها ومشاعرها حتى كأنها تريد ان تلتهم كلامه التهاماً لا تستمع اليه استماعاً . وهل يكفي الحبيب الاستماع الى حديث حبيبه بخاسة واحدة فقط ؟

وبعد أن اجاب على اسئلتها سكنت قليلاً لأن الوقت المناسب قد حان لتناجي قلبي العاشقين . ثم رفع رأسه الى « سلمى » فوجدتها مطرقة مفكرة . فزاد أن ينقذها من همومها ويخلصها من هواجسها . فقال لها :- وكيف كنت في غيابي .. ؟

بتعاسة وشقاء . قالت ذلك بحسرة والم . فاجفل عامر بعدها لأن رعدة الغضب والافزاج قد سرت في جسمه فهزت كيانه فاضطر الى ان يقول :-

ولم ذلك الشقاء وتلك التعاسة يا سلمى ؟

- لما ابتائنا من قلق واضطراب عليك حينما رميت نفسك في مهاوي البلاء والضر ، بالاضافة عما نالنا من دسائس سطيع ومكائده . فسكنت كأنها لا تريد تفصيل ما حدث لها رغم جسامه الحوادث . فانتفض عامر انتفاضة الاسد الجريح الذي هب ليثار لنفسه ولكرامته التي تطاول عليها من هو أقل منه شأنًا وبأساً . فقال :-

وماذا صنع ذلك اللئيم يا سلمى ؟

- بعد ان خبيت كل مساعيي وضيعت كل الجهود التي بذلتها في سبيل ارضائي كي يتغذني زوجة له . عمد الى بث الدعايات ، وتروبيج الاشاعات ، بأنك قد أصبحت من الهاكسين الذين لا حياة لهم بعد ، فاغرى مرة احد ذوي النفسيات المنحطة بأن يقول متعمداً : - وجدت سيد من سادة -كم اسمه عامر حسبما ذكر وهو يلغظ انقاسه الاخيرة على أثر اصابته بعمدة طعنات في صدره . وقبل أن تقارقه الحياة ارضائي بأن أعرج الى هذه المدينة لا يصل الخبر . وقد توفي فواريته التراب أنا واصحابي .

واستدعيت القائل . ولما سألته عن أوصاف عامر المزعوم ذكر لي اوصافاً مقايرة ومخالفة للواقع . وبذلك تغفل بصيص الامل الى قلبي المظلم . فانار بعض جنباته وأزال بعض الشك منه وبقي البعض .

وليت سطيحاً وقف عند هذا الحد واكتفى بما جره علي من الوسوس والهواجس بعد الشك والريب التي اضننتي واسهرتني ، حتى حولتني الى شبح بشري .

فهب عامر كأنه اعصار قوي وقال : -

وهل عمل اكثر من هذا يا سلمى ؟

- أجل يا عامر . فقد سولت له نفسه الخبيثة ، وقاده شيطان عاطفته الاھوج الى ان يكلف بعض رجاله بافتحام دارنا ليلاً ، لاختطافي وتسليمي اليه ، رضيت أم لم أرض . إذ لا بد وان أخضع لامره رغم انني ولاكنني ولحسن الحظ ، لم أكن في الدار تلك الليلة السوداء . فقد كنت ووالدي تقضي ما تبقى من الليل بالنوم عند أحد أقاربنا ، بعد ان قضينا أوله وقليلاً من نصفه الآخر في السمر والحديث . فأبوا علينا إلا ان

تقضي بقية الليل عندهم وذلك عندما هممنا بالخروج . وعندما وصلت الدار بصحبة والذي وقت شروق الشمس دخلتسه ، فوجدت كل شيء غير طبيعي ، فداخلني الشك واعتورتني الريبة من جراء عدم وقوف الخادم المسؤول على الباب بالرغم من فتحه . ولما امرعت في السير شك والذي في أمري ، لاني كنت امسك بساعده لأقوده خوفاً من أن يصطدم بشيء أو يتعثر أو ينحرف عن الطريق شأنه بذلك شأن كل من فقد البصر وترك عنده يتولى قياد نفسه فسألني وقال : -

ما لك يا سامي تمرعين في السير فتسكعيني ما لا طاقة لي به ؟
فرددت عليه وقلت : - لأنني استكشف من وضع الدار الحالي ونخلف البواب عن الوقوف بالباب . كما هي العادة . وكثرة العيدان والاعصان المبعثرة والمكسرة ، وقوع حدث جسيم وطاري خبيث ألم بالدار الليلة . قلت ذلك . فأوقفني والذي الى هذا الحد وقال : -

اسمعي يا سامي . ولما ارهفت حواسي . لم اسمع شيئاً .

فقلت له : -

ما ذا ؟ ماذا أسمع ؟

- انين خافت ضعيف طرق ممعي عندما كنت تسكعين يا سامي .
ولما استأنفنا السير ووصلنا الى غرفتي الخاصة ، رأيتها مفتوحة على مصراعها . الامر الذي جدد وصاوسي وخاوفي . ولما دخلت الغرفة توقفت ان اصطدم بتفاجأة مريئة ، أو انعرض لحدث جلل . ولم يكن شعوري اكثر من شعور والذي الذي اعترته هزة عنيفة ، وانتفاضة قوية من جراء ما كان يساوره من القلق والاضطراب حينما شعر بحيرتي وتخوفي واضطرابي . ولم نخط إلا خطوات حتى رأيت البواب يسبح ببركة صغيرة

من الدم ، وهو فاقد الوعي والادراك لم يسيطر على شيء الا على أنفة
ضعيفة وطويلة ، يخرجها من حنجرتها في فترات متقطعة ، ولهول الموقف
وخطورته وجسمه امة الحائث وفداحته انبثت من صرخة عصبية لم
استظم كبتها أو حبسها ، فكان صدها هزة قوية ورعشة حادة سرنا في
جسم أبي القستفز فيه كل ما في الرجولة من قوة وبأس وقد كان ذلك
عندما وقف كأنه في عنفوان شبابه ، يتووب لتحطيم من أراد الفتك به
ثم قال :-

ماذا حدث ؟ ماذا جرى يا سلمى ؟ أرشدني ببصرك ، ووجهي الى
جهة من راعك وأفزعك ، قوديني ان من اقتحم دارنا دون أن يعبأ بنا
أو براعي حرمتنا لأدق عظمه بلحمه ، وأذيقه طعم دنائته ونذالته ،
فتماكت أعصابي ، واسترجمت بعض ما فقدته من القدرة على الكلام
وأجبتة بتاجاج وتعثر :-

بوابنا مضرج بدماائه يلفظ انفاسه الاخيرة ، وهو عند قدسينا
يسبح في بركة من الدم ، ولا امر أو وجود للجاني الذي قادته نفسه
الطبيعية الى اقتحام الدار وانتهاك حرمة وقديسته ، فاعتدى على بوابنا
المسكين ، فجنمت والدي أمام جسم البواب ، وبدأت أحركه وأناذيه فلم
يلت المسكين الا ان نتح عيناه وجل بهما في سقف الغرفة كأنه يبحث
عن شيء ، فعالج نفسه لانهوض فلم يقدر ، لذلك أرغى وأزبد وأرعد
وتقم بالفاظ غير مفهومة ولا معلومة ، ولما هدا سألته عن حاله ، فاجابني
بأنه لا بأس عليه ولا خوف ، وطلب مني الماء ، فخلبته وسقيته ، ولما بل
ظلم تحركت شفاته فقال :-

اقتحم على الدار اربعة من الصوص بكامل أسلحتهم ، وعبثا حاولت

منهم أو صدم ، ولما ضايقته قبضوا علي وكبّلوني ووضعوا السكّامات
 علي فمي خوفاً من ان اصيح ، ونقلوني الى داخل الدار وقالوا لي :- دلنا
 علي سلمى وعند ما اخبرتهم بانك غير موجودة في الدار ، انهالوا علي
 بالطمع والضرب ولم يكتفوا بذلك بل فقتروا الدار بكاملها فلم يمتروا عليك
 ثم رجعوا الي يعبدون علي السؤال نفسه ، ويهددوني بالهلاك ان لم اخبرهم
 بموضعك لانك كنت غايتهم المطلوبة وامنيّتهم المنشودة ، فالحقوا علي
 بالاستفسار فلم يحظوا مني بباطل ، لذلك انهالوا علي بالضرب دون شفقة
 أو رحمة ، وتركوني فاقد الوعي والادراك ، وانصرفوا دون ان يتعرضوا
 لادوات البيت وأثاثه بسوء ، بعد ان اعتقدوا اني قد فقدت الحياة
 نهائياً .

فسألته وقلت :- أولم تعرفهم ؟

فرد علي وقال :-

لم أعرفهم بالضبط باسمائهم ولكنني عرفت انهم من قبيلة أياد ، ولم
 أشخص إلا خادم سطيج لانه كان اقربهم الي ، وذلك بحكم وظيفته التي
 اقتضت علي حراستي والحفاظة علي السكّامات في في ، مع ملاحظة حبال
 وثاقي الضعيفة الواهنة . . .

فلم يكد يصل الي هذا الحد حتى جف لعابه ، فاستمعت الكلمات في
 فم حينما تهج صوته ، فاستسقاني الماء ، ولما غادرته لجأب الماء ، رجعت
 اليه فوجدته جثة هامدة لا حراك بها ولا حياة ، وكان مصابه أليم
 الواقع في قمعي ونفس والدي الذي فهم مصير المسكين ، وكلفت مريم
 بإحضار جماعة من ثملب ، فلم تقب إلا قليلاً حتى حضرت ومعهما تسعة
 رجال ، وقد استشاطوا غضباً من هذا الاعتداء الاثيم ولا سيما حينما

اخبرتهم بالامر ، ثم كلفتهم بان يقوموا بدفن الجثة ، بعد اجراء المراسيم
اللازمة والطقوس المناسبة ، فسكانوا مثال الطاعة والتضحية والتفاني ،
ولما لم اخبرهم عن جنى هذه الجناية اكتفوا بحراسة دارنا وقصرك في كل
ليلة ، وقد كفونا شرهم وحالوا دونهم ودون تنفيذ اغراضهم وغاياتهم
السافلة ...

فقاطمها حاسر وقد كبت لبيب غضبه وقال :-

الايام بيني وبين سطيح ، الله يا سطيح الوغد الذي لم يكتف بتسديد
سهام نذالته التي انبرت من قوس خسته الي وحدي ، بل تعدى الى أبعد
من ذلك ، فتحذاني وتحدي عشيرتي ، واراد اختطافك يا سلمى ، مستغلاً
فرصة غيابي وبعدي ، أرادك ان تكوني فريسة باردة بين يديه عند ما
دبر مؤامراته الفاشلة لأجل قتلي وأنا في بلاد سجستان فلم يفلح ولم
ينجح .

وقبل ان يتم كلامه دخل جرير فجأة يقود والد سلمى .

فلقاه حاسر بالتحيات العطرة الحارة التي تنم عن الشوق العظيم ،
والاحترام والتقدير .

وحينما جلس والد سلمى قرب حاسر بدأ يسأله عن حاله وصحته أثناء
سفره وحاسر بوضوح له كل شيء ، وقد حمد الله على سلامة حاسر من تلك
المخاطر والاهوال وسكت ثم تسنى لحاسر ان يسأله ويقول :-

وكيف حال العم في غيابنا ؟

- بخير وعافية لولا الفراغ الذي احداثته عندنا بعد غيابك الامر الذي
جعل اهل الشر والمقاصد والاغراض يطعمون فينا ، فيتمجسرون علينا ،
ويهاجمون دارنا لا ليمسرقوا ما فيها من الاثاث والمتاع ، بل ليأخذوا او

يحتفظوا أعز ما احتفظ به في هذه الحياة ، وآخر ما بقي لي من الروابط
التي تربطني بهذا العالم الفاني ، فلولا سلمى لما احببت الحياة ، لأنها يا عامر
وحيدتي بل امنيتي وذخيرتي . فقاطعه عامر حينما رأى دموعه تتساقط
على وجنتيه وكلماته تستعصي عليه ، لينتقذه من موقفه فقال :-

علمت القصة يا عمها من « سلمى » إذ أخبرتني بكل شيء وازاحت
النقاب عن المسكائد والحيل التي كنت في شك من صحتها ، وعلى ضوء هذه
الحادثة التي ألمت بكم اكتشفت مواضع الاشرار والانفخ المنصوبة لي
بسبب حبي لسلمى ، ذلك الحب الذي اصبح شوكة في عيني سطيج ،
وعقبة كاود في سبيله تمنعه من الوصول الى من تيمته بحبها واسقمته
بصدها واعراضها .

ولما هدا والد سلمى كفكف دموعه ورد على عامر وقال :-

عرفت علة التطاول ، وسبب نصب الاحايل والاشراك التي قام بها
سطيج نجاها فقد أراد أن يذيق نفسه منا ، لأنني خفيت مساعيه ،
وقضيت على آماله وأحلامه حينما رفضت طلب وجهاء المدينة ونبلائها
الذين أوقفهم سطيج عدة مرات ليحولوني على الموافقة في تزويج سلمى منه
ولكنهم اضطروا الى الانسحاب النهائي وهم يحجرون ذبول الحيلة والفشل
فقد أخبرتهم انها مخطوبة الى سيدها عامر ، ولا يمكن تزويجها من غيره .
مهما تغيرت الاحوال وتطورت الظروف .

... ولهذا اضطر الى محاولة اختطافها وأخذها عنوة رغم انها بعد ما
فشل في امر اغتيالي ، وهو غير عاين . لما تواتبه به الليالي من احداث
مستورة ومصائب مخفية عليه ، وكوارث ان هو اقدم على تنفيذ ما ازمع
القيام به فلي يوم اصفي فيه حسابي معه .

اما اقتراني بسلمى فسوف لا يتم ما لم أقض على كل من نازعني عليها
وزاحني بحبها ، بعد ان اقوم بجميع ما يتطلبه الدين مني من عمل وجهاد
ونضال في سبيل تثبيت أركانه وتدعيم بنيانه ، ونشر لوائه على من
حرموا الظل الظليل ، تحت دوحة الامان والطمانينة .

فنهضت سلمى واستأذنت من عامر بالانصراف فاذا لها بذلك وخرجت
تقود والدها ، اما عامر فقد اضطجع على سريره وراح يغط في سبات
عميق لم يصح منه إلا بعد طلوع الشمس

فوجد جريراً واقفاً قرب سريره خياف تحية الصباح واخبره برسول
المقران اليه ، وانه يطلب حضوره في الكنيسة .

فقام عامر من لحظته وارتدى ملابسه بعد ان تناول كفايته من طعام
القطور فركب جواده وسار في موكب مهيب يضم جميع افراد قبيلته
وبعض المجاورين والمحبين ، وتوجه الى الكنيسة ، ولما وصلها استقبله
« ماروثا » ومن معه من القسس والرهبان ورؤساء القبائل وأمراء الجنود
الاستقبال الحار فرحبوا به بعد ان هنأوه بسلامته ، فجلس وجلس القوم
حوله وبجانب « ماروثا » الذي بدأ يسأله عن سفرته ومدى نجاحه في
مهمته ، فقص لهم قصة سفره مع جرير من أولها حتى أتى الى آخرها ثم
بشرهم بما احرزه من النجاح التام بعد المشاق الجسام التي تعرض لها
بطريق الصدفة ، ومن فعل الجاسوسية التي اوغرت قلوب اهالي
(مسجستان) على قتله بعد ان استغزت فيهم عاطفة المذهب والحرس عليه
حينما اخبرتهم تلك الجاسوسية بأن من مبشري المذهب اليعقوبي المضاد
لذهبيهم النسطوري .

وان مبث هذه الجاسوسية من حضر اجتماعنا في « الكنيسة

الحضراء « عند ما قررتم ايفادي لانجاز هذه المهمة في تلك الربوع .
فقاطمه المفريان وقال :-

انها خيانه عظمى وكفر فظيع بمن سولت له نفسه من اتباعنا باقباع
شططها فانقياده لسلطان عاطفته وهواه ، لانك لم تخرج من مدينتك
هذه بدافع الاغراض الشخصية ، أو رغبة في الشهرة والجاه اللذين انت في
غنى عنهما ، وانما خرجت مكافأ ومناضلاً في سبيل الدين ونشره وتعميمه
على الصورة الحسنة والوجه الانم مهتدياً بتعاليم « اوطيخي » وبينما كان
المفريان مستمراً بالحديث اختلس عامر نظرة من سطيح ، فوجده يحاول
بلع لعابه الذي جف في بلعومه فلم يتسن له ذلك إلا بصعوبة فحول نظره
حينما رد على المفريان وقال :-

اني لا اتوقع مثل هذه الاعمال من أي فرد من افراد المدينة ولذلك
فاني لا اتهم احداً منهم إذ ليس من المستحيل ان يندس بيننا أو بالقرب
منا في زي من الازياء أو في طريقة من الطرق من هو بعيد عنا في الدين
والمذهب أو محل السكنى والوطن فانتبهزها فرصة سانحة مناسبة لخلق
القضية في مهدها أو قبل ان يستفحل أمرها فعمل ما عمل .
فقال سطيح :-

الحمد لله على سلامتك يا اخي واني لأهنتك بما احرزته من النجاح
الذي اكسبك ارضاء الله والسكنيسة فسجلته في سجل الاعمال الجليلة
المقرونة باسمك ليخذك التاريخ وتذكرك الفضيلة ، وتفخر بك الشجاعة
وتعز باقدامك العقيدة ، لانك استحققت اعجاب الناس وتقديرهم بفضل
ما اقدمت عليه من الاعمال التي تعود فائدتها على البشرية جمعاء عند ما
ضحيبت براحتك وسعادتك وقدمت نفسك لتكون كبش الفداء للدين .

واني اذ اعرب عن شكري وامتناني لك وامحياي بك ، فقد اهديتك اعز خادمة عندي لنقوم بخدمتك ونحرص على سعادتك وراحتك كما هو شأنها الآن عندي . قال ذلك وسكت فقام المفريان وقال :-

لقد استحققت لقب « فارس الكنيسة وحاميها » مع هديتها ، ثم تقدم اليه ووضع في عنقه صليبا ذهبيا كبيرا مرصعا بالاحجار الكريمة مربوطا بسلسلة ذهبية بشكل قلادة وبعد ان بارك له فيها تنحى عنه وجلس ، ثم تكلم رئيس التمر وقال :-

أرجو ان تقبل مني جوادي الخاص هدية متواضعة لا جزاء لأعمالك التي لا تناسبها هديتي البسيطة وانما تعبيراً لشعوري باستحسان عملك ، خصاني منتهى ما تصل اليه يدي من حطام الدنيا ، فحذا جميع من حضر المجلس من روم وعرب حذوهم وقدموا هداياهم المتباينة والمتنوعة لعامر يسرون فيها عن شعورهم واحساسهم بفضائل اعماله .

— ١٩ —

انفض المجلس بعد ان شكر المجتمعون عامراً على همته القعساء وتضحيته الفذة التي انتجت هذا العمل المثمر، الذي افتخرت به كنيسة المشرق بتكريت ، كما اعتر به « مفريان كنيسة الحضر » وشكروا عامر على ما قدموه من هدايا، وما عرضوا امامه من شعور فياض بروح الاخاء ، مفعم باريج المودة والاخلاص .

وتسنى لبعض رجال اغلب من جمع بهض الهدايا التي قدمت لعامر اثناء وجوده في الكنيسة ، وسار البقية في ركاب موكب عامر وأحاطوه

احاطة الهالة بالقمر ان وصل الى قصره ففترقوا عنه .

أما سطيح فقد تنفس الصعداء عند ما غادر الاجتماع الكنيسة ، لانه
ايقن ان الحيلة التي انفلت على عامر ، وهي اعداءه جاريته التي ستمهد له
طريق الحب الشائك الوعر ان قلب سلمى المقلد دونه ، لذلك حث جواده
على السير ليصل قصره بسرعة كأنه كان خائفاً من تقلبات الزمان ،
متوقفاً منه الحيانة والغدر ، فسبقه قبل ان يسبته بالطعنات ، ويبادره
بالنسكبات .

وما ان وصل قصره حتى استدعى « زوبعة » ، فلما حضرت بين
يديه بقامتها المتوسطة ورشاقها الحبيبة ، وتناسق اعضائها مع حسن
انسجامها الذي لا يتفق وسواد وجهها البني الذي ورثته عن أمها .
التفت اليها وقال :-

إيه زوبعة ، انك تملعين حدي عليك ، ومراعاتي لراحتك ، وحرصي
على صحتك بناء على ما كنت تبدينه نجاحي من حب واخلاص وتقان ،
أجل لمست كل هذا منك فقابلتك بالعناية والتفضيل على غبرك ،
واختصيتك بأمراري وظواهري ، فاطلعتك على جي لسلي التغلبية
وعرفت اثره في قلبي ومداه .

وقد تبلور هذا الحب يا زوبعة حتى ملك علي احساسي ومشاعري ،
فاضطرت الى سلك مختلف الطرق والمسالك للوصول الى غايتي وامنيتي
« سلمى » فلم استطع ولم اقدر ، اذ ذهبت جميع محاذاتي ادراج الرياح .
فاصابها الاضمحلال والفناء وكلما اهتمت الى طريقة ، او عثرت على
فكرة اتوصل بها الى التغفل في قلبها لم البث ان اصطدم بقساوة ذلك
القلب . وكل ليلة ابيت فكرة أتعامل بشجاعتها وانكسرها بتبديد وتزول

عندما تشرق عليها شمس الصباح التالي عندما تصل الى مسامع سلمى بعض مطالبى . وقد اهدت اليوم الى فكرة اتوقع من تنفيذها الفجاء التام رغم ما فيها من التضحية . ولا يتحقق نجاحي الا بواسطتك يا (زوبعة) .
 فارجو ان تشدي ازري ، وتساعدني بحق الترية والاخلاص . وبحق المقدسات يا زوبعة

- مستجدي اطوع اليك من بنائك يا سيدي ولو طوحت بحياتي في مهاوي الدمار .

- ابي طوحت فيك يا زوبعة . ولكن تطويحي بك لم يكن في مهاوي الهلاك بل اهديتك الى « عامر » مكافأة على حسن صنيعه في بلاد « سيجستان » . هذا ما نظاھرت به أمام الناس ، أما غاييتي الاساسية ، فهي أن تلعب دورك في قصر عامر ، وتبني لي الظروف المناسبة لايقاع العداوة والبغضاء بين عامر وسلمى أو تعمدي الى اختلاق بعض الاكاذيب عن لسان أحدهما وايصالها الى مسامع الآخر . أو غير ذلك من المسكائد والحيل التي تضمنين لي بواسطتها حب سلمى . ولو اقتضى الأمر على التآمر على قتل عامر أو اختطاف سلمى .

- والله ليمز على فراق قصرك والخروج من تحت ظلك ووعايتك . ولكن سأمرن نفسي على الصبر ، وانظها بالعمل المتواصل لأقدم لك امنيتك هدية لك جزاء لحديثك علي وتلطفتك بي ، واعترافاً بجميلك .

- اشكر يا زوبعة . ارجو ان لا تتجاهلي أمري ولا نفسي وصيتي . وبعد أن طبعت على يد سطيح قبة ضمنتها عدة معان . غادرت القصر بصحبة أحد رجاله متجهة الى قصر عامر . فأدخلها الرجل على عامر وعال :-

هذه هدية سطيح اليك يا سيدي ، قال ذلك وانصرف وترك زوبعة بين يدي عامر يسألها ويقول :-

ما اسمك ايها الفتاة ؟

- زوبعة يا سيدي .

وبينا عامر يتأهب الى أن يوجه سؤالاً آخر الى زوبعة لمداعبتها وازالة شعور الحجل والاستحياء عنها . دخلت سلمى قصد الاستفسار عن الاسباب التي دعت المغريان يرسل في طلبه . فقال لها :-

ليطلع على مدى نجاحي في مهمتي . ثم التفت الى الجارية وقالت :- وما هذه الجارية ؟

- انها هدية سطيح . وهذه هدية المغريان بعد أن انعم عليّ بلقب « فارس الكنيسة وحاميها » . قال ذلك ونزع السلسلة من عنقه وقدمها الى سلمى ثم قال وستصلي الهدايا الاخرى من الامراء والقادة . أما الشعب الذي لا يملك من حطام الدنيا غير ما يكتنه من الحب والاعجاب والتقدير ، فقد أظهر شعوره وقدمه هدية لي ، حينما اعرب عن اخلاصه في ذلك المرجان المهيّب . فردت عليه سلمى وقالت :

أما انا فامثلك بكل ما نلت من الهدايا والاعجاب والتقدير والنجاح والفوز كما اهني نفسي بسلامتك وتوفيقك مع تلاً لنجمك وسطوع نوره في سماء البطولة والشجاعة . وفي افق الاخلاص والنضحية لأعلاء كلمة الله ، وتوسيم رقعة دينه فسكت والتفت الى الجارية وقرست فيها وقالت :-

حقاً انها جارية خفيفة الروح والظل . لكنها هدية سطيح ولتلك

فاني لا اركن اليها ولا ارتاح منها . فنظرت زوبعة الى سلسى نظرة عتاب وغنج ودلال وقالت :-

وما ذنبى انا يا سيدنى حتى لا ترتاحى بوجودى ؟ وما قيمتى حتى اعكر عليك صفوك ؟ ما انا إلا دمية متنقلة ناطقة ، لا تقدر على تسيير نفسها بنفسها ، ولا تملك من الرأي شيئاً . فانا كالنقد تتقاذفني الايدي لقضاء حوائج الناس واغراضهم دون أن أقدر على قضاء حاجتى . لاني أسير في الحياة وليس لي هدف أو شأن فيها غير عد الايام لأنوصل الى يوم خلاصى من هذه الحياة يوم تقوم قيامتى . فرد عليها عامر وقال :-

لا تياسمى أو تحزنى وتغنطى . فلست الخادمة الوحيدة ، فكما خدم معها ارتقينا في سلم المجتمع ، وتربنا على الدرجة العليا منه . إذ لا يصلح بناء المجتمع الكامل ما لم يشعر افراده بأنهم خدم لغيرهم ويخدمهم الغير .

- أنا لا أشك فيما تقول يا سيدى . كما انى اعترف بأن أساس بناء المجتمع السكامل ان تكون الخدمة متبادلة بين أفراد . ولكن خدمتى تختلف عن خدمة بقية الناس لأنى أبايع واشترى واهدى كائن من المتاع أو البضاعة لأن المجتمع نبذني عن واحته عندما سلبني حريتي ، فقاذني كاتقياد السائمة التي رضعنت للذل والاهانة ، فقيدني وسخرني لقضاء حوائجه ، وانجاز اعماله التي يألف افراده عملها أو يعجزون عن تأديتها . أما طمستها وتفاقتها أو لصعوبتها وافراد المجتمع لا يعبأون بما اناسمى من المشاق والانعاب . بالاضافة الى ما اكابده ومثيلاقي من آلام القرع وقساوة القذع .

فالتفت عامر الى سلسى فوجدتها مصفية الى زوبعة بكل حواسها . ورأى علائم الاهتمام بها والتأثر من كلامها بادية على وجهها وملامحها .

فاستغل هذا الاهتمام وذلك التأثير في سلمى وقال : -

والله انها خادمة مثقفة وعلى جانب عظيم من الفهم والمعرفة .

فردت عليه سلمى وقالت : -

ولهذا فأنا التمسك باسم الحب المقدس الذي يربط قلوبنا ان نحمل مهمتها

مقتصرة على المراسلة بيني وبينك ولا ترهقها بالاشغال الكثيرة الصعبة .

- سيكون الامر حسب رغبتك يا حبيبتي . فلو اعتب سطوح

لاعتقتها وتركتموها حرة . لها الخيار في البقاء أو الرحيل . ولكنني لا أرى

ذلك من اللياقة والادب . رغم اراحة الوجدان ، وارضاء الضمير ، وتطهير

الانسانية من اعمال الجباورة العتاة الذين يطربون لاستعباد الضعفاء

واسترقاق الفقراء .

فاجابتهما زوينة قائلة : -

تالله اني لأفضل المعبودية والاسترقاق عندكما على الحرية والاستقلال

وانا بعيدة عنكما . لأنني لمست العطف والحذب بعد الرحمة والشفقة التي

ظلمتني وغمرتني بموجة من الانشراح فأحيت بقلبي ميت الآمال عندما

حببت الي الحياة التي كرهتها واجتويتها قبل ان تظأ رجلاي عتبة قصركما ،

فاستغل بظل الحرية والعناية عندكما .

حقاً ان زوينة كانت أشعر بأن الحياة قد ابتسمت لها . لذلك اقترقرها

عن ابتسامه وادعة مشرقة دائمة لم تفارق عيائها مدى أيام اقامتها

وخدمتها في قصر عامر . ولم تكن تلك الابتسامه إلا علامة من علامات

الرضا ، وطاباً من طوابع الحياة السعيدة ، وشعاعاً من أشعة الاحساس

بالفوز تسلل من قلبها بعد ان وجد طريقه الي عيائها وملاعها الخارجية .

وذلك بعد ان أحست بثقة عامر وسلمى بها . فركنا إليها واطمأننا لها في كل حركة أو عمل حتى سمياها به « رسول الحب وبريد القلوب » .
وقد كانت تلك الثقة هي الباعث الحقيقي لنشاطها في العمل الذي جاءت من أجله والذي أمرها سطيح بانجازه ، دون خوف أو وجل ، أو تحفظ وتردد . وقد ارشكت أن ننجي ثمرة عملها بايقاع المداوة والبقضاء بين الحبيبين . فتفرق بينهما لولا قوة الروابط ، ومتانة العرى التي ربطت القلبين بروابط الحب المقدس . ولولا بعض الموانع والعوارض التي حالت دون ذلك بعد شل حركتها وتعطيل عملها ، وشجبه الى حين ، ومن أبرز تلك العوامل هو شعورها بالجل لمن ارادت أن توقع فيها ، ذلك الشعور الذي عمل على اضعاف هذه المحاولات بل وايقافها لولا الحاح سطيح عليها بين آونة وأخرى .

— ٢٠ —

وبعد فترة الاستراحة والاستجمام القصيرة التي تمتع بها عامر أثر رجوعه من بلاد سجستان . بدأ يراقب اعمال الكنيسة ونصرات سطيح عن كثب لأنه كان يأمل من الكنيسة وعلى رأسها المفران ماروثا ، ان ترسل المبشرين الاكفاء الى « اذربيجان » أو « هرات » لتوسيع رقعة الدين ، ونشر لوائه على من كان يشكو حرارة قيظ الظلم ، وجذب الجبل ومحولة الحياة المفيدة . كما عمل هو حينما تسكبد من الاضرار وواجه من المخاطر ما لا طاقة له بها اثناء تأدية مهمته في « سجستان » . بالاضافة عما بيته له سطيح من المسكائد ونصبه من الاشرار للايقاع به ، تم التخاضع

منه ، فلم يبدأ من اخبار المفيان ماروثا بما فكر به عندما صبر قائله الصبر واضجره .

اما المفيان فقد رد عليه . بأنه لم يقفل ولم ينس واسكنه في دور البحث عن الرجل الكفو لهذا العمل المهم . فتيقظت روح الانتقام في قلب عامر وضرب عصفورين في حجر حين قال : -

كلنا يعلم كفاءة سطحيح زعيم أياد ومقدرته وسلطته رغم قرة وشوة ، الى ان يسجل اسمه في سجل البطولة والشرف . فهو من الشباب الطموحين الذين يتوثبون الى العمل ، لينالوا بواسطته الشهرة الواسعة والتفوق المحسوس وهو يعد عدم اختياره لايفاده من قبل الكنيسة في مصلحة الدين اهانة واذلالاً بعد غمط حقوقه واجحاف مقدرته التي تؤهله بأن ينال شرف انعام الكنيسة ، فيصبح « فارس الكنيسة وحاميها » وقد أنكش واستاء من جراه منحك اللقب الآنف الذكر لي وتفضلك به علي ، وعده تحدياً لشخصيته التي هي اجدر من غيرها . وهو يتحفز الى العمل ويتوثب اليه لينال شرف اللقب وقداسة الانعام ، وبعد سطوع نجمه في افق الشهرة والنبوغ . فرد عليه المفيان وقال : -

ان كان الامر كذلك فسنقرر ايفاده في الاجتماع الذي سنعقده غداً في الكنيسة . ثم افترقا على هذا الرأي الذي سيقرره المفيان في الصباح التالي .

وعند الصباح كانت رسل المفيان تطرق أبواب قصور رؤساء القبائل العربية والبارزين في الحامية الرومانية ، كما تطرق أبواب الاديرة الاخرى ، ليبلغوهم توك المفيان الى الاجتماع بهم لا مر طاري مهم ، يستلزم اجتماعهم بالمرعة .

وما هي إلا ساعة حتى اجتمع جميع من طلب المفريان حضورهم في كنيسة دون أن يعرف أحد سبب هذا الاجتماع المفاجيء إلا طاهر والمفريان . فتلهموا الى معرفة الغاية منه . ولكن المفريان ماروثا قد أمرح في كشف النقاب عن الحقيقة حينما شعر بتلهمهم الى معرفة داعي الاجتماع الذي اقلقهم وزاد في اضطرابهم . وقال : -

ايها الاخوان : ان الايمان بالمبدأ والعقيدة اذا رسخ في قلب المرء ساقه الى العمل المتواصل الذي لا هوادة فيه ولا اناة ، ليتمكن أن يعبد لذلك الايمان طريقاً الى قلوب الناس فيوطنه فيها لأنه مخلوق وديم محب مقبول . فيخلق بذلك انصاراً ومؤازرين ، يعمل واياهم في تعميمه على البقية الباقية من الناس . ليتمتعوا بمنظره ويتذوقوا بحلاوة ثمره وانتاجه ليزدادوا تماسكاً مع بعضهم وتأزرأ فيما بينهم . للحيلة دون وصول حليف الشقاء الثقيل من الاستغلال بظلم سعادتهم ، فينمض عيشهم عندما يضم بيوضه التي لا تقس إلا عن افراخ التعاسة والشقاء . بعد أن تعمل على ثمرية شجرة السعادة من اوراقها التي كانت السبب في اجتماع القوم بذلك الظل الظليل . فيذهب الظل بذهاب الاوراق ، ويتغير القوم الذين يعجزون عن مواجهة احداث الطبيعة . وهناك يستسلمون لسلطان الشقاء مرغمين . بعد أن أذلتهم التفرقة وحطمتهم الانانية .

ولأجل هذا كله بل ولأجل المحافظة على السعادة التي واثقنا بها الايمان بديننا وعقيدتنا اضطررت الى جمعكم للتشاور في امره والعمل على نشره وتعميمه كما هو شأننا قبل ذلك . وقد ذكرت لكم اننا منزهون تعميم الدين في بلاد « سبستان وهرات واذريجان » . اما سبستان فقد نورها طاهر بفيض حكيمته ، ونور معرفته . وبشمع الايمان الذي رسخ في

قلبه ، ولذلك سجلنا اسمه في سجل التفضية والخلود بعد أن منحناه
 اللقب الذي أخذه عن جدارة ومقدرة ولا يقتصر هذا اللقب على واحد
 دون آخر ، أو يفرد به شخص دون بقية الناس . بل يناله كل من يقدم
 للدين تضحيات وللكنيسة ايا-ي بيضاء واعمالاً مثمرة فمن يجب أن يكون
 من حماة الكنيسة وفرسانها ممن رسخ الايمان في قلبه ، وفورت العقيدة
 عقله وذهنه فليتقدم اليها . واني اذ أقول ذلك اوجه كلامي اليكم جميعاً ايها
 الاخوان عدا عامر الذي أدى من الاعمال ما اوجبت شكرنا وتقديرنا له
 كما نال اعجاب الناس وتبجيلهم . فقاطعه عامر وقال : -

وانا على تمام الاستعداد للقيام بالاعمال التي تسعد الناس وتقوي
 مركز الكنيسة او تكسب الدين شهرة وائساعاً وسلطاناً في كل مكان
 وزمان .

- انك قد أدت عملك ، وقت بواجبك . لكننا قد نكون مضطربين
 اليك اذا لم نجد غبرك ممن يقدم على ما نريده من الاعمال . واطنا في غي
 عنك الآن لكثرة الاكفاء الذين لا يبخلون بجهدهم على الدين .

فايقن سطيج بأن عامر قد جرح كرامته ، ونال من نفسه ما نال .
 فقد تحداه كما تحدى غيره من المجتمعين عندما غرق في خمرة النصر وانتفى
 من سكرة الاعتداد بالنفس ، فبلغ الحماس منه أعلى ذروته وقال :-

لاياد اليد الطولى في نشر الدين بهذه المحلات كما لها المجد الاثمل
 والاسبقية في سكنى المدينة . ولذلك فاني بحكم هذه المؤهلات ، بالاضافة
 مما عندي من استعداد ومقدرة سأكون المقدم على جميع من يريد ان
 يرفع صناد الدين ويقويه ، كما يزيد في اتساع ضله وبسط نفوذه وسلطانه

وذلك بصفتي زعيم اياد ، اخذت الزعامة بالوراثة المتعاقبة مع الجدارة التي
لها الناس عندي .

فارتاح عامر من كلام سطيج وطرب من نفعته لانه قد توصل الى
ما كان يهدف اليه ويتوق له ، باز يوم سطيج بتأدية رسالة الدين كاملة
في « اذرييجان » ، ولا يماذه واقصائه كي تتفانفه الاقدار ، وتلمب به
المصادقات والمجاآت ، ليخلص من مناوئه في الحب ، ومزاجه في الغرام .
لكنه قال بعد ان اظهر من الدهاء والمكر ما لا يقدر عليه غيره في
تلك اللحظة :-

لأياد القدح المعلى والمكانة السامية المرموقة في المجتمع ، والسكفاح ،
والشرف ، فليس من الغريب أو العجيب على سطيج ان يكون من أحماة
الكنيسة وفرسانها ، لأنه لم يكن جباناً عاجزاً أو كسولاً متاهلاً
متقاعساً عن تلبية نداء الكنيسة ودعوة النصرانية ، بل هو للامر من
قبل ومن بعد ، لان له من قوة الشباب والعلم والاطلاع على الدين مع
بعض الآراء الفلسفية ، وسداد الرأي ورجاحة العقل ما يؤهله للابغاد ،
ليقوم بمهمة بث تعاليم اليعاقبة التي تدعم أركان الدين الذي سيبنى سطيج
صرحه في تلك الربوع .

فصاح أكثر المجتمعين وقالوا :-

نحن نؤيد عامراً برأيه ولعترف بقول سطيج ، لأننا نرى الصلاح في
ابغاده ، لنفاه لنا به وتوقعنا نجاحه في عمله .

وفي اثناء ذلك كان رئيس دير « مريحننا » الراهب « مارين » يفهم
بكلمات ضاعت بين الاصوات العالية والضجيج المستمر ، فلم بلغت اليه

أحد أو ينتبه إلا من عناها بقوله وهما عامر وسطيح ، لقربهما اليه ، ولعدم
انشغالها بالتأيد والتجديد ، فسمعهما يقول :

لولا تنافسهما في حب تلك الفتاة التي خلبيتهما بجها لهما الاخاذ ، لما تناقسا
في كسب الجاه وبسط النفوذ ، وابتماد الصيت بعد الاقدام على الممالك
والأموال بحجة مناصرة الدين وتدعيمه ثم العمل على اكثارة مناصريه
ومؤازريه .

واحسب عامراً سيوقع سطيح في الممالك التي سوف لا ينجو منها
جزء ، لما اقترفت يدها وما صنع من قبل ، لأن عامر اليوم يثار لنفسه من
سطيح الذي أراد قتله في بلاد سجستان ، فلم ينجح أو يتوصل الى ما
هدف اليه .

فالدين لا يقبل التأمر ونصب الأشرار كما انه لا يريد العداوة والبغضاء
ان تتغلغل في قلوب الناس ، لأنه للاغواء والمودة والمساواة ، وبحكم مهنتي
ومنصبي يجب ان اعمل على انقاذ سطيح من ورطته وتخليصه من الموت
الذي بات في انتظاره .

ولما هدأ الضجيج وسكنت الضوضاء ، وانقطع الصوت اعترض
الراهب « مارين » على ماروتا وقال :-

أراك لا توفد الى المحلات التي أزمعت هداية أهلها بمشعل الدين
الصحيح الا رؤساء القبائل أو أمراء الحامية وقادتها ، ورجال الكنيسة
ورهبانها دون أن تلتفت الى اراد الشعب وأمرهم اهتمامك ، لذلك
تجد قبيحهم من هو كفو لمهنتك التي أزمعت القيام بها ، فيخف الى قبليبة
نسدائك ليخرج المعكرة الى حيز الوجود والعمل ، فاعنادك على هؤلاء
معناه اجحاف بحقوق الشعب ونطويح بمؤهلاتهم واستعداداتهم ، وبالوقت

نفسه اقحام نفسك في المآزق المخرجة فيما اذا لقي أحد هؤلاء الامراء او القادة حتفه بقدر محترم اثناء سفرته .
فرد عليه ماروثا وقال :-

ذلك راجع لي ، لوثوقي من عدم ايجاد السكفوه للمهمة الجسيمة بين افراد الشعب ، لأنهم لم ينالوا اى قسط من التعليم في الاديرة والكنائس بناء على جهلهم وقصرهم ، ولحيلولة المتنفذين دون تعلمهم وذلك لأمر ما باتقسمهم .

- وكيف وثقت بعلم الامراء والقادة اذن ؟

- بعد دراسة طويلة لمجتمع تكريت تمكنت ان اعرف ان الدراسة والتعليم في الاديرة والكنائس واجبة مفروضة على أولاد المؤمنين المتنفذين ، ومقتصرة عليهم دون غيرهم ، عدى الفقراء الذين وهبوا نفوسهم للدين ، وكرسوا جهودهم وحياتهم لخدمة الاديرة والكنائس ، فقد أصبحوا رهباناً وشمامسة ، ولأجل هذا تمعدت عرض مشاكلي الدينية على هذه الطبقة التي سمح لابنائها مركزها الاجتماعي ، بان ينالوا قسطهم من التعليم دون سائر اقرانهم من ابناء الشعب الذين انصرفوا بكليتهم الى مؤازرة آباءهم ومعاونتهم في الاعمال التي من شأنها ان تعمي أو تكثر لهم القوت والزق الذي هم بأمرس الحاجة اليه ، كي يدروا عنهم خطر المجاعة عندما كانت تتهددهم بين آونة وأخرى ، أما اخواننا فلا هم لهم في صغرهم الا الاعتكاف على الدروس والمطالعة كما هو شأن غيرهم من ابناء طبقتهم ، وهذا ما جعلني أعرض عليهم امري فاخترتهم بمحبي دون غيرهم من بقية أفراد المجتمع الذين حرموا ثمرة المعرفة ، ومنعوا من تذوق حلاوة العلم ولذة الاطلاع .

فسمكت الشيخ حينما اخذه المفران ماروثا ، واستمر يغمغم بكلماته التي لم يسمها الا الذين بقربه ويقول :-

مسكين سطيح ، حرم من الحب ويحرم من لذة الدنيا ، والله لئن كتبت له السلامة ورجع ظافراً منصوراً ، لأعلمن كل ما بوسمي عمله المناصرة ومؤازرته حتى في أخرج المواقف ، لأنني قد أحسنت بالمطف عليه .

ولما انتهت مهمة المجتمعين انفض المجلس ، فذهب كل الى حال سبيله . وقبل ان تشرق شمس اليوم التالي كان سطيح واثنين من رجاله تنهب بهم جياذهم الطريق بعد ان عبروا دجلة متجهين الى الشمال الشرقي ، فوصلوا اذريبجان بعد ان ساروا أياماً كثيرة ذاقوا خلالها من التعب والفضى والمرار ، وتعرضوا لمختلف الاخطار والاضرار .

وعند وصولهم تهبأت لهم الظروف المناسبة لانجاح والفوز وذلك عند ما استحوذ « سطيح » على مشاعر القوم واحاسيسهم ، وخطبهم بشجاعته ومهارته فذلهم لمشيئته وقادهم بأوامره ونواهيه ، إذ غمرهم بالمعرفة واغرقهم بالعلم ، خبب اليهم الايمان وقربه الى نفوسهم بكلامه المعسول واسلوبه الخلاب ، وما هو الا زمن قصير حتى أصبح أهالي اذريبجان يدينون بالنصرانية ويتمسكون بتعاليم المذهب اليعقوبي ، فتسنى لسطيح ان يوجه همه الى اقليم « هرات » بعد ان بنى الاديرة والبرشيات والبيع في الاقليم الذي هو فيه ، فجعلها مدارس شعبية ، وبعث اثنين ممن يعتمد عليهم برجاحة العقل وسداد الرأي ، وعظم الحاجة ، وغزارة العلم ، وقد كتب لها النجاح التام كما كتب في اقليم « اذريبجان » .

وقدر أن يضم هذين الاقليمين الى تبعية الكنيسة الخضراء بتسكريت ،
تحت رعاية الميراني ماروثا .

وبينا كان قلق الناس على سطيح يزايد ويتضاعف من جراء غياب
الذي استغرق اربعة شهور ، إذ به يصل على حين غرة ، دون أن يعلم به
أحد غير صاحب الزورق الذي نقله من الضفة اليسرى الى اليمنى من نهر
دجلة ، والرجل الذي تولى الحصان لاجتياز النهر المذكور بالسباحة ،
ولسكن الخبر لم يبق مستراً أو مكتوماً ، بل انتشر في المدينة وعلم به
القاضي والداني ، وخف الناس الى قصر سطيح يبحر به ، فطافوا بالقلمة (١)
للاستطلاع والتأكد من صحة الخبر برؤية سطيح ، لعدم اطمئنانهم
ووثوقهم من مدى صحة الخبر ، وكانت قبيلة أباد أسبق الجموع الى حج
قصره والطواف حوله ، أما زويدة فقد كانت أول من تشرف ببقائه
عندما اعتذرت بالخروج من قصر عامر بمدر قضاء بعض الحوائج وشراء
ال لوازم من السوق السكائن في الشمال الغربي من المدينة ، فمرت ببقائه كما

(١) تلك القلمة التي ظلت تقاوم الاعتداء مدة طويلة من الزمن ، فقد كانت
خير حصن وقد اشتهرت زمن « يوروز » وهو « ابو الحسن يوروز بن عبد
الله » خادم السلطان مسعود السلجوقي لانه كان يعتمد عليها عند الحاجة ، وقد وضع
عليها من قبله حينما كان يتولى شعبكبة بغداد . شاذي جد صلاح الدين وأولاده
« اسد الدين شيركوه » ونجم الدين أيوب » وشاذي من بلدة دوين في اذربيجان من
أصل كردي تزوج من تسكريت مع أولاده حينما قتل ابنه احد أبناء النصاري
البارزين في المدينة ، وكانت القلمة محبباً لمن يسخط عليهم ، وقد سجن فيها العزيز
ثم قتل هناك . راجع :- (١) مختصر مرآة الزمان ص ٨٦ . (٢) وفيات ص ٨٥ : ١
(٣) السكامل ص ١١ ، ٤٢٥ ، ونوارببخ آل سلجوقي ص ١٦٧ .

فرحت بسلامته ، وقد فرح هو الآخر بها لأنها وافته ببعض اخبار
« سلسي » وقد صدمته قبل ان تهم بالخروج بقولها :-

فشت جميع الاعمال التي عملتها ، وقد خابت كل التدابير لقوة رابطة
القلبين برباط الحب المقدس الذي لا تنفصم عراه ، رغم الاحداث الجسام
وتعاقب السنين ومرور الايام ، فالطرق السلبية التي سلكتها في تأديسة
مهمتي لم تجد نفعا ولم تثمر الثمر المطلوب ، لان الحب رائدها والاخلاص
ديدها والتضحية من ملازماتها ، ولو اتبعت الطرق الانجائية انا وغيري
لما استطعنا ان نفرق بينهما ، لأنها لا يفترقان ما داما على قيد الحياة .

قالت ذلك واستأذنت من سطيج بالانصراف خوفاً من ان يشتهيه في
أمرها من جراء تعطيلها وابطائها ، أو خوفاً من ان يعرف أحد أمرها

— ٢١ —

وفي الصباح كثر اللغط في المدينة وعلا الصياح والضجيج فرددت
الحيطان والجبال أصداه الاهازيج الشعبية التي ملأت الاجواء ، فتطلع
الناس الى تلك الاصوات وتسمعوها ، فتطاولت الاعناق من السطوح
والنوافذ الى الشوارع والازقة لاستجلاء الخبر ومعرفة الباعث لسكل ما
يسمعون ، فلم تطل مدة تلهف القوم الى معرفة الاسباب حتى رأوا
موكب سطيج يخترق الشارع الرئيسي في المدينة من اقصى الشمال الى
الجنوب متجهاً الى الكنيسة ، ورأوا أياكاً تحتفل بعجي. زعيمها سطيج
وتحتفي به وهو في طريقه الى « مارونا » ليطلعه على النتيجة المسرة التي
ضائق ذرعاً بسجن الصدر الذي ضمها عدة شهور .

ولم يكذب بصل الكنيسة ويترجل حتى أوعز الى المحتفلين به ، بان

يخلدوا الى الهدوء والسكينة ، لانهم قرب الكنيسة التي تقتضي قدسيتها واحترامها الى الهدوء . ولما دخلها رأى عامراً وبقية وجهاء المدينة قد سبقوه ، لانهم اوجسوا خيفة على الكنيسة مما سمعوه ، ثم استقبلوه الاستقبال الحسن ، وهنأوه بسلامته وكمال صحته ، وما ان استقر بهم المقام حتى بدأوا يسألونه عن مدى نجاحه بمهمته ، وما جابه من المصاعب والاختطار وهو يرد عليهم ويشرح لهم ، حتى سرى قضية سفره أثناء وجوده في تلك البلاد وما عمله من الاعمال التي أثمرت النجاح والتوفيق الذي يشهده كل مسيحي أو كل من يفرح بخير الانسانية واتخاذ البشرية من الجهل والظلم وايصالها الى مراتب السعادة ، وحقوق الرفاه ، لأنه قد عمم الدين على جميع اهالي اذربيجان ، فبذيت الاديرة والكنائس واتخذت مدارس لمن طلب المعرفة وتمشق الدين وأراد العلم ، وبالإضافة لما أبداه من الجهود التي تمخضت عن هذه النتائج المصرة ، فإنه قد ثبت ان كان الدين وقوى دعائه في بلاد « هرات » بمساعدة المبشرين الاكهفاء الذين ارسلهم لتحقيق هذه الغاية ، وقد وصلت منهم الاخبار التي هي من الاهمية بمكان يستحق الاعجاب والتقدير ، وذلك انهم عملوا على تنوير أهل الاقليم بمصباح الدين فهدوهم الى السعادة والاطمئنان والسلام .

فلحمت عيننا المفريان وبدت على وجهه علامات البشر والحبور فقال :-
الحمد لله على ترفيقه اياك ، وصيانتك لك مدة غيابك التي افلقنا مدتها الطويلة . فاجابه سطيح وقال :-

لم أعمل مدة اقامتي هناك الا لاجل ان انشر لواء الدين فوق كل من استوطن تلك الاقاليم ، كي أرى حال القوم وهم يتفكرون بظله ، لأقارن

بين وضعهم القديم ووضعهم الجديد ، فاطلع على مقدار استفادة القوم من الدين في حياتهم الاجتماعية والروحية .

- وهل شاهدت تبديلاً محسوساً ملموساً عندهم ؟

- أجل يا سيدي الميرزا ، رأيتهم قبل ان يعمر الايمان قلوبهم مشردين مشقتين ، تتقاذفهم الايدي المابثة التي لا يمنعها من انتهاك الحرمات ذمة ولا وجدان ، ولا يحاسبهم على ما يقترفون من آثام ويعملون من رذائل ضمير ولا شرف ، لانهم قساة عتاة ، لا ترق قلوبهم ولا تلين ، مهما عظم الخطب وتجمست الفادحة ، فضعيفهم مغلوب على امره ، تستبد به القوة ، وينفرد باستعباده واستخدامه الجبروت والظلم ، فالانانية وحب الذات قد طغتا على بصائرهم فاعمتها ، وحجبت عنها شعاع الرحمة والشفقة ، فزاغوا عن جادة الحق ، وتاهوا في قمار الجهل حتى تفرقوا ، وتشتتوا بعد ان فقدوا روح التضحية وعاطفتي المودة والاخاء .

أما الآن فقد نزعوا ما في قلوبهم من غل وطمع وجشع ، ولم يبق للانانية عندهم الا ظلها الخفيف الذي على وشك التلاشي والزوال ، فتبدل شعورهم تجاه بعضهم وتجاه بقية الناس ، لان روح التعاون والتآزر قد ساقتهم الى الائتلاف والتآخي ، ليشدوا ازر بعضهم البعض لمقاومة تيارات الحياة الجارفة والقضاء على من يهددهم ويتربص بهم الدوائر ، وذلك عندما وردوا مناهل العلم فاستمذبوا حلاوة الايمان بقوة مذهبهم ودينهم فتماهوا مع بعضهم دون ان ينظروا الى الفروق الاجتماعية التي خلقها الظلم وارجدها الاستبداد في صحارى الجهل والفقر .

فانبسطت أسارير المجتمعين ، وفرحوا بما اخبرهم به «سطيع» ، فاراد

«الميرزا ماروثا» ان يعبر عن بعض شعوره وقال :-

بارك الله فيك واكثر من امثالك يا سطيح ، فانك وعامر قد نلتما باستحقاق وشرف لقب « فارسي الكنيسة وحاميها » وان هديتي هذه لضئيلة تجاه غزارة عملك . قال ذلك وقدم له صولجاناً من خشب الابنوس مطعماً بالذهب والفضة ، يفتني من الاعلى بقبضة كبيرة من الذهب بشكل صليب . طعم بالصفد البراق والمرجان الاحمر والعاج النقي .

فتناول سطيح ، وقد طبع على يد المفريان قبلة الشكر والتبرك . ثم توالى عليه الهدايا من كل من ضمهم مجلس الكنيسة أما هدية عامر اليه فكانت سيفاً يمايك بقبضته الذهبية ، وجواداً ادهماً من خيرة جباد قلوب ، وجلباباً حريرياً .

وقبل ان تنتهي الجلسة ويتفرق القوم تقدم الراهب « مارين » صاحب دير « مريخنا » من سطيح وطبع قبلته على جبينه وقال : -

هذه هدية من لا يملك من حطام الدنيا ، ما يستوجب الاهداء . لئلا تقبلتي هذه ستكون عربون الود والاخلاص لك يا بني

فتناول سطيح يد مارين وطبع عليها قبلة الاجلال والاحترام ، فضمها الاعتراف بالجميل والشعور بالود الابوي وقال :

اشكر لك تعطيك علي وتنازلك من برج قد استك الى ثرائي . قال ذلك وقد شعت بسمة الأمل على قمره . وتعامل من حسن المصادفة التي جمعت بالراهب مارين بالامس واليوم .

وما أن خرج المجتمعون من الكنيسة واطلوا على الساحة القريبة حتى رأوها غاصة بالجوع المتجمهرة زاخرة بهم . وقد ارتدوا خيرة ما ادخروه من الثياب التي تختلف وتباين حسب اختلاف طبقات المجتمع من الوجهة

الاقتصادية أو حسب اختلاف أذواق الاشخاص أو حسب اختلاف مادة صنع الملابس واللون والزخرف .

فلم يكذب ينزل المجتمعون مدرجات الكنيسة الى ساحة الاجتماع ويعتلون صهوات جياذهم حتى قفز المجتمعون المتجهرون الى ظهور خيولهم فامتطوها وسارت كل قبيلة في ركاب اميرها ، تفخر على القبيلة الاخرى بصورة المداعبة والمرح بسيدها بواسطة تلك الهازيج التي يغنونها . ولكنهم رغم اختلافهم بالزي والملابس وتباينهم في الانساب والانهاء فقد اتفقوا بالمقيدة والمبدأ والشعور والاحساس .

ولم تمض إلا سويعات حتى هدا القوم ، فانقطع اللغو والضجيج ، وخيمت على المدينة سحابة الهدوء التام والسكينة الشاملة . لأن حرارة الطقس حجرتهم في بيوتهم ، ومنعهم من الاسترسال في مراحهم وفرحهم . فانقطعت حركة المرور في شوارع تكريت وازقتها ، لشدة الومج الحار . وقد استغل فرصة انقطاع الناس عن السير ذلك الشيخ الذي التف بأرديته السوداء ، وتبرقع بجلبابه ليجتمع عنه حرارة الشمس المحرقة وسار بمفرده في بطة وتودة ، لان مرور الاحقاب الكثيرة من السنين قد أناخت كل بكاه وقصرت خطواته ، حتى وصل قصر سطيج بعد أن قضى في طريقه ثلاثة ارباع الساعة . فدخل دون استئذان أو تريث ، لكونه من الرهبان الذين يتمتعون بالقداسة المبجلة ، وكيف ينع من الدخول وهو الأب « مارين » صاحب دير « مريخنا » ؟

ولما دخل على سطيج رحب به وأجلسه على مقعد وثير الفراش . لكن مارين كره اطالة جلوسه بين اعيان البلد وقواد الزوم . لأن وقته لا يسمح له بذلك . كما ان مهمته لا تدعه بصرح بمره أمام الجالسين .

لذلك اتفرد بسطيح وأسر له بوضع كلمات ، رد عليه سطيح مصرحاً
وقال : -

اشكرك ايها الأب الجليل على تطلقك واهتمامك بي . ارجو أن
تتصرف كيفما شئت فلك الخيار بالامر لأنك صاحبه .

نقادره « مارين » وهو يردد هذه العبارات : -

« حرم من الحب فيجب أن لا يحرم من الجاه والسلطة والمنزلة
الرفيعة » . وبدلاً من أن يتجه الى دير « مريخنا » فقد اتجه الى كنيسة
الخضر ، ولما وصلها ودخلها وجد المقران ماروثا جالساً في العرة المظلة
على دجلة . وهو شارد الذهن زائف البصر يسرح في اللانهاية . وقد
استوى واقفاً حينما شعر بمقدم مارين ورحب به واجلسه بجانبه . فتبادلا
الكلمات وتذاكرا في الجهود التي قدمها كل من عامر وسطيح في سبيل
نصرة الدين وتمزيقه . وقد رأى مارين الفرصة تناسبه لنقض ما أمثله من
الافكار والخطط التي رسمها في مخيلته . فقال : - رجعت اليك دون
أن اعبأ بالطريق او اهتم بحرارة الطقس ، لأبارك لك في احرازك على ثمرة
جهودك الناضجة الطرية ، التي نالت الاعجاب واستحققت التقدير ، لأنك
قد نورت القاصي والداني بهذا الدين وهديتهم الى مافيه صالحهم بمعد
اصلاحهم .

فاذا نذكر من فضائلك وجهودك ونترات انعامك التي كثرت . انذكر
ترتيبك ابرشيات : - « عاقول » الكوفة « للعرب ، وسنجار ، ومعلثايا ،
وازن ، وحومل ، وبارامان أو بوازيق ، وخرما ، وبافردى أو جزيرة
ابن عمر ، وبانوهدر ، وفيروز شابور ، وشهرزور ، وابراشية العرب

ثم أبرشيات اذربيجان وسجستان وهرات وافغانستان وخراسان ؟ (١) أم نذكر كتابك الذي سجلت فيه تفسير الانجيل (٢) فقدّمته خير هدية للعالم المسيحي ؟ أم نذكر الاربعة والعشرين قانوناً ؟ أم كتاب الجدل (٣) الذي تناولت فيه النساطرة والتخفّفات (٤) « الابتهاالات » التي اعدت بواسطتها روعة كنيسة المشرق . أما بناؤك للكنيسة الخضراء ، فذلك خير خدمة أدتها لأهل تكريت الذين افتخروا بك وبها على غيرهم . لكونهم اصحاب كرسي المشرق على تلك الابرشيات ومنتهم بتلك السلطة الروحية العظيمة الشاملة .

وبالرغم من هذه الاعمال الجليلة التي انعمت الخبير والصلاح اللذان هم قسما على جميع الاصقاع التي امتد اليها سلطانك . فانك ذلك الهادي الساكن . فرد عليه المريان وقال : -

وماذا تريد أن أفعل يا أخي ؟ هل اطلب وازم وأملأ الدنيا صراخاً وزجرجة ؟ اني لا اريد أن يقال عني عمل كذا وكذا .

- ولكن على الاقل نخبّر رؤساء كنائس اليعاقبة ولاسيما رئيسي كنيسة « الرقة وانطاكيا » لقمر استاذك الريان « فاودور » وغبطة البطريرك « يوحنا الثالث » ليمنعاك وأهل المدينة شرف الانعام . وليذكر مطيع وعامر وعلما عندهما ليستحسننا عملهما كي يتسابقا في الفضيحة والعمل الصالح .

- لا خير في عمل يتوخى المرء من ورائه شكراً أو اكراماً .

(١) ذخيرة الازهان ص ٣٢٤

(٢) راجع كتاب اللاؤاؤ المنشور ص ٢٨٠

(٣) راجع كتاب اللاؤاؤ المنشور ص ٢٨٠

(٤) راجع كتاب اللاؤاؤ المنشور ص ٢٨٠

- لم أقصدك بالذات بل لمن ناضلوا وكافخوا من أبناء البلد لينالوا شرف
الامتياز على غيرهم عندما يلمسون شرف الانعام .

- أظن الاخبار قد سبقتنا اليهم ، لذلك فاني لا أرى حاجة في الكتابة .

- أنا واثق من ذلك ولكن غايي تأكيد الاشاعات برسالة منك .

- نحن ننتظر استفساراتهم ان كانوا في شك بما طرق اسماعهم من

صدى اعمالنا . أو لشكراتهم التي نحن في غنى عنها ان كانوا متأكدين
واثقين بما سمعوه .

- انه رأي مصيب ايها المفريان .

وبعد أن تصافحا . خرج مارين وقد دفمته آماله التي تراءت له الى
السير الحديث بخلاف عادته بالرغم من عجزه . ولما وصل الدبر انقرد في
غرفته بعد أن احضر بعض اختتام الاساقفة والرهبان الذين تولوا رئاسة
الدير أو حلوا به .

ولم تكد شمس ذلك اليوم تختفي وراء ذلك السور المتعالي حتى خرج
من دير « صربخا » فارس متلثم يتستر بجنح الظلام الذي اوشك ان يغطي
مدينة « تكريت » وحث مطيه الى الاسراع بعد ما ودعه وأوصاه
« مارين » وقال :-

احترس من أن يراك أحد من الناس ، ولا تذكر ما اوصيتك به لأحد .
وقد شاهدت « سلمى » ذلك وسمعت ما دار بينهما حينما كانت تودع
الشمس المحتضرة وهي على سطح دارها المجاورة للدير المذكور .

صرت هذه الحادثة أمامها ، وكأنها كبقية صور الحياة المتحركة أمام
الاحياء لا تستحق التفاناً أو اهتماماً . ولم تدرك انها ستغير بعض الميول

والاوضاع التي تخصها وتتماق بحياتها ونزعتها ، وقد طواها الامل في صدرها والتمسيان في ذاكرتها .

— ٢٢ —

وفي أحد الايام التي كان الربيع يتأهب فيها الى الرحيل . خف أهل تكريت نحو الكنيسة مهرواين يقسمون عن سبب قرع النوافيس في هذا الوقت الذي لم يعتادوا فيه سماعها لا برنينها المعتاد ولا بذلك الرنين المبهج بعد تلك الدقات السريعة التي ان دلت على شيء فانها لا تدل إلا على فرح وابتهاج مفاجي . حدث في الكنيسة .

ولم يمض طويل وقت حتى اجتمع الناس في الساحة الغربية من الكنيسة يتطلعون الى الاخبار ، ويستفسرون عن الدواعي والاسباب ، بتلف واشتياق ، عندما تذهب صبرهم وتبليت خواطرم وافكارهم ، وما هي إلا فترة قصيرة قضاها المجتمعون بالانتظار في تلك الساحة ، وقد حسبوها دهرًا طويلًا ، حتى برز لهم « المفران ماروثا » بطوله الفارع وجسمه الممتلئ بالصحة والنشاط ، ووجهه المنبلج الذي يشع بالبشر والوقار ، وجبهته العريضة التي تسطع بالجلال والمهابة ، ولحيته البيضاء المسترسلة على صدره . برز امامهم وهو يسير ببطء وتؤدة ووقار يتبعه رجال الكنيسة الذين يختلفون في القرب والبعد عنه حسب اختلافهم في صرا كرم ومنازلهم الكنسية . وحينما جلس على انحنى المقاعد التي كانت معدة لهم من قبل ، خيمت على المجتمعين سحابة الهدوء والسكينة ، هيئة من جلال الموقف وزواعة ومنزلة « المفران » في نفوسهم ، وانتظاراً لسماع الخبر المهم الذي أقلقهم فاجتمعوا من اجله ، يصدر من فم المفران .

لكن سحابة الصمت قد مزقتها صيحة عالية من الورا. على أثر صوت سنابك الخيل :- « وسعوا الطريق للامير ». فالتفت الناس صوب الصوت فرأوا كوكبة من الخيالة يتقدمهم شاب ابيض اللون طويل الشاربين ، خفيف اللحية ، أسيل الخدين ، حاد النظرات ، يمتلي صهوة حصان ادم يتوثب من تحته ، عليه شغوف حريرية حمراء مطرزة بخيوط ذهبية براقه ، فوقها مرج روماني مزركش ومرصع بالاحجار الكريمة والذهب .

فوسم القوم طريقه ، وسار في وسطهم يود تحياتهم بكبرياء وتكاف. ولم يلبث أن ترجل وأصحابه وصعد مدرجات الكنيسة ، فادى التحية للجميع بعدما ثم يد « المفريان ماروثا » ثم أخذ مكانه باقرب منسه ، وجلس بقية رجاله مع بقية رجال الكنيسة . وما هي إلا فترة قصيرة صرت على محبي ذلك الشاب حتى تكامل اجتماع بقية قادة الجيش ووجهاء المدينة عدا عامر الذي انتظره المفريان كثيراً ولما يئس من مجيئه نهض وقال :- ايها المجتمعون الكرام ، لا شك ان السبب في حضوركم هو قرع التواقيس في غير ماعهدهم من الاوقات ، وبخلاف ما كنتم تسمعون من الدقات .

فرد عليه الامير وقال :

نعم ايها الاب الكريم ، فقد دهشت وخفت على الكنيسة من ان يلزمها مكروه لا سامح الله بذلك . فمضى ان يكون الباعث خيراً .
- فيه الخير والصالح يا صليح .

قال ذلك بعد أن تهلل وجهه بشراً وانبسبت أساريره فرحاً ، واقترب

تفره عن ابتسامة تلاشت بين ملامح الوقار والهيبة . ثم استأنف حديثه وقال :-

كلكم يعلم بالثقة العالية التي منحنيها غبطة بطريرك انطاكيا « يوحنا » والربان « ناودور » ربان كنيسة « الرقة » حين جعلاني رئيساً لكنيستكم بناء على اقتراح الزملاء من اساقفة كنائس البعاقبة . نفوت الاشراف على اقامة شائير الدين في وادي الرافدين . وبفرس بذور العدالة والايمان والشفقة والرحمة في ربوع انحليها الظلم واجدبها الكفر ، وايبسها الجهل والفقر والطغيان . ولم تقف هذه الثقة بي وبكم وبكنيستكم عند حدها ، بل تعدتها الى أبعد من هذا ، فبانا غبطته بالنزلة التي نحسد عليها ، فأجلاسنا بالمكان المرموق ، اذ جعل هذه الكنيسة « الكنيسة الخضراء » مركزاً لكرسي المشرق وثاني كنائس البعاقبة بعد انطاكيا من حيث الاهمية ، جزاء لما قدّمته للدين المسيحي من رواج ، وما أبدته من الحرص الشديد عليه . نتيجة جهودكم الجبارة التي اشاد بها غبطة بطريرك انطاكيا ، فمعظم من شأنها . وقبل أن يختم رسالته فانه يوجه شكره الجزيل وتقديره العظيم « لعارس الكنيسة وحاميها » الامير « سطليح » بناء على ما ابداه من الاعمال الفذة التي عادت بخيراتها على الدين فوسعته ونشرته في تلك البلاد التي لم تنور بمشعله لولا جهود ذلك البطل .

ومع الاسف الشديد ان غبطته لم يتطرق الى ذكر اسم عامر مقرونا بالخدمات الجليلة التي ابداه ، والايايدي البيضاء التي اسداها الى الدين والكنيسة ، بعد ان طوح بحياته في تلك البلاد النائية فيكان أول من شجع على بث الدين بين طبقات مجتمع الشرقيين . وهو إذ يختم رسالته فانه يختمها بالشكر والثناء لكم على ما ابديتموه .

من شعور وقدمتموه من خدمات لدين . . .

وهكذا تضال صوت المفران وقـ انعدمت آخر كلماته بين هتاف
الهاوتين وصيحات المنادين بحياة البطريك والمفران وسطيح ، ثم انبسطت
أسارير القوم وابتهجت نفوسهم كما انشروحت صدورهم ، فردت عليهم
نواقيس الكنيسة بالزئير المبهج ، وجاوبهم الاساقفة بالترتيل والهيمنة
بـ « التخشعات » التي ابتدعها المفران ماروثا مـ « تخشعات » رابولا ،
اعراباً عن فرحهم ، واظهاراً لمرورهم ، الذي ملك عليهم مشاعرهم
واحساساتهم .

فانصرف بعضهم والفرح يحدوهم والابتهاج يسوقهم ، ليلفقوا النبأ
لمن اقدمهم المرض كي يشاطروهم الافراح ويشاركوهم الغبطة والبهجة ،
فزيلوا الشكوك والريب عن المتخلفين المقعدين الذين اقضت مضاجعهم
نواقيس الكنيسة التي قرعت في غير مأوفها من الاوقات والقرعات .

ولم يق في الساحة إلا بعض الشبان الذين يفتنمون الفرص المناسبة
للتعبير عما تنطوي عليه نفوسهم المرحّة من مرح وغبطة ، فانظموا في
حلقات متمددة ، وراحوا يغنون ويرقصون .

وبمثل مريان الرعدة في الجسم ، سرى النبأ في المدينة عندما رجع
الناس من الساحة والفرح يعلو صدورهم ، لذلك لم يبق أحد في المدينة
إلا وتسرب الفرح الى صدره والابتهاج لنفسه ، إلا تلك الفتاة التي
كانت واقفة خلف المحتشدين ، وقد سمعت المفران يخبر الناس بمضمون
رسالة « البطريك » ، وفيها انعامه عليه وعلى الكنيسة وسطيح الذي
منحه لقب « حامي الكنيسة وفارسها » بالاضافة عن منح المفران له
ذلك اللقب من قبل ، فـا كانت من الفتاة المذكورة الا وصمقت بهذا

الانعام ولا سيما الاخير منه ، ولولا فرحها بالانعام الاول لما عندها من
الحب الشديد للدين لأفقدتها الانعام الاخير زمام نفسها وقيادها ، لان
عاطفة الحقد والسكرامية لذلك الامير الذي نال شرف انعام الكنيسة
قد تيقظت عندها ونشطت ، وقد ساء لها ما سمعته وخصوصاً حينما علت منزلته
وعظمت سطوته وازداد نفوذه ، فكان الباعث على عظم اضطرابها
وازدیاد قلقها ، وازدهام الافكار والاخلية في رأسها ، وتراءت لها الاشباح
الخفيفة والمفرقة ، وقد ايقنت بأنه سيستعمل سلطته الروحية بعد ان فشل
باستخدام سطوته وسلطته الاجتماعية في ارغامها على الزواج منه ، فاضطربت
هذه الافكار في رأسها ، وتضاربت تلك الوسوس في قلبها ، وازدهت
الاخلية البغيضة في مخيلتها . لكن حب عاص انقاذها من الموقف ، فقادها
الى كنيسة الحب في قصره ، وسارت مطأطأة الرأس ، ثقيلة الاقدام ،
قصيرة الخطى كأنها كانت ترزح تحت حمل ثقيل ، انقل كاهلها فمعل
مشيتها ، ولم تلبث في سيرها الا قليلاً حتى دخلت قصر آ عالي البنيان
كثير الشرفات متين الجدران ، قد افرغ فيه ما في الطراز الروماني من
روعة وجلال وجمال وزخرفة ، يانة بأثمارها ، معطرة مزدانة بورودها
وازهارها ، فتقدمت من الخادم عند ما استقبلتها بالتحية والاحلال ،
فسألتها وقالت :-

ابن سيدك يا « زوبعة » ؟

- بانتظارك يا سيدتي ، في الغرفة المعدة لاستقبالك .

- هو هناك بكامل صحته وسلامة حواسه ؟

- أجل يا سيدتي والحمد لله .

ولما سمعت « سامي » كلامها اعترتها نوبة عصبية حادة من الغضب

فتسكمت وهي لا تقدر ان تمسك زمام اسانها بعد ان فقدت السيطرة على عقلها وقالت :-

النواقيس تقرر ، وقد خف الناس الى الكنيسة من كل حدب وصوب ، وعاصروا في غرفته ساكن هادي ؟ كان أملي به ان يكون أول الملبين لنداء الكنيسة ، والناصرين لها لانه « فارس الكنيسة وحاميها » أبلغ به السكسل الى هذا الحد واستسلم الى الراحة والهدوء ، ثم ترك « سطيح » الايادي يحظي بشرف انعام الكنيسة ..

فقاطعتها زوبعة وقالت :-

مهلاً سيدتي مهلاً ، فلا تظني بسيدي هذه الفنون ولا تهنيه بالسكسل والجنول فسيدي الذي اضجره انتظارك قد استسلم لسلطان النوم الذي منعه سماع النواقيس وقد سأل عنك بعد استيقاظه ، فأخبرته بذهابك الى الكنيسة مع من ذهب ، فأبدى استغرابه ، واطهر دهشته وعجبه وقال :-

ومن اعلمك بذلك ؟ فقلت له :-

لم يبق في المدينة فرد سمع قرع النواقيس في تلك الحالة وذلك الوقت الا وخف مهرولاً الى الكنيسة ، يستجلي الخبر ويستظلم الامر ، ولم يتخلف الا من كان نائماً أو مريضاً أو مقعداً ، أو مقيداً بقيود العبودية مثلي .

فأكتفى بارسالي لاستقبالك كي تسمعيه الخبر ، وتعلميه حقيقة الامر لان غضبه عليك من جراء تخلفك قد لزداد وتضاعف ، وقد ابى ان يذهب الى الكنيسة .

- والآن يا زوبعة ؟

- هو بانتظارك يا سيدني ؟

- ٢٣ -

صعدت « سامي » السلم متوترة الاعصاب ثائرة العواطف ، شاردة
اللب ، منهوكة القوى ، مبهورة الانفاس ، ولم تسكد تصل الغرفة حتى
دخلتها دون استئذان عندما وجدت بابها مفتوحاً .

فما كادت تاج فيها وتقع عيناهما على حبيبها « عامر » وهو على تلك
الحالة التي وصفتها زوبعة من الاضطراب والقلق ، ولما رآته كذلك غلبت
على امرها حينما اجتاحت موجة حبها العارم جميع عواطفها ، فغرق
ثورتها النفسية ، وطمرت جميع معالم حدثها وغضبها ، لكن هذه الموجة
المجتاحة عجزت عن اخضاع النار التي اتخذت قلبها موقداً وحناياها وقوداً ،
فالتقت بنفسها بين احضان عامر وراحت ترأشف من ثغره رحيقاً ،
لتطفيء به وقدة الحب الذي صعد لهيبه على ثغرها فلهب شفتيها .

ولما رأى عامر نفسه وبين احضانه معبودة قلبه ، ومتميمته ، بقوامها
الخيراني ، ومطوقاً بذراعيها الغضين البضين ، وممانقاً ثغراً شفاهه
جلنارية وأسنانة لؤلؤية ، ومحددقاً بمينين غزاليين ، انحل ما كان متوتراً
من اعصابه ، وسكن ما كان ثائراً من عواطفه ، ونسي ما كان يخامر
من الافكار والهواجس فثمل من اريج ورد الخدين المطر ، وخمرة الثغر
العذبة الصافية ، فهم بان يقطف من الصدر رماناً ناضجاً طرياً ، لكن
« سامي » انتفضت بين احضانه انتفاضة البهوة ، وفرت منه نفور

الظلي ، ووقفت أمامه وقفة الهزبر ، لان همومها وآلامها قد ايقظتها من غفوة الحب فخرمتها نشوة اللقاء ، وعادت اليها كبرياؤها ورجع لها غضبها .

أما عامر الذي رأى ما لم يكن يتوقعه ، فقد ذهل من ذلك وعجب .
 فأصبح في حيرة من أمره ، وبقى في محله ساكناً واجماً لا يدري ماذا يقول ، ويعمل على الرغم من اعتقاده بنفسه انه لم تصدر منه بادرة سيئة تجاهها أو ما يسمي الادب والتصرف .

وقد لاحظت « سامي » اضطراب عامر وتبدل سحنة وجهه وتلونها بعدة ألوان بين حين وآخر ، فمز عليها ان ترى حبيبها بذلك القلق والاضطراب فرقت عاطفتها بعد ما نبذت افكارها واخيلتها فعمادت وارتمت بين احضانه ثائية وقد تسلمت بسلاح « حواء » اذكاه لئلا الشوق التي تخاف فتورها في قلب حبيبها عامر ، فأخفت رأسها في صدره لتخفي دموعها ، وتسكبت بكاءها الذي تسلمت به ، وعبثاً حاولت ذلك ، فمرعان ما عرف عامر امرها ، وقد تحقق ذلك بعد أن رفع رأسها ، ونظر الى دموعها ، فحن جنونه ، ومطار صوابه وقال :-

« سامي » ، « سامي » ما بك ؟ من ابكاك ؟ من اسال دموعك ؟ بالله

عليك يا سامي خبريني عن سبب بكائك ؟

فردت عليه سامي وقالت بصوت منهدج متقطع .

لا ... ش ... يه ... لا ...

فتلهف عامر الى الخبر وقال :-

بالله قل لي ، ما الخبر ؟

اني ارى حالتك لا تبعث على الارتياح ، هل اصابك أحد باذى ؟ أم

سمعت خبراً من عجاً؟ أم قرع النواقيس في الكنيسة كان نقيجته الحسارة
الجلبي والغادحة العظمى؟

— لا شيء غيرك يا عامر ، فانت أس بلائي وسبب بكائي ، قالت ذلك
بعد ان تمسكنت من كبسح جراح هذه العاطفة المتأصلة فيها وبيدات جلسها ،
ثم استرسلت في الحديث وقالت :-

أنت وحدك الذي خيبت آمالي ، وميجت أوجاعي وآلامي ، أنت
الذي تحلم بالعلياء ، وتريد المجد والسؤدد ، ولسكنك حينما تتاح لك
الفرصة ، تتركها وترضى بهدوءك وراحتك ، لأن السكسل والتقاعد قد
كبدك وقيدك .

انك لا تحسن اغتنام الفرص التي تواتيك بها الايام ، كبراً منك
واعتماداً برأيك ، في هذا اليوم انقضت الغيوم الحاجبة لنجم عزك
وسعدك ، فتلاً وتأجيج ، ولسكنك اسدلت بينك وبينه حجباً مميكة
واستاراً كثيفة ، كي لا يمنعك بصيصه من النوم ، ولا تحرمك جبال نوره
الواهنة من الاحلام الملهمة ، لذلك مات مجسّدك ضحية نومك ، وخاب
أملك نقيجة كملك ، وتحطمت أحلامي وأحلامك على صخرة منافسك
ومسابقك وسالب المجد منك . . .

فقاطعها عامر وقال :-

مهلاً عزيزتي مهلاً ، أرجو أن نهدي من نورتك ، وتسكني حديثك
لتتدبري معنى كلماتك ، فاني لم أكن ممن يبني القصور في الهواء ، ولا
ممن يعتمدون في ادراك أمانهم ونوال غايتهم بـ « ليت وعسى » ، وانما
انا امرء أنت أعلم الناس به ، أسخو بدمي في تحقيق أحلامي ، وأضحي
بجواني في سبيل نصرة من طلب معوقتي ومؤازرتي ، لأن غايتي من الحياة

نصرة الضعفاء ومساعدتهم لاستبواب الامن ، ونشر لواء الطمأنينة والسلام
فلا تسمي الظن بي من جراء عدم حضوري الى الكنيسة في هذه الساعة
أو في الاوقات التي قبلها .

فالمجد ياسلمى لا ينال بالملق والتبصيص والرياء بعد الذلة والمخاتلة ، وان
مجداً ينال بهذه الوسائط لا يدوم ولا يستمر بل سرعان ما تتناول عليه
أيدي الدمار والعفاه ، لازالته ومحوه من عالم الوجود ، لانه لم يكن
نتيجة التضحيات الجسام بعد السعي المتواصل والاقدام المستمر .

وحوادث الدهر يا حبيبتى لا تستمر على حالة واحدة أو تبقى في شكل
ثابت لان الايام تبدلها وتغيرها ، فان عرفت الشهرة منا واعرضت عنا ويمت
وجهاها شطر غيرنا ، لتتحفه بما تلهف اليه في هذا اليوم ، فسنقودها مرغمة
اليها لا حباً فيها وتقرباً لها ، وانما حرصاً على ما نهذف اليه ونطلبه ، وهو
التسلح بالزم الثابت للاقدام على المهالك والاختار فتذليل المصاعب
والاهوال بعد ازالة العراقيل والعقبات التي تقف في سبيل تقدمنا الى
اصلاح البشرية ، وتقوية روابط الاخاء والمودة بينهم ، ليرفلوا بالعيش
الزغيد في حقل السعادة وتحت سماء الحرية والاستقلال الاجماعي . . .
فقاطمته سلمى وقالت :-

اعرف عنك كل شي . يا عامر كما اعلم مقدار شجاعتك وعظم همتك ،
ومدى اقدمك ، واسكن حبك المتأجج في سويداء فؤادي ، وغيرتي
على المجد من ان يحظى به غيرك ممن ليس لهم مؤهلاتك و . . .
وقبل ان تتم كلامها رد عليها عامر وقال :-

سلمى ، ان نار الحب التي تتأجج في سويداء قلبك لمي نفسها ، ان
لم اقل اشد حرارة منها تستقر بنفس المسكن من فؤادي ، وقد دفعني

هذه الجذوة من الحب الى الاقدام على المهالك والاهوال ، غير هباب ولا
وجل بالاضافة عما اشعر به .

فقسرعت سامى وقد التهمت بنار الحب التي هيجهها وجود مشعلها
أمامها فقاطعة ، وقالت :-

الحياة يا عامر لا تحاولي الامعك ، وعيشي لا يطيب الا بقرئك وسعادتي
لا تتم الا بين ذراعيك ، فغيا بك عني ، مجلبة للاحزان وفراقك مني ابعاد
لسروري وراحتي ، فـكن بي رحيماً .

- لقد قلت حقاً يا حبيبتي ، لأن لا يام الطفولة التي جمعتنا في ملعب واحد
اكبر الاثر في احكام الروابط الروحية التي ربطت قلوبنا ببعضها ببعض
وللسنين الطويلة التي قضيناها معاً ، اعظم المفعول في صهر روحينا وقلبيننا
في بودقة الحب العذري الذي لا تشوبه شائبة الاغراض والمقاصد .

كننا يا منية النفس وأنت اعلم بما كننا لا يفرقنا عن بعضنا غير سلطان
الـكرى الذي يعمل هو الآخر على تقارب روحينا في عالم الرؤى والاحلام
وذلك حينما كننا في عهد الطفولة النقي ، وبالرغم من حيلولة التقاليد التي
وقفت دوننا فاننا لم نتفرق عن بعضنا .

وسنبقى يا « سامى » على ما الفناه من حياة اللقاء واجتماع الشمل ،
وسنغذي طفل الحب الذي نشأ في قلوبنا بلبان الوثام والانسجام حتى
يصبح جباراً عتياً يعمل على ربطنا برباط الحب المقدس الذي تسكله
الملائكة ويباركه الحب .

وما كاد ينتهي الى هذا الحد حتى التفت الى « سامى » فوجدتها
مرتبكة قد تضرجت وجنتهاها بحمرة الخجل والحياء ، لان حرارة الحب
المتهمبة التي كانت تنبعث مع كلمات عامر قد لقعحتها ، فسترت وجهها

بيديها تربد اخفاه خجلها واتقاء حرارة السمكات التي لم تقدر على مقاومتها
ومجابهتها ، رغم تسرب الدم في وجنتيها وتغلغله في بشرة وجهها ، ولما
حول نظره عنها تشبعت وقالت :-

اني اشكر الايام التي جمعتنا رغم التباين والاختلاف في منازل الحياة
ورتب المجتمع ، واشكر للحب الصادق الذي ألف بين روحينا وقلبينا رغم
علو مجدك وسمو منزلتك ، وكبر شأنك ، حتى اصبحت لا أطيق فراقك
أو اقدر على بعدك ونأيك . وقد يهون الموت عليّ اذا حان وقت بعدك ،
وقربت ساعة فراقك في الموت يا عامر الراحة للجسم والرقدة للعقل ، واللهو
والمرح للروح من حقول اللانهاية . أما الفراق فففيه ضنى للجسم
واضطراب للعقل ، وعذاب للقلب وحبس للروح .

- اراك يا سلمى ترددين كلمة الفراق كثيراً . تلك الكلمة التي سنمحيها
من سجل حياتنا ان كتبت فيه . ثم تخافين من البعد عن بعضنا بالوقت
الذي لم يختره أحدنا في أي يوم من الايام . ولذلك أرى من الاصلح ان
لا تشغلي نفسك في امور لم تكن في الحسبان ، ولم تذكر حتى في المنام
أو تراودنا في الرؤى والاحلام .

- اجل يا أميري أجل يا حبيبي . اردد ذلك واتخوف مما يخفيه لنا
الدهر ويطويه القدر من الامور المفزعة والاحداث المروعة التي قد تكون
موجهة ضدنا ، لحل روابط حبنا وتخطيم عراه ، وبواعت خوفي هي
ما سمعته من تهديد رسول سطيع لوالدي الشيخ . فيما اذا استمر على
مناعته من تزويجي بسطيع .

- نعم اسمعت ولكنه يا سلمى لم يكن أول تهديد ، ولا أول عمل يقوم
به اذا ازمم تحقيقه أو اخراجه الى حيز العمل والتنفيذ . فقد سبقته اعمال

منزلة كثيرة قام بها سطيطح ضدنا . اظنك تذكرينها وتذكرين البواب .
وانا اذكر ما قاله « ميلوس » رئيس الساطرة في سجستان ، فهل قدر على
أن ينال منا شيئاً يضرنا ؟

اما اذا لجأ الى القوة والقسر واستخدم اتباعه ومريديه في ذلك فأننا
لا نقف مكتوفي الايدي تجاه اعتدائه ، فالشجاعة التي امتازت بها تغلب
لا كالشجاعة التي لأباد . فان كان ولا بد فاعلمنا الآن إلا أن نقابله بالمثل ان
سولت له نفسه أمراً عليك ان تسدي جميع منافذ الخوف والحذر باسمي
وتحملي نور الامن والطمأنينة ببعد ذلك السراب البلقم . واثق هم بأي
اعتداء لأجعلن من المدينة التي سميت الى مساعدتها ، مرجلاً يفور بالدماء
وأجعلن من لحمه ولحم عشيرته طعاماً لسباع الوحش وكواسر الطير .
ولما رأت سلمي ما أصاب عامر من غضب وتأثر اردت ان تخفف من
حدة غيظه فقالت : -

ارجو أن لا تقسح المجال امام الغضب فيتسرب اليك وينال منك
ما قاله الآن . لاني لم اقصد ازعاجك واهانتك او تكبير صفوك بالاشادة
بفضائل سطيطح والتغني بأقواله واعماله . إذ لم يكن هو اشجع منك أو
اكثر حكمة ودراية واطلاعاً . ولكنني اردت تبيان حقيقة جهلها لأنك
في منزل عنها ومنأى منها .

فسطيطح الذي خاب بكل مساعيه ، وفشل بكل خططه التي سعى اليها
ورسما كي يستحوذ علي وعلى قلبي فيعودني الى قصره مرغمة . قد عمد الى
طريقة اخرى ظناً منه انها توصله الى نوال غايته . فأكثر التردد الى الكنيسة
وازداد ملقاً لمعرياتها وأساقفتها ، فغدهم ثم استمالهم فاحبوه وقربوه
ومنعوهم الاوسمة . واغروا بطريقك انطاكية بالموافقة على افراده بلقب

« حامي الكنيسة وفارسها » ذلك القلب الذي احرزته قبله بما قدمته من
 الجهود وما بذلته من الاعمال التي كانت خير خدمة الدين والمجتمع .
 والآن وقد نمل له ذلك فسيستعمل سلطته ومركزه في تسخير السلطة
 الروحية الى تحقيق رغائب نفسه واهواء عاطفته . فيظهر عجزنا أمام سلطة
 الكنيسة وسطوتها وتغودها . لأننا اذا اعصينا أوامرها ولم نخضع لمشيئتها
 فإن العالم المسيحي سينبذنا وبما قبلنا لان الكنيسة ستوجه الينا تهمة
 الكفر والاحاد ثم التمرد عليها .
 فرد عليها عامر وقال : -

لاني قد تخلفت في الايام الاخيرة عن الكنيسة ولم أتردد اليها ، ولم
 يكن تخلفي عنها كرهاً لمفريائها الذي قال اعجابنا وتقديرنا ، ولا بالدين
 الذي اعتنقناه عن طيب خاطر بعد تدبر وامعان . ولم يكن ترددي ضجراً
 أو مللاً من ممثلي العدالة على الارض بعد السيد المسيح . لا هذا يمنعني
 ولا ذلك يؤخرني ، ولكني قد رأيت من الامور والاضاع ما يريني
 ويتركني رهن الريب والشكوك . وخصوصاً في هذه الايام . لان رجال
 الحامية بدأوا ينظرون الينا بعين السخط والاشمئزاز فهم يشعرون تجاهنا
 بالحق والكرهية . رغم تدخلهم بالصغيرة والكبيرة في شؤون المدينة
 والكنيسة ، حتى أن المفريان نفسه بدأ يشعر بالضيق والضجر من جراء
 هذه الاوضاع المزرية ، وذلك التصرف المشين الذي لا يتفق وقداسة
 الكنيسة أو حرية سكان المدينة . فقد أحس المفريان بأن يبدأ أجنبية سرية
 تتلاعب بمقدراته ومقدرات الناس . واني أشك بصحة هذه الرسالة التي
 تسلمها المفريان اليوم وأراها ملفقة . لاني على يقين من ان المفريان لم يتوقعها

أوله بها علم ولم يبشر البطريرك برسالة سابقة أو يخبره بما فتح الله له في بلاد المشرق .

وقد احسست بتغير الحالة من أمد ، فراقبت التصرفات والاعمال عن كثب لذلك سحبت نفسي من مأزق حرج ببسالة ومهارة . فقد رأيت نفسي واقعاً في اشراك الذل والعبودية التي اختار الروم الكنيسة موضعاً لها ، فأبيت إلا الحرية والتخلص من قيود الروم .

ولم يكن هذا العمل إلا نتيجةً لامر عظيم مخفي علينا الآن من شأنه أن يغير في الاوضاع الاجتماعية ، أو نظام الحكم .

فأجفلت سامي من كلام عامر . لأنه طعن الكنيسة وارتاب في أمرها ، وشك في تصرفها وخصوصاً في الايام الاخيرة . حينما اتخذها الروم ملعباً أو شركاً لاصطياد الحرية واقتناص المعدل حسب ادعاء عامر وقوله . فردت عليه وقالت : -

الكنيسة يا عزيزي بريئة مما الصقته بها من التهم . وهي بعيدة عن أحابيل السياسة ، واشراك السياسيين . فهي في منزلة قدسية تتمتع عنها كل ما يراد منها أو يراد بها .

ولكنك تطرقت الى امور تخالف الواقع ولا تتفق والحقيقة . لان سلطان الكرى قهر حواسك وخدر جسمك .

قالت ذلك وأردفت قولها بابتسامة كأفها اشراق الفجر أو بسمة الزهر وقد تلاشت من ثغرها حينما رد عليها عامر وقال : -

انت السبب في سباتي والباعث له ، فطول انتظاري لك جعلني استسلم لسلطان الكرى واغرق في لجج الاحلام الزاخرة بالحوادث الجسيمة التي

ابعدتني عن عالم الحقيقة والواقع ، وذلك حينما عرضت أمام بصري شريط الحياة المليئة بالصور التي اتوقع مشاهدتها في المستقبل .

— ٢٤ —

رأيت فيما يرى النائم ، كأن قتماً قد تصاعد في الجو من الناحية الجنوبية . فإذا به ينكشف عن فرسان يملأون الفضاء ضجيجاً وصخباً . وقد علق بهذا كرتي من كلامهم الصوت الذي كان يدوي في الفضاء وهو « الله اكبر الله اكبر » فتردد الجبال والوديان صدهاء فيمتزج الصوتان فيكونان روعة وجلالاً .

وقد خرجنا للتصدي لهم ، وصددهم عن مدينتنا ، حينما رأينا جهودهم مركزة في الدخول فيها بعد الاستيلاء على ما فيها من الجند بقتلهم أو تشييتهم اذا ما ناصبهم العداة .

وقد حاولنا المستحيل في صددهم عن مدينتنا رغم كثرتنا وتفوقنا ، وقد وجدناهم أشدها شجماً ، يحاربون بلا خوف ولا وجل . فأرواحهم احقر من غثاء في نظرهم . لذلك ارضعناها وباعوها في سوح القتال بأبخس الأثمان وازهدها ، ويظهر انهم أهل عقيدة وإيمان ، لاستماتتهم في القتال والحرب .

وكنتم وسطيح أحسن من قاتلهم وناضلهم ، بالرغم مما كان يساورني من القلق والخوف والاضطراب . حتى كنت سواعدي ، وخرقت قوتي ، وتزعزع إيماني بالنجاة ، وقويت عقيدتي بأنني سأكون في عداد المهالكين اذا استمررت في القتال . وقد اوشكت قوتي ان تنخور ، وعزيمتي أن تقبض وتزول .

وفي تلك اللحظة حمل عليّ مقدم القوم ، وزعيمهم حملة نكراه ، سد عليّ جميع مسالك النجاة وطرقها . فأيقنت الهلاك ، واستسلمت للمصير حينما تجزّت عن صدره أو إبعاده . ولما أصبحت فريسته ، رأي قد تغيرت وتبدلت فأوقف ساعده من أن يهوي بالسيف على هامتي . وسألني عن اسمي ، واسم القبيلة التي انتسب اليها . ولما أخبرته بحقيقة امصري . أظهر دهشته وابدأ استغرابه وتعجبه ، وحدثني طويلاً مستفهماً بنظراته ، ومتعجباً ثم قال : -

عجيب امرئ ايها البطل العربي الخدوع بمظاهر علوج الروم . عربي تغلبي يحارب اخوانه في سبيل المحافظة على كابوس الذل والاستعباد ثم التفت اليّ كأنه يريد أن يلتمهني بنظراته وقال : -

تحارب اخوانك الذين خفوا لأنقاذك من برائن الظلم والظفيان ، والجهل . اصح من سكرتك ، واستيقظ من نومك ، ثم ارجع عن غيبك . ولا تكن كالشمعة التي تحترق لتبثت النور الى من حولها . وبهـ مدة فترة سكوت قصيرة استأنف الكلام وقال : -

لم يكن عهدي بالعربي ان يمتشق حسامه ، فيحارب ضيوفه ليحملهم الى التحول عنه الى بيت آخر ، فكيف جردتم سيوفكم لمحاربتنا مع أننا لم نأتكم ضيوفاً جليلاً بل منقذين من الذل والاستعباد الذي رزحتم تحت عبئه مدة من الزمن وانتم لا تحسون أو تشعرون . لأن القوم الذين اذلوكم أهل علم ومعرفة ودراية عرفوا كيف يتحكمون بكم فسابروكم وجاملوكم . ودخلوا عليكم من باب الصداقة والاخوة وادعوا انهم حماة الدين ومناصريه .

فما هذه الحامية الرومانية ، وما سبب بقائها بين ظهرانيكم ووجودها
عندكم ألم تسكن حامية عليكم أنتم السجناء الذين سجنتم في دياركم ومدنكم
غلا تتمدعوا بأقوالهم وتصدقوا ادعاءهم أنهم من حماة الدين وناصريه
فالدین منهم براه .

اذهب راشداً مهدياً وأمل بك وطيداً بأن تذهب وقومك من
المعركة ، وتفتح ابوابك لايواء ضيوفك .

فلوى عنان جواده ، وتركني في حالة مضطربة ، خوفاً من بأسه
وشجاعته المنقطعة النظير ، وخجلاً وحياء من كلامه ومروءته وعفوه .
ولم يكذب بتعدني قليلاً ، حتى قال كنت نفسي ، فاسترجعت بعض
ما فقدته من رباطة الجأش وشدة البأس . عندما جرى في عروقي الدم الذي
أوشك على الجود ، حينما كان سيف البطل مصلتاً فوق رأسي ، لينزل
قضاء الله عليّ بزوله . وقد تنفست الصعداء بعد أن نبذت مخاوتي ،
وبدأت اسمع صيحات المقاتلين وصرخاتهم ولكن صيحة « الله أكبر الله
أكبر » التي ارتفعت لها جميع اوصالي قد حركتني في سريري ، وايقظتني
من نومي . فاستيقظت من ذلك الحلم المزعج الذي تعدت به كثيراً . فاذا بي
أرى زوبعة تقف امام سريري تحاول ايقاظي فلم تقدر .

وقبل ان اصحو من سكرتي أو أفيق من غفوتي ، سألتها عنك وعن
سبب تأخرك . ولما اخبرتني بخبرك وذهابك ، عاودتني اضطرابات
الاحلام وراودتني في اليقظة ، اسكن اعصابي لم تهدأ أو تستقر إلا برويتك
يا حبيبة الروح . اما وساموسي فهي لا تزال تسيطر عليّ . واني لأخشى
ان يكون سبب قرع النواقيس غير ما ذكره « المفريان ماروثا » .

فردت عليه سلمى وقالت :-

حقاً أنها أحلام مروعة . ولسكنها أحلام ياعاصم ، لا يبني عليها شيئاً ولا تعلق على هامشها أهمية . فأهناك بالحروب وولعك بها هما الباعث والمسيب لهذا الحلم المزعج . لأن الحلم يا حبيبي هو : - تحقيق رغبة ما وغالباً ما تكون تلك الرغبة مكتوبة في اللاشعور ، والاسلوب الذي يتخذه اللاشعور ليس اسلوباً صريحاً بل اسلوباً تذكري ، مع أنه يخضع لقوانين معقدة متنوعة ، ويتكون المضمون الصريح للحلم من الذكريات القديمة للحلم ، لكنها مرتبة ترتيباً متفقاً لا كثر قوانين التداعي . فالرغبة هي الباعث على نشوء الحلم .

- اني اعاق أهمية كبرى على هذا الحلم المماجي . ، واتوقع انه سيكون نقطة تحول في حياتي . فلاحلام هي التي تربح الستار أمام المرأ لينظر الى المستقبل الذي تعجز القوى البشرية ، وافسكار اليقظة عن اذاعته وتحريره فالعقل عبارة عن مجموع القوى العقلية ، وابرز هذه القوى الاستدلال والتصور والتذكر ، وهذه هي التي انشأت الروح وكان الحلم مولدها .

فلاحلام ماهي إلا صور ما يرى وبسم الشخص من صور واحاث وما كان يحول بخذه من افسكار يصورها ويعرضها العقل الباطن .

- وما هو العقل الباطن ؟ وهل المرء عقل باطن وعقل ظاهر ؟

- اجل يا سلمى ، فالعقل الظاهر هو الذي يحكم على ما تدركه الحواس فيستعرضه أو يصوره ، بصورته الحقيقية من حسن وجمال الى بشاعة وقبح في اليقظة أو في المنام .

والعقل الباطن هو الذي يدرك ما لا تدركه الحواس ويعتمد في ذلك على الاتجاه الروحي والانفصال المادي ، فالاقتراب من روح القدس .

- وهذا لا يكون ياعاصم إلا عند الانبياء والرسل .

- وهل هنالك مانع من ان تكون صور العقل الباطن واضحة جليلة عند بقية الناس الذين هم ليسوا بالأنبياء أو الرسل .

لا مانع من ذلك ، ولكني أرى أن رؤياك هذه ما هي إلا صورة من صور الماضي ، أو فكرة متبادرة عندك ، خلعت عليها الرؤى أردية مناسبة فطبعتها بطابع خاص يلتئم وذوقك ويتدق وعقلك .
فرد عليها عامر وقال :-

اظن ان المستقبل سيحقق احلامي ، ويرهن على مدى صحتها .
فهمت - سلمى بالكلام ، لكنها سكنت حينما سمعت الباب يقرع ، ثم دخلت زويزة بعد ان سمعت كلمة السماح لها بالدخول من عامر ، فوقفت بادب وخضوع ، فقال عامر :-
ما وراءك يا زويزة ؟

وقبل ان تجيب قالت سلمى :- عاصفة هوجاء بعد الزويزة .
فضحكت ضحكة رنانة عذبة ، وضحك عامر وتمجج من سرعة بديهيتهما فقالت زويزة :-

رسول المفريان يطلب مواجعتك وبدعي انه اتى بمهمة خطيرة يريد ابلاغك بها .

فقال عامر :-

دعيه يدخل .

وبعد ان غادرتها زويزة تبادلا نظرات الاستهزام والاستغراب .

فدخل الرسول وحبي عامر وقال له عامر :-

ما وراءك ؟

- لدي رسالة شفوية اليك ، كلّفني بها المقرّيان .
- وما سبب عدم تسجيلها وتسجيلها ؟
- المصرة في التبليغ لتعجيل حضورك الى الكنيسة .
- هاتها واسرع .

وبعد ان سمح الرسول لاصابعه بان تتغلغل بين شعرات ذقنه قال :-
سيدي ؛ لم يمح على انصراف المحتشدين الذين اطربهم نبأ الانعام ،
غير فترة قصيرة ، حتى قدم علينا فارس من ناحية الجنوب . قد الهب
صدر جواده بالسياط يستحثه على الركض والجري السريع ، وذلك قبل
ان تترك مقاعدنا المطلة على الساحة الغربية ، فصعد الرجل السلام بعد ان
ربط حصانه باحدى اشجار التوت ، ولما وقف امام المقرّيان ادى التحية
بخشوع يمازجه اضطراب وقلق وتلجلج في الكلام لتعب قواه المنهكة
فتسكّم قبل ان تهدأ أعصابه الثائرة وترتاح اعضاءه المتعبة ، ويمسح أو
يحفف عرقه ، أو ينفذ غبار ثيابه وقال بلفظه الرومية :-

اني ايها الأب الوقور أحد جنود الروم الذين تخلصوا من الهلاك
بالفرار ، وذلك حينما داهمتنا جيوش المسلمين ونحن في الشام ، آمين
مطمانين .

فقاطعه ماروثا متمجّباً وقال :-

المسلمون في الشام ؟ ماذا تقول ؟ اجتاحوا اذن القدس وبيسان

واجنادين و . . . ؟

- نعم ؛ استولوا على اجنادين والقدس وبيسان ودمشق نفسها بعد ان
امعنوا السيوف في رقاب الصامدين المدافعين ، وقد شهدت كل هذه
المعارك ولكن البكارة العظمى ، والنكبة الجلى التي لحقت بالروم من

قبل الجيوش الزاحفة كانت في معركة « اليرموك » وهذه المعركة هي التي
 حمت آثار الروم من أرض سوريا ، وقلعت ظلهم وقضت على آمالهم رغم
 تفوقنا عليهم بالعدة والمدد والقيادة والترتيب ، ولم ندر سر انتصارهم
 علينا ، فزهقت ارواح الالوف تحت شفرات سيوفهم وبين امواج نهر
 اليرموك ، فلولا ان من الله علي بهذا الحصان السباق السباح لما خلصت
 من سيوفهم أو نجوت من الفرق في اليرموك ، واسكنت في عداد
 المهلكين وزمرة المفقودين وقد همت على وجهي كما هام غيري من
 المارين على وجوههم في تلك الصحاري المقفرة والحزون المفزعة ، لا
 أعرف أي وجهة اتجهها ، وقد كان نصيب اكثر رفاقي الهلاك والموت ،
 لأن الموت الذي نجونا منه في الحرب والنهر ابى ان يفارقنا في الصحراء ،
 وهكذا مات رفاقي جوعاً وعطشاً أو بين مغالب الوحوش التي لا تنفك
 عن مهاجمتنا ليلاً ونهاراً ، أما انا فقد سلكت طريقاً مطروقة فأنقذتني
 غفلة كانت راجعة الى تدمر من الظلم الذي اوشك ان يودي بحياتي الى
 الزوال ، وقد استوطنت تدمر مدة غير يسيرة الى ان لحق المدينة خطر
 الزاحفين . فغادرتها وعبرت الفرات ، وأنا لا أروي على شيء ، فبقيت
 وجهي نحو الجنوب بمحاذاة النهر ، ولما وصلت الى احدى المدن الواقعة
 على هذا النهر ، رأيت أهلها باضطراب وقلق ، ولما استفسرت منهم عن
 دواعي قلقهم واسباب اضطرابهم ، قالوا : انهم يتأهبون الى لقاء جيوش
 المسلمين التي اجتاحت المدن الجنوبية من العراق ، واتجهت نحو الشرق ثم
 تزودت بالطعام والماء ، وبعد ان سرت الليل كله وشطراً من النهار لاح
 لي على البعد فارس قد اهب صدر حصانه ضرباً بالسياط ، فلويت عنان
 حصاني ووجهته الى جهة الفارس ، ولما اقتربت منه ناديت مرة وأخرى

وثالثة فلم يلتفت الي ، إلا بعد الصبيحة الرابعة ، فأوقف حصانه وهو
مرتأب فسألته بلغتي الرومانية عن الخبر عند ما عرفته من ملاحه وزيه انه
جندي روماني كذلك .

أما هو فقد اطمأن بي وقال :-

أخاف من لحاق فرسان عمر بن الخطاب الذين اشتركنا وياهم في معركة
أدت الى انتصارهم وتفوقهم علينا ودحر جيوشنا فاجتياز الحاجز (١)
الذي يفصلنا عن ممتلكات الفرس في العراق ، وأنا آخر الهاربين .

وما ان انتهى الى هذا الحد حتى ارخى عنان جواده وهمزه همزة
فانطلق به يسابق الريح بعد ان قال لي :-
انج بنفسك .

وحينما سمعت خبر هؤلاء القوم الذين اضطروني الى نجشهم كل هذه
المصاعب واجتياز تلك المغاوز والحزون ، والتعرض الى المهالك والدمار ،
فراراً منهم وخوفاً من سطوتهم ، لان شبح معركة « اليرموك » لما يزل
يتراءى لي كلما اردت ان اخلد الى الراحة والسكينة ، أو التي بمصا الترحال
ثم أرخيت العنان لمعاني انا الآخر والهيبته بالسياط ، ورحت ميمماً
وجهي شطر الشمال خوفاً من ان اكون فريسة لتلك الجيش الذي اوشك
ان يدركني ، ولما كنت لا اريد ان اقدف بنفسي بهـ هذا الاقون الذي
سيقتل مدنيتمكم محلاً له لقرب الخطر فاني مغادركم الآن وقد اخبرتمكم
لتتخذوا الحيطه والحذر كي لا يأخذكم القوم على حين غرة .

(١) ما يسمى بالحديد ، وهو بين سمره وبلد من الجهة الغربية من دجلة ،

متد من الغرب الى الشرق حتى يصل الفرات .

فضاق صدر المقرآن بهذا الخبر المفاجيء وتولاه الغضب وقال :-
أراك تحبب في كلامك أبها الشارح خبط عشواء ، كأن خبلاً قد
اصابك عند انفرادك في الصحارى والمسالك ، كيف تزحف جيوش
المسلمين من أرض الحجاز إلينا وبيننا وبينهم الجيوش الفارسية التي عملاً ما
تملكه من أرض السواد .
فرد عليه الرجل وقال :-

نعم ايها الاب الكريم ، اني كما ذكرت جندى شارد ، انكني لم اكن
شارد الب فاقده الصواب ، إذ لا زلت اقبض على زمام عقلي وأمسك بخيط
تفكيرى ، واتمتع بكامل قواي العقلية التي لم تدل منها الحوادث والطوارئ ،
والسكوارث شيئاً .

وقد اشعرتني ايها الاب مع عظم احترامي لمقامكم الرفيع اني بين قوم
خدوتهم سمادة الاحلام بعد ان اغلثهم خمرة النوم ، ولم يعلموا ان للنسيم
حدأ والراحة مدى وللاحلام نهاية وللنوم نقطة ، فيصطدموا بصخرة
الواقع ويجابهوا ضوء الحقيقة الساطع .

لا شك انكم ستعتبرون كلامى هذا قاسياً قارصاً ، لا يتفوه به الا من
فقد العقل ، واضاع التفكير ، فلا يضيرني من قوالكم شيئاً لاني مفارقكم
ولكم بجيوش الفرس المشتتة ، وعرشهم المقوض وشوكتهم المسكورة
وسلطانهم الزائل ونجمهم الآفل ، خير مصداق على ما أقول ، ان كنتم
تعتبرون .

قال ذلك وانصرف بدون استئذان وركب حصانه عند نزوله من
المدرجات وراح ينهب الارض نهياً كأنه أراد ان يتخلص من العقاب
بالمثل على جريمة قتل ارتكبها .

ولم يصح المغيران من الصدمة الا بعد ان توارى الرجل عن العيان
عند ما سلك الشارع المؤدي الى الناحية الشمالية ، فكانت أول عبارة
تلقظ بها المغيران هي :-

« علي بامراء وقواد المدينة من عرب وروم » فكنت أول من هرب
اليك تنفيذاً لأوامر المغيران المحترم وحباً فيك لتكن أول من يحضر الى
الكنيسة .

فرفع عامر رأسه اليه وقال :-
شكراً لك ، انصرف فاني لاحق بك بعد برهة وجيزة ، أرتدي
خللاها ثيابي .

وما كاد الرسول ينصرف حتى التفت عامر الى سلمى فوجدتها متممة
اللون منبهة الاهداب شاردة الالب تعبت اناملها في عقد كان يتحلى به
جيدها الاتلع ، أما هو فقد تهلل وجهه بشراً وفرحاً ، واشترقت من ثغره
ابتسامة الفوز ، فربت على كتف سلمى وقال :-

حقاً ان العقل الباطن يا سليمان يدرك ما لا يدركه العقل الظاهر الذي
يعتمد في معظم مداركه على الحواس ، اما العقل الباطن فهو خير نذير
أو بشير لما يضره المستقبل للمرء من النكبات والمصبرات ، لانه يستمد
وحيه من روح القدس التي تسمع كل شيء . علماً بناء على صفاء النفس
وتقاوة السريرة .

فهذا تفسير رؤياي يا حبيبتي ، وهذا هو يوم الفصل قد اصبح غداً
قاب قوسين أو أدنى ، فأهلاً بالضيوف ومرحباً بالحرية .
فنالت كلماته من سلمى ما نالته ، الامر الذي جعلها في جزع وقلق
وقالت :-

ما هذه الكلمات التي تتفوه بها يا عزيزي ، فالحقيقة والواقع يا عامر
 هما عكس الخيال والتصور ، وحوادث الاحلام وصورها لا تخرج من
 الدماغ ولا نجتاز عظام الجمجمة ولا تأني بها إلا نومة قصيرة أو طويلة ،
 أما الحوادث الواقعية والصور الحقيقية، فيدائها الأرض ومسرحها الحياة
 وضحيتهما الارواح والمواد .

فنحن اليوم أمام خطر أجنبي يهدد المدينة ، فارجو ان تزيل ما في
 قلبك من غل لتتسجم مع اخوانك من ابناء البلد لنكونا متكاتفين
 متآزرين على درء الخطر المحيى او تبديد طلائع الظلم ، ولا تذكر من
 ماضيك الا كل ما من شأنه ان يشرك بالمسؤولية ويدفعك الى التضامن
 والتزامل مع غيرك ، وكن ابن ساعتك ثم فلتش عن حسنات من نازعك
 وخاصمك ، وفضائل من عاداك واصفح عن ازمجك وتحداك فالضعفائن
 والاحقاد والعداوات الشخصية يجب ان ينعدم اثرها وتغنى معاملها اذا
 ما هدد المصلحة العامة خطر اجنبي خارجي ، لذلك ارجو ان تكون عند
 حسن ظني بك فتصفح وتغفو فان ذلك خير لك وصلاح لغيرك .
 وقبل ان يرد على سلمى دخل جرير وقال :-

اكلنا اسراج الحصان فيها ، ثم ترك الغرفة وخرج ، فنهض عامر
 ونظر الى سلمى نظرة شعت بكل معاني الحب، لذلك اكتوبر قلبها بحرارة
 فشعرت بقشعريرة في جسمها وبقوة خفية تنهضها وتدفعها اليه كما اندفع
 هو اليها بقوة تيار الحب العارم ، فالتصقا بيمضهما وتبادلا قبلة الوداع
 الحارة التي اودعاها عصارة قلوبهما وخلاصة حبهما ، ثم غلصت من بين
 ذراعيه ووقفت أمامه مبهورة الانفاس يترافق نهداها على صدرها الذي
 حركته هم القلب المتأجج بنار الحب والشوق .

ولما هم بالخروج قال لها :-

أرجو ان تكوني هنا ربما أعود ، فقد أخاف عليك مما يضمرك لنا
القدر وتخفيه الايام .

- لا تخف علي من شيء ، فاني لا اتقاد الى قول الناس حيث يقولون
« كل مقدر كائن » اتقياد الاعمى ، فانا حذرة متيقظة .

عادر عامو قصره بعد ان ركب حصانه وسار في مقدمة اخلس اتباعه
ثم وصل الكنيسة ، فكان اول من حضرها من المبشرين بالحضور ،
فاستقبله المفيان وبقية رجال الكنيسة الاستقبال الحسن ، ولما جلس
بقربه أسر له المفيان بعض الكلمات وقال له :-

أرجو ان تجعلها في طي السكتان يا عامر ولا تخرجها الا بعد ان نحوها
الى عمل لا فكرة غير منسجمة أو متبلورة .

ثم تكامل اجتماع المدعوين ، فاخذ كل منهم مكانه ثم أطلقوا الافكارهم
وأبصارهم العنان بان تخرج في الانهاية وتمتد الى المسافات الشاسعة
الواسعة ، عندما خلبتهم محاسن الطبيعة التي تجلت بابهى مظاهرها وادوع
حلها ، وهي مسجاة على الضفة اليسرى من دجلة في ذلك الاصيل .

وخوفاً من ان يسحروهم جمال الطبيعة الاخاذ فيسلمهم الى افكارهم
وهو اجسهم الى النعاس فالنوم ، تدارك المفيان الموقف وقال :-

عرفتم ايها الاخوان دواعي استدعائي لكم واطلعت على الخبر الذي
واقانا به احد مشردي الحرب بعد انفضاض المجلس وتفرقكم واني إذ
أبعث اليكم لا لأحفزكم الى الحرب أو أعرفكم بالواجب وعظم المسؤولية
الملقاة على عواتقكم بل المشاورة في الامر ، فالاتفاق على رأي سديد
يضمن لنا النجاح التام والسلام الحقيقي لان الرأي السديد والعمل الناضج

والعاقبة الحسنة تكون، نتيجة محتومة لتبادل الآراء ووليدة للاتفاق التام.
فأرجو ان تعدوا للامر عدته . لتتوصلوا الى الخطة التي تنجيكم
عما ينتظركم من الاخطار والكوارث ان صح قول الشريد . وارجو ان
لا تفسحوا المجال للفرقة والاختلاف، التي تؤدي بكم الى مهاوي الهلاك
والدمار .

وما ان انتهى المفريان من كلامه . حتى بدأ القوم بالذاكرة ، وابداء
الآراء . التي كانت تعرض الى الانتقاد اللاذع والمناقشة الحادة التي كانت
تعمل على توتر الاعصاب لا يقاظ براكين الاحتقاد في القلوب فترسل هم
الكلام من اللسان . ولولا المفريان الذي تدارك الموقف ، فطمأن الخواطر
وهذا الاعصاب بمحكمته وقداصة منصبه لآل الامر الى عكس ما كان
يتوقمه القوم ويرنجونه من سوء العاقبة ورداءة المصير بعد تفرق الكلمة
وانشقاق القوم .

وأخيراً اتفقوا على رأي واحد وهو :- الخروج الى خارج المدينة
للملاّته الجيوش الزاحفة في تلك الصحاري الجنوبية الغربية ، لكي يلبس
لهم دفع الخطر عن المدينة ، اما اذا شعروا بضعفهم مقابل تقوى اعدائهم
فالجبال واسع امامهم للانسحاب فالاعتصام بحصانة السور ، لاطالة مدة
الحصار التي تضطر الغزاة الى مغادرة المدينة بعد فك الحصار عنها دون
ان ينالوا منهم شيئاً .

اما القيادة فقد اتفقوا على ان تكون بيد عامر وسطيح نظيرتهما
ومهارتهما في الحروب ، ولما قدماه من اعمال . كل يتولى جناحاً من
اجنحة الجيش ، على ان تكون الخطط متفقة والجيش موحد الكتل مندمج
القوميات في كتلة واحدة تدود عن المدينة ، وتحافظ عليها .

وسرعان ما مرى الخبر بين الناس ، وتناقلته الالسن ولا كته الافواه .
 بجند وحيلة ، وما كاد يتغلغل في جميع الاوساط والمجتمعات حتى بدأ
 التعليق عليه لأنهم احسوا بالمسؤولية ، وشعروا بفداحة الخطب ، وجسامه
 المصاب ، لكنهم بانوا على أسوء حالة من القلق والاضطراب لأن الخبر قد
 اقض مضاجعهم ، وعكر عليهم صفوهم فباقوا كما بات السايح المسهد ، لكثرة
 ما افتابهم من الموم ، وساورهم من الاخيلة والهواجس لأن مصيرهم كان
 متوقفاً على ما يبيته لهم القدر ، عندما تتقدم الجيوش التي لم تقف في
 وجهها جيوش كسرى وقيصر ، ولم تحل دون تقدمها جميع الحواجز
 والموانع .

وقبل أن ينفذ أهل المدينة غبار النوم من عيونهم ، أو يطردوا
 خيالات الاحلام عن غيلااتهم ، طرق سمهم دق الطبول وتنفخ الابواق
 تستدعيهم الى الاجتماع والسير الى الحرب والقتال دُعاً عن المدينة لدرء
 ما يتوقعونه من خطر الجيوش الزاحفة عليهم . وبعد ما تقلدوا اسلحتهم
 خفوا الى ساحة الاجتماع ملين داعي الحرب منتظمين مع بعضهم في كتل
 كبيرة تضم كل منها قبيلة او جماعة تجمعهم رابطة الدم والقراية والنسب ،
 وهم علاؤون الغضاء بأهازيجهم الحماسية التي تعبر عن تلهفهم الى الحرب
 والنضال في سبيل حماية المدينة من الغزاة .

وبينما كان القوم في هرج ومرج ، ولقط وضجيج إذ بجارس باب
 السور الجنوبي يشق طريقه بين المحتشدين لأربعة فرسان غرباء الى الكنيسة
 ولما صعد بهم المدرجات جردهم ثلاثة من رجال الكنيسة من اسلحتهم ،

وفقا لما تقتضيه قداسة الكنيسة والآداب المتعارف والمتفق عليها .
فاستأذن لهم الحارس من المغيران بالدخول عندما أخبره ان هؤلاء وفد
قائد الجيش الزاحف اليهم ، جاءوا بمهمة التفاهم والمفاوضة فأذن لهم المغيران
بالدخول .

ولما دخلوا وسلموا على الجالسين وجلسوا على بعض المقاعد التي اعدت
لهم قال رئيس الوفد : -

أرجو ان تعرفوني بحاكم المدينة أو قائدها ، لأبلغه بمهمتنا ذات الشأن
والخطورة . فقال المغيران : -

نسكلم مع الشابين ، وانشار بيده الى عامر وسطيح .

فرد عليه عامر وقال : -

الغزو أيها المغيران . اننا لانملك الرأي أو السلطة أو الرئاسة وقت
وجودك .

- لسكنا الحرية التامة في التفاهم والاتفاق أو عدمها لأنكما زعيما المدينة
السياسيان والعسكريان ، اما أنا فلي المركز الروحي والاشراف الدين على
تطبيق الشعائر وانتشار الدين . فلا يجوز لي أن أتدخل بشيء من غير
اختصاصي . فقاطعه رئيس الوفد : -

ان كنت انت أيها الأب الوقور أو الشابين الذين عنيتما ، فانتا
نبلغكم جميعا بما جئنا به من عند قائدها .

فنظر اليه سطيح نظرة احتقار واشتمزاز وقال : -

نسكلم واوجز . فرد عليه رئيس الوفد :

- نحن وفد عبد الله بن المعتم قائد جيش المسلمين المتجه اليكم ، ارسلنا
لنبلقكم هدفا وفايضا التي جئنا من أجلها . فقاطعه سطيح وقال : -

وهل لكم غير الحرب والكفاح والسلب والنهب من غاية ؟
 - لم تتخذ الحرب والكفاح إلا مع من أصر على عناده واستمر في
 مقاومته لنا . لأننا لم نفر الامم أو نحتاج البلاد إلا لانتقاذ الناس من
 الجهل والفقر والظلم . لأننا جئنا بنظام العدالة والانصاف كي نعلمه على من
 اذلم الظلم ، وشردهم الجهل ، ونخطفهم عفريت الفقر ، لنجمع شملهم ونبعد
 عنهم كائوس الظلم ، فننقذهم من مهاري الدمار والهلاك ، بعد ان تكون
 منهم مجتمعا صالحا تسوده الطمأنينة ، ويفرحه الوئام ، وتكتنفه السعادة
 فقاطعه سطيطح وقال :-

نعماً للبشرية التي تأمر بأوامرك وترجو صلاحها منكم .
 فقاطعه عامر بعد ان كظم غيظه ، واخفى حقدده وغضبه بابتسامة
 صفراء وقال :- ارجوا ألا تحتقر القوم كما ارجو أن تفسح لهم المجال
 لتأدية مهمتهم كاملة . كما اوصاهم بها قائدهم ، لنفهم مقاصدهم ، ونعرف
 مطالبهم ، وعند ذلك لنا الخيار في أمرنا القبول أو الرفض .
 فرد عليه سطيطح وقال :-

وهل يجوز لنا أن نستكين لمطالبهم ونرضخ لأوامرهم ؟ فرد عامر
 وقال :-

ولم لا نرضخ ان كان الصواب في قولهم وعملهم ؟ وما هو المانع ؟ فهل
 الرأي السديد ، والقول المعقول والخطة الحسنة مقتصرة على طبقة دون
 اخرى ، او على اناس دون آخرين ؟ اني احبذ الفكرة الحسنة واطبق
 القول المعقول ، وارضخ للامر الذي يلتزم والواقع ، ويتفق مع الحقيقة
 مهما كان مصدرها أو مبناها ، فالتفت الى رئيس الوفد وقال :-
 ارجو ان نعرفنا باسمك لندعوك به .

- عمرو بن جنيد

- تكلم يا عمرو ثم بين لنا ما يرضيكم منا .

- نحن قوم قد وهبنا ارواحنا لله عز وجل ، لاعلاء كلمة الحق وتعميمها
ثم نشر لواء الطمأنينة والسلام على أبناء البشرية وذلك بطريقة الاقتناع
والمسالمة لا بالقصر والشدة ، وقد لا نلجأ الى الشدة والقسوة إلا إذا
وقف دوننا ودون غايتنا مناصروا الفجر والاحقاد ، ومؤيدو الظلم والجور ،
ومسببو الجهل والفقر .

أما من قبلوا منا أحد شرطين فلا خوف عليهم ولا ضير وهي :
اتباع تعاليم محمد « صلى الله عليه وسلم » التي جاء بها من عند ربه ، بعد
تطبيقها على نفسه وعلى مجتمعه . وذلك عندما يقر برسالاته ونبوته ، ويوقن
بوحداية الله واتقاده وعربون ذلك هو هذا القول « اشهد ان لا إله
إلا الله واشهد ان محمداً رسول الله » أو يؤدي « الجزية » مقابل حمايته ،
والمحافظة على ماله وعقيدته وعرضه .

وهذا ما أردت أن ابلغكم به . فان رضيتم بأحدهما فلكم ما لنا ، وعليكم
ما علينا وان أبيتم فالسيف بيننا الى ان يظهر الله الحق ، ويزهق الباطل .
ان الباطل كان زهوقاً فقاطعه عامر :

والله انه لقول فصل و

وقبل ان يتم كلامه تكلم سطيح وقال : -

عهدي بك صلب العود ، قاصي القناة ، لا تخف التهديد ، ولا تهرب
من الوعيد . التضحية من ملازماتك ، والشجاعة من سجاياك وصفاتك . فما
بالك جببت نخمت القوم قبل ان تصطدم معهم في حرب أو تلتقي بهم في
ساحة القتال .

ثم تسلم المفريان ماروثا وقال : -
لا تنس يا سطيح اننا بحكم ديننا وعقيدتنا ، لا نتصدى للشر أو
نشخاص للقتال . فنحن قوم مسالمون .

فصاح كبار رجال الروم مع بقية امراء العرب المجتمعين وقالوا : -
سنكفيك شرهم ايها المفريان المحترم ، ونصدهم عنا ونخيب مساعيهم
ونقضي على آمالهم . فنحول دون ادراكهم غايتهم منا ، ولا ندعهم يصيبون
مدينتنا بأذى مهما عظمت قوتهم واشتد بأسهم .

ثم استأنف سطيح كلامه وقال موجهاً كلامه الى عامر : -
كيف استصوبت رأيهم ، وأي الشرطين يتفق وميولنا الخاصة ، أو
مصلحتنا العامة ، حتى تتفق مع القوم ونصالحهم . أنستبدل بديننا الذي
هو احسن مانعاً به في هذا الوجود لأننا اعتنقناه عن طيب خاطر ، ديناً
آخر أو نقبل بتأدية الجزية التي هي أقوى قيد وامتن غل نقيد انفسنا به ؟
وكيف يرضى العربي بتأدية الاثاوة ؟ .

- لم اكن جباناً ولا جزوعاً ، لافزع من تهديد أو أخاف من وعيد .
وانما رأيت شعاع الحق الذي في قول الرجل يستهدف كبد الحقيقة ويصيب
صميم الواقع .

فان اعزينا بديننا ولم نرض به بديلاً . فلا داعي لأن نغز بيمض
دريهمات ندفعها لاخواننا العرب مقابل الاحتفاظ بسلامة مدينتنا واحترام
مقدساتنا وعقائدها . فيكون ديننا بعيداً عن متناول الايدي العابثة .
وبعد الاستشارة والتصويت مال اكثر القوم في جانب سطيح . لأن
الروم رجحوا بكثرتهم كفته . ثم اخبروا رئيس الوفد ، أنهم لا يرغبون
بشيء غير الحيلولة دون وصولهم المدينة ، مع عدم الالتفات الى

الضحايا التي يقدمونها .

وقبل ان يودعهم عمرو بن جنيد ومن معه قال لهم : -
اذن فلكم بجيوش قيصر في بلاد الشام وكسرى في القادسية والمدائن
أحسن العبر ان كنتم تعتبرون .

فغادروا الكنيسة والمدينة بعد ان اخذوا اسلحتهم وركبوا جيادهم .
فوصلوا معسكرهم بعد ان ساروا ساعتين من الوقت ولما دخلوا على القائد
« عبد الله بن المعتم » وجدوا عنه كبار رجاله وهم : -

« ربعي بن الافكل العنزي » الذي كان يتولى مقدمة الجيش ،
و « الحارث بن حسان الذهلي » الذي كان يقود ميمنة الجيش ، و « فرات
بن حيان العجلي » قائد ميسرة الجيش ، و « هانيء بن قيس » الذي كان
يتولى سافته ، و « عريفة بن هرمة » الذي كان يتولى الخيل (١) .

فاخبره عمرو بن جنيد عن كل ماجرى من أمر القوم ، ثم ذكر له
انهم لا يريدون إلا الحرب والقتال .
فقال القائد : -

علينا إذا ان نأخذ الراحة في هذا اليوم . لان الجيش قد ناله من تعب
الايام الاربعة التي قضيناها في طريقنا من المدائن ما أنهكه واتعبه .
وعداً سنزحف اليهم . فلا عذر لمن انذر .
فرد عليه عمرو وقال : -

واظنهم سيخرجون الينا لانهم على تمام الاستعداد للقائنا .
أما القرى فقد استوى واقفاً وتقدم الى آخر درجة من درجات
الكنيسة فخطب بالمتشددين ثم شكرهم على شعورهم الحسن وعلى ما ابدره

من التضييحات بالامس البعيد واليوم . ثم طلب منهم ان يحشدوا نهار
هـذا اليوم وليتته على السور ، ليتولوا حراسته ويكونوا على تمام
استعدادهم ، فالفجر وقت خروجهم من الباب الغربي والباب الجنوبي
بكتلتين تحت قيادة عامر وسطيح ومساعدة بقية الاسراء وقادة الروم .
ولم يكذب ينتهي المفريان من كلامه حتى علت الهتافات بحياته وحياة القادة
ورجال الدين . ثم تفرقوا لحراسة السور .

ولما خلت الساحة نسي للاسراء والقادة من انتهاء اجتماعهم بمد أن
كلهم المفريان بمراقبة الجماهير المتكئة على السور ثم التناوب فيما بينهم على
تفتيشهم .

ذهب سطيح الى قصره كأنه الاعصار الثائر أو البركان الذي على وشك
الثوران لما يضطرم في قلبه من الحقد والغيظ من جراه تلطف عامر مع
وفد المسلمين ومساندته لهم .

اما عامر فقد وصل قصره ولما دخل الغرفة على سلمى التي كانت بانتظاره
رآها رهن الوسوس والهواجس تسرح بصرها في اللانهاية ، لتبحث
عن شوارذ افكارها التائهة ، وقد استرجعتها حينما أحست بدخول عامر
عليها لذلك نهضت واستوت على قدميها واستقبلته بتلك القبلة ذات الصدى
العالي . فما كان منه الا ان بادها قبلتها وضمها الى صدره ضمة الملائم
المشتاق ولما جلسا وتفحصت وجهه وملاحه رأته يصطنع الحزن ويتكلف
الهم بالرغم من ان قسما وجهه لا تنم إلا عن فرح مكبوت وابتهاج
يغمر النفس . ثم قالت : -

اظنكم قد تشاورتم وتناقشتم في الرأي . واتفقتم على الرأي الذي يكفل
لكم النصر ويدفع عنكم الخطر الذي اصبح عنكم قاب قوسين أو أدنى .

- وأي خطر يهددنا يا سليمي ؟

- الله ؛ كل هذا الخطر وتنكره ، جبرش فلت العروش وقوضت
صروح المجد وفرقت الجموع ومنقها ثم أجتاحت البلاد وأخذنها ، تلك
هي جيوش الحجاز قذفنا بها خليفة « محمد » المدعو « عمر بن الخطاب »
لنسلمنا عزنا ومجدنا ، ونأخذ منا خيراتنا وغلاتنا ، وتززع عنا ديننا
وعقيدتنا ، لنكون لها كالسائمة في أيدي الجزارين لا نملك لأنفسنا رشداً
ولا من هوتنا مخرجاً .

- لا يا عزيزي ؛ ليس كما تنصرون وتتخيلين ، فإن اتباع « محمد »
الذين قذفنا بهم « عمر » ما هم الا أبناء صموئنا واخواننا لانهم عرب
يشعرون بما يشعر به العربي من التضحية في سبيل نصرة أخيه ، وإغاثة
المظلومين والمظلومين ، غايتهم انقاذ الناس من مهاوي الجهل والفقر ومهمتهم
فك أغلال الظلم التي كبلت الضعفاء فأذلهم واخضعهم لمشيئة الاقوياء
الظالمين عند ما يستنير الناس بشعل هدايتهم فيسيروا بالطريق الذي عبده
وسلكوه الى حيث السعادة التامة والاخوة الحقة للانضمام تحت لواء
المجتمع الكامل الذي توجده تماثيل محمد وقوانينه .

- وما حاجتنا اليهم ؟

- نحن أحوج الناس اليهم ؛ لأننا من أولئك الذين غلبوا على أمرهم
بعد ان سلبتنا جيوش الروم حريتنا وجردتنا من استقلالنا فقتلنا لها ان
تتحكم في رقابنا وتتصرف بمقدراتنا وخيراتنا ونحن لا نقدر على ردعهم
أو اخراجهم .

- وكيف ذلك وهم حماة الدين ؟

- هذا ادعاء كاذب وقول لا أساس له من الصحة ولا مساس له بها ،

لأن الأيام التي واثقنا بالاحداث قد برهنت لنا على عكس ما يدعون ،
وأظنك لا تجهلين هذه الاحداث ، فالدين يأسى لا يحتاج الى حماية
المستعبدين الظالمين ، أو مؤازرة الجشعين المستغلين الذين تقمصوا لنا
بثياب الورع والتقوى ، بالرغم من ضراوتهم وشراستهم التي بدت في
تصفهم واضطهادهم - كل من رضي بحكمهم واستكان لظلمهم ، فالدين
يا عزيزتي أخرى بحماية نفسه واجدر برعاية تعاليمه ، فهو لا يدخل القلوب
بالقصر والشدّة ، بل على طريق الرغبة والتوق الى الصلاح ، لانه دستور
الحياة السعيدة ، وقانون المجتمع الكامل .

فردت عليه سلمى وقالت :-

إذا لم يكونوا من حماة الدين فهم من معتنقيه ومحبيه ، وبذلك
نكون وايام قد اشتركنا في رأي مقدس واحد كان الباعث على جمع
الكلمة وتميز الجهود فكريز القوى للدفاع عن عقيدتنا المشتركة وديننا
الموحد .

- وهل نعتقد ان للمستعبد المسترق ديناً يقدسه ويفضله على مصلحته
الشخصية وغايته الاساسية ؟

- وما هي الغاية التي يفضلها المرء على الدين المقدس ، والعقيدة
المحترمة ؟

- بسط السلطان وتوسيع النفوذ لاستغلال الجهود وابتزاز المادة
من ابناء البلاد التي حكموها ، بعد ان ظللوا بها بحماية الجهل المظلمة فنجبت
عن أمثالنا نور الحقيقة لتميز الصالح من الطالح .

- وألكننا الآن نتمتع بكامل حقوقنا ونحلم حريتنا لا نحس بسلطانهم

ولا نضمر بسيطرتهم ، أو نخضع لمشيئتهم أو نصطدم بقوتهم التي تحول
دوتنا ودون نيل العلم والمعرفة من منبها أو مجراها .

- لأنك الآن في قصر عامر أحد أمراء المدينة ورؤساء عشائرها الذين
نصموا بهذه الحرية كرشوة من الروم الذين اتخذونا مطايا توصلهم الى
اهدافهم فتنبيلهم غايتهم ، ليتحكموا في رقاب الضعفاء ويتصرفوا بمقدراتهم
ويذللوا لمشيئتهم وارادتهم بعد ابتزاز أموالهم وحجرهم في سجون
الجهل وحزون الفقر .

فنحن والروم طغيليون على آتاعاب أبناء المدينة، نعم ونبدخ ونسرف
من آتاعابهم وكدم الذي اخذناه منهم بطرق الضريبة واجرة التأمين على
الحياة ، والحفاظة للمقيدة والدين والمال ، وحصة الرئاسة وغير ذلك من
أساليب النهب السلمي والسلب غير المباشر .
فقاطعتهم سلمى قاتلة :-

إذن فانك نجذ الاستسلام للغزاة المحتاجين ، وتفضله على الذود عن
المدينة والكفاح في سبيل دينها وأهلها ؟

- انهم لم يكونوا من الغزاة يا سليمى ، ولا من التواقين الى سفك
الدماء او المحبين الى المال والجاه والسلطان ، وانما هم أهل ورع وتقوى ،
وايمان وعقيدة يستهدفون تعميم دينهم على البشرية لاصلاح المجتمع بعد
نزاع الضغائن والاحقاد من القلوب .

- ومن ادراك بذلك يا عامر ؟

- رئيس وفد المدعو « عمرو بن جنيده » الذي جاءنا اثناء اجتماعنا ،
فمرض علينا غايتهم وخبرنا في امرنا ، أما انت تؤمن بتعاليم « محمد »
وتطبقها بعد ان تشهد بنبوته ورسالته التي جاء بها من عند ربه الواحد

الاحد ، أو ان تؤدي لهم الجزية مقابل حمايتنا وحريتنا في اداء طقوسنا الدينية بكل صراحة ، ولما لم يقبل أهل المطامع الروم واذائابهم ومطاييم بالشرطين ، غادرنا الوفد بعد ان قال لنا رئيسهم : لنترك الحكم للسيف فهو خير فيصل للحق .

.. ولم لا نحسب قوله محض أدعاء لا أساس له من الصحة ؟

.. لو كانوا يبتغون المال والسلطان لا كتفوا بما فتح الله عليهم من خزائن قيصر وكمرى وبلادهما ، ولو لم يكن خروجهم من بلادهم على حق ، بسوقهم الايمان ونحدوهم الرغبة الروحية لما استطاعوا بقله عددهم وتقاهة عددهم السيطرة على تلك الاصحاق والبلدان ، بعد تشتيت الجيوش التي كانت تفوقهم بالعدة والعدد .

.. سننتظر الايام تكشف لنا عن الخفايا والاسرار ، فتميز الخبيث من الطيب وأملئ بالله وطيد ان يخفف من غضبك فيزل من قلبك ما علق به من الضمائن والاحقاد لبعض ابناء مدينتك ورؤسائها .

.. لا حقد ولا ضغينة يا سلمي ، وانما هو نور الحق تغفل في قلبي ، كما هو شأن من ينظر الى الأمور بمنظار العقل الصافي .

وبينا كانت سلمي تهم بالرد على عاصر دخلت عليها زوبعة وقالت :-

المفريان يطلب مواجعتك يا سيدي الآن ، وهو عند الباب الجنوبي من السور بصحبة رجال الكنيسة ، وراهب دير « صباي » ^(١) واسقف دير « جلتاني » ^(٢) .

(١) دير صباي وهو في شرق دجلة وقيل انه هو دير « سمابة » ويسمى

الآن بـ « الكنيسة » مقابل تكريت .

(٢) جلتاني : هو الدير الذي بناء « احودي » بتكريت . ذخيرة الاذهان

فالتفت عامر الى سلمى كأنه يستشيرها في الامر ، فعرفت مغزى نظراته ، فقالت اذهب راشداً مهدياً ، وان لا اقدر على البقاء هنا اكثر من هذا الوقت ، فوالدي بانتظاري ، وأظنه قد قلق كثيراً من ابطائي . فركب عامر حصانه بعد ان ودع سلمى ثم توجه الى الباب الجنوبي حيث المقيان بانتظاره هناك ، ولما وصل وترجل انفرد به المقيان فأسر له بضم كلمات قال بعدها :-

أرجو أن تقوم بمراقبة المرابطين على السور ، قال ذلك وغادره هو ورجال الدين الذين كانوا بمعيته عندما مالت الشمس الى المغرب .

— ٢٦ —

وما ان بدت طلأع الفجر التي اقتحمت حصون الليل لتهدمها وتطمس معالمها ، حتى كانت جموع المدينة التي كانت ترابط على أبواب السور ، تخرج من بابي السور الغربي والجنوبي وتتجمع على بعد يسير من المدينة ، لتسير في كتلة واحدة تخضع لقيادة مشتركة بين سطيج وعامر أمير يأياد وتغلب ، يساعدهما قادة الروم وبقية وجهاء المدينة مثل : « عتبة بن الوعل » و « ابو وداعة بن ابي كرب » و « ابن الحجير الايادي » و « ذو القرط » و « ابن ذي السنينة » وغيرهم ، فلم يسروا مدة من الزمن حتى رأوا جيش المسلمين على تمام الابهة والاستعداد ، وما هي الا فترة من الزمن حتى كان القوم قد اصطدموا مع المسلمين في معركة حامية الوطيس ، استمرت حتى غروب الشمس ، فغال الظلام دون مواصلة الحرب ، والاستمرار في القتال ، لذلك تسنى للمرفين نقل القتلى ، فدفن أهل المدينة قتلاهم واغلبهم من

الروم على كتف الوادي الشمالي (١) ، كما دفن المسلمون قتلاهم على حافة الوادي الجنوبية .

وعند الفجر استيقظ عامر على اثر سماعه الصوت العذب الذي يمازج الاحساس ويلامس الشعور المرهف ، وهو يجالجل في الفضاء فيمزق حجب السكون كما تمزق طلائع النهار حجب الظلام ، فيزيد في قدسية الوقت ، ويضاعف من جلال الموقف ، فلما حل عامر عقدة الناس التي كانت سبب انطباق اجفانه على بعضها ، تمكن من فهم مقاطع الصوت فاذا به « الله اكبر الله اكبر حي على الصلاة . . . »

وما كاد الرجل ينتهي ، حتى نهض المسلمون من مضاجعهم ، وكأنه كان يستنهمهم ، وما هي إلا فترة قصيرة انتشروا فيها وتفرقوا حتى انتظموا في صفوف مستقيمة متعددة خلف قائدهم ، متجهين الى الجهة الجنوبية الغربية ، وبدأوا يتحركون بحركات اجماعية منتظمة وموحدة ، لا يشغلهم عن تأديتها شاغل ، احتراماً لقدسية الموقف ، وقد وقف لصف الجيش يتولى حراستهم في تأدية حركاتهم القدسية ، وعندما انتهوا قامت الفئة الحارسة وانتظمت في صفوف كسابقتها بعد ان تجرد الجميع من السلاح وبعد ان تولت الفئة الثانية حراستها .

فراق هذا المنظر في عيني عامر ، وسحر بحال الموقف و قدسيته ونظامه وود لو ان القوم يطيلون وقوفهم بهذه الصورة وعلى تلك الحالة التي ان دلت على شيء . فانها لا تدل الا على الطاعة التامة والنظام الحقيقي فالتكاتف والنأزر والتساوي بين الجميع .

(١) وهو ما يدعى الآن بـ « وادي رومية » بالنسبة لقتلى الروم الذين دفنوا

هناك في تلك المعركة .

وقد انطبق الجيشان على بعضهما في قتال شديد دام حتى منتصف النهار دون ان ترجح كفة على اخرى ، لكن موقف جيش المدينة قد تزعزع ، عند ما ساورهم القلق رغم تكاتف كتله واتحادها وتأزرها ، وقد ازداد موقفهم حرجا حينما مال المسلمون على جناح جيش المدينة الاليسر الذي كان يتألف من الروم والعرب بقيادة مشتركة يرأسها « سطيج » ولما أراد عامر تعديل الجيش وموازنة السكفتين تراجع جيش سطيج ثانية ، وهكذا تمكن المسلمون من دحر جيش المدينة وارغامه على التراجع والتقهقر الى مسافة قليلة ، فلم يفرق الليل بينهما ويسدل بستره القاعة السوداء ، لكن نصيب جيش المدينة من المعركة الاندحار التام بعد الخسارة العظمى .

وهكذا استمرت حالتهم بين اخذ ورد ، وانهصار واندحار يصيب الطرفين في فترات متناوبة أو متقطعة ، لكن الانتصارات التي سجلها المسلمون كانت اكثر ، لأنهم تمكنوا من زعزعة جيش تكريت ، ومن احقتهم ثم الى تراجعهم حتى قاربوا سور المدينة وذلك في خلال تسعة أيام ، وفي اليوم العاشر قبل ان يلتحم الفريقان ببعضهما في القتال طاف على جيش تكريت « سطيج وعامر » بشجعان القوم على القتال ويحثانهم على الثبات فلاستماتة ، لقرب الخطر على المدينة التي خرجوا من اجل الدفاع عنها ، ومن اجل ذلك عنت لسطيج فكرة كانت ضائعة في زوايا عقله ، وباخراجها الى حيز التنفيذ والعمل يكون جيش المدينة قد ربح الوقت وابتعد الخطر وقلل الضحايا ، وهي فكرة المباراة الفردية لا القتال الجماعي .

وقبل ان ينزاحف الجيشان على بعضهما ، أرخى سطيج العنان لجواده

ودفعه حتى توسط الفريقين، وعند ذلك طلب مبارزة قائد المسلمين، وقبل
 أن يخف إليه عبدالله بن المغمم، اندفع أحد فرسانه، ولم يكن يصل ويجول
 جولتين حتى أرداه سطيح قتيلاً فبرز له آخر فكان نصيبه نصيب
 صاحبه، وثالث قال ما ناله الأول والثاني، ورابع كان مصيره مصير
 جماعته، ولم تكد الشمس تتوسط كبد السماء حتى قضى سطيح على ثمانية
 عشر رجلاً.

فضاق صدر عبدالله وتقطب جبينه واقتابته سورة من الغضب، فلم
 يمالك نفسه حتى صاح بجيشه أن يحملوا حملة واحدة، لأن الرجل شجاع
 يريد كسب الوقت وتقليل الضحايا من جيشه بواسطة شجاعته، وما هي
 الا لحظة حتى كان الغبار قد اكتنف الجيشين، فحجبهما عن البصار
 المتفرجين من أهل المدينة، حينما كانوا يتطلعون إلى حركات الحرب من
 فوق السطوح وعلى جدران السور، وكلهم من الشيوخ العاجزين
 والنساء والأطفال، وهم يتهلون إلى الله بالدعاء بقلوب مرعجة وأجسام
 مرعشة وجلّة، في تثبت أقدام جيشهم ونصره.

لكن ضحايا الطرفين كانت بازدياد مستمر حتى أهمل القتلى في ساحة
 القتال تطامم الأقدام وتدوسهم سنانك الخيل، أثناء الطراد والصراع.
 فدام القتال حتى إلى وقت متأخر من الليل. وفي الصباح الثاني اتفقوا على
 هدنة مؤقتة لنقل القتلى المشوهين من جراح وطشهم بحوافر الخيل، بصورة
 دائمة. فعرف كل فريق قتلاه لا من ملامح وجوههم وتفاصيلها التي
 بحيث وازيلت، بل من الملابس والأردية، فكانت خسارة جيش تكريت
 فادحة جداً لصدق جهادهم في تلك المعركة وتقانيهم لصد الخطر عن المدينة.

وخسارة المسلمين اربعين فارساً منهم (عمرو بن جنيده) مقرئ القوم ورئيس وفد عدا الذين قتلهم سطبح في بداية المعركة . فقاموا بدفن الاربعين رجلاً في حفر متقاربة متلاصقة^(١) فما زال المسلمون يزاحفونهم حتى اعتصم جيش تكريت بالسور المتين الجدران ليتقوا هجمات المسلمين وكراتهم العنيفة . وقد كانت صفقتهم في هذه المرة رابحة وكفتهم راجحة على جيش عبد الله بن المعم . لانهم بدأوا يرشقونهم بالسهم من خلف السور . وبالرغم من حصانة السور ومثانة جدرانها فان القلق قد تصرب الى جميع من سكن المدينة واستوطنها لانهم أحسوا بالخطر ولمسوه وايقنوا انهم لا بد مستسلمون مما طالت مدة الحصار ، أو تضاعفت ايام الاعتصام خلف السور الذي منعه عنهم عادات الزمان ، لان الله قد رماهم بقوم أهل شجاعة واقدام وصبر ، لا يملون ولا يضجرون . لذلك ازداد اضطرابهم وكثرت هواجسهم ، ولا سيما حينما اوشكت المجاعة تنهدم فتوردهم كؤوس الردى والهلاك . فأحس القرىان بما يخامر أهل المدينة من قلق واضطراب ، كما رأى له شبح المجاعة ، فهاله الموقف واقرعه المصير . لذلك بات رهن افسكاره المتبللة المضطربة ، واخيلته المزعزعة المروعة تنقادوه فكرتان متضادتان ، اما تسليم المدينة للمسلمين في سبيل انقاذ اهلها من كارثة الجوع ، أو الاستمرار والتمادي في الاعتصام خلف السور ليحمي الكنيسة ويحافظ على المسيحية من ان يتقلص ظلها أو يضمف سلطانها وتنحط منزلتها . لذلك استدعى عامر وبسط له ما يحسه ويشعر به وذلك

(١) هو الموقع الذي يعرف اليوم « بالاربعين » ويقع ظاهر تكريت وقد بنى فيه قبر كبير لا يزال يزار حتى الآن وكان يحيط بقبة الفريخ مسجد واسم .

بعد أخذ آراء جميع الزعماء والقادة الذين أشاروا عليه بالبقاء على ما هم عليه الآن ، لكنه لم ير في آرائهم ما يريح ضميره ويرضي وجدانه لانه كان يفضل اسعاد الناس واراحتهم وجلب الطمأنينة الى نفوسهم ، على كل شيء آخر . لانه كان يفهم من الدين معناه الحقيقي ومهماته الذي يصيب صميم الواقع . وقد ختم كلامه مع عامر بهذا القول : -

والله اني ليعز علي أن اطوح بأرواح أهل المدينة الى مهاوى الهلاك والدمار ولذلك فقد خولتكم حرية التصرف بالامور التي تنقذ القوم من كل خطر يتهددهم أو قلق يساورهم بأية طريقة من الطرق .

ثم تركه ينصرف واعتكف في غرف الكنيسة يفتقر الفرج والخلص تمام فيه من سوء الحالة . أما عامر فقد غرق في بحر من الافكار والهواجس تتقاذفه امواجها وتياراتها وهو مستسلم لذلك التيار الجارف ، فقد كانت تتضارب الآراء في رأسه أو تنفق . فنها ما يجذله الاستسلام والتطوع في صفوف المسلمين وذلك عندما استنار فكره بضياء الحق الساطع ، ويستعرض كلمات المفريان المتقوشة على آخر صفحة من صحائف ذاكرته . ومنها ما تردعه وتصدده عما صمم عليه عندما تتيقظ النصره الجاهلية في نفسه الحريصة على السكرامه والسمة كي لا يقال خائن نذل أو جبان ذليل .

فرجع الى قصره وهو مثقل بهذه الافكار ولم يكده يستقر في غرفته ليستجم ويرتاح بعد ان نشر الليل اريدته على المدينة ، حتى دخل عليه جوير وقال : -

وجهاء تغلب وبعض وجهاء المدينة بانتظارك يا سيدي .

فنهض عامر من لحظته ونزل اليهم ثم حياهم ودعا بالبسط والطناقص
ففرشت في الحديقة ولما جلسوا قال عامر :-
لا بد لجيئكم بمثل هذا الوقت من حدث جلل أو سبب مهم .
فقال ابن الحجير الايادي :-

أجل ايها الامير فانتا قد قصدناك من دون سائر الامراء والقادة لأنك
من أهل العلم والمعرفة والدين ممن نالوا شرف السكينة وانعامها جزاء لما
قدمته من اعمال جليلة للدين وللمدينة . ولا تصافك بالخلق الحسن وتحليك
بالسجايا الممتازة ، وشعورك بحالة الفقراء والضعفاء ، ثم تفقدك المساكين
واليتامى والارامل ، وحدبك على أبناء البلد دون ان تميز بعضهم عن
بعض ، وتغفلك في صميم المجتمع تمكنت من ان تعرف أن أهل المدينة
قوم متوسطو الحال لا هم بالاثرياء ولا بالمعدمين . وقد دعاهم موقع المدينة
الى ان يحترف اكثرهم التجارة بطريق المقايضة .

أما الآن والمسامون على ابواب السور فقد عزلونا عن العالم الخارجي
الذي نحن بأمس الحاجة الى ما فيه من الحاجيات الضرورية ولا سيما المواد
الغذائية واليوم وقد نفذ ما في بيوت الناس من هذه المؤن والمواد او
أوشك على النفاد . فان استمر الحصار مضيق الخناق علينا فلا شك اننا
سنمرض الى الجوع الذي سيودي بحياتنا الى الموت قبل أن تتخطفنا
سيوف المسلمين . وقد أتيناك نلتمس منك الرأي السديد والخطوة الحسنة
التي تنجينا من سوء العاقبة ورداءة المصير . فقاطعه عامر وقال موجها
كلامه الى المجتمع :-

الرأي يا قوم بدون طاعة كما تعملون تكلف صاحبها تمنا باهضا وضحايا
كثيرة فالرعية لا تنجو من المآزق والكوارث التي تحيط بها أو تحل بين

ظهرانيتها ما لم يكن لها زعيم حكيم مدبر خبير يقودها الى مسروج الأمن والطمأنينة والسعادة وقد لا يتسنى للزعيم انقاذهم أو الاقدام على الاقذار ما لم يبرهنوا له على الطاعة والتضحية بالغالي والرخيص . فان اردتم رأيي . فاني اطلب طاعتكم التي لا تكلفكم تضحية تذكر اذاه ما تكسبونه من السعادة والرفاه .

فصاح كل من « عتبة بن الوعل » و « ذو القرط » و « أبو وداعة بن ابي كرب » و « ابن ذي السنينه » وقالوا : -

منك الرأي وعلينا الطاعة . فمتجدنا أطوع اليك من بنائك ، واتبع لك من ظلك . لذلك اطمأن عامر الى قولهم حينما عرف مدى صحته وعلم صدقه واستوى في مقعده وبدأ يقص عليهم رؤياه التي قصها على « سلمي » ثم صرح بما يخامرهم من الهواجس والافكار التي انبثت بعددها ، وبين لهم مدى تأثير كلام رئيس الوفد الاسلامي في نفسه . وكيف سحر به ، وتلف الى الاستماع له . وعرفهم بما كان يحس به أثناء مشاهدة القوم عند قيامهم الى الصلاة بعد أن يخلبه صوت المؤذن ، وتجذبه قدسية الموقف حين انتظام القوم في تلك الصفوف المنتظمة المتجهة الى اتجاه واحد . يؤدون مهمة واحدة تجمع بين القلوب ، وتوحد العمل وتمازج الارواح . ثم بين لهم كيف كانت تلك الاوضاع الحافز الرئيسي والميقظ الحقيقي من سبات الذل والاستعباد . وبعد أن سكث فترة قصيرة تنهد وقال : -

والآن فقد حان وقت الثأر لحريتنا المسلوقة ، واستقلالنا المكتسب وكرامتنا المهانة بعد التخلص من ربقة استعباد الروم الذين قيدونا واهانونا فتمتعوا بخيراتنا باسم حماية الدين والدفاع عن الكنيسة . لان

الفرصة قد منحت لنا بالاتفاق مع الجيوش الاسلامية الرابطة خلف
السور فالسلاح لها بالدخول لتتخلص من هذه القيود بعد الاتحاد معهم
والامتزاج بهم .

فقال ابو وداعة : -

وكيف تقدر على تنفيذ خطتنا هذه ؟

- بالتفاهم بعد المفاوضات يا أخي .

- وكيف يتم التفاهم والسور يفصلنا عنهم ؟

- اذا اراد المرء ان يعمل فلا يعوقه عائق مهما كان نوعه أو مقداره .

وبخصوصاً اذا ساندته القوة وآزره اصحابه وساعده .

فردوا عليه وقالوا : -

نحن على اتم الاستعداد لمساعدتك ومؤازرتك .

فقال عامر : -

اذا كنتم كذلك فعليّ بـ « عتبة بن الوعل » . فقال عتبة : -

ها أنذا أيها الامير .

فقال عامر : -

انك ستكون رسولي الى قائد المسلمين ، والرسول مستودع امرار

المرسل وموضع ثقته ، فأرجو أن تكون عند حسن ظني بك كما وارجو

أن تستعمل مواهبك وتبرز كفاهتك وبلاغتك وتستغلها ، لاني لم اخترك

لهذه المهمة إلا لما اعهده فيك من الجرأة والشجاعة والخطابة والبلاغة .

اذهب اليه واخبره بأقنا على استعداد لتلبية جميع مطالبه ، مقابل تعاونهم

معنا بعد فتح ابواب السور لهم باخراج الروم من مدينتنا .

فقام عتبة من لحظته وخرج من القصر ثم اجتاز المدينة ، بعد ان

تسلل من الباب السكائن في الجنوب الغربي من السور ، وكما اعترضه أحد من جنود المسلمين قال : - اني رسول عرب تكريت الى القائد .
حتى وصل الى خيمة « عبد الله بن المقيم » فدخلها ولما سلم عليه ،
اخبره بما قال الامير عامر وجماعته . وزاد على ذلك وقال : -

ولا نظن ايها القائد بأتنا خوثة . اردنا زعامة أو جاهاً ، أو خفنا من
كارثة أو مصيبة فضحينا بكرامتنا التي هي أعز ما نملكه . فإنتا
نعرف معنى الحياة التي هي عبارة عن التعاون والتآزر مع العدو الاجنبي
لاذلال ابناء الوطن واستعباد اخوان الجنس والدين ، بعد تجريدهم
اموالهم ، وسلبهم خيراتهم وغلالتهم وحرقتهم ، ولكن عملنا هذا ماهو
إلا تعاون وتكاتف مع اخواننا وابناء عمومنا لدرء خطر الروم عنا .
قال القائد : -

بارك الله فيك وبزعيمك وبقبيلتك ، ولكننا لا نرضى منك ذلك فقط
مالم تشهدوا برسالة محمد وتقرؤا بوحداية الله الذي ارسله بالحق .
- ارجم الى قومي فاعرض عليهم طلبك ثم أوافيك بالخير .

وقبل ان يتفرق القوم ويخرجوا من قصر عامر ، دخل عليهم « عتبة
بن الوعل » فأخبرهم بطلب عبد الله بن المقيم . وذلك ان يقول كل واحد
منكم « اشهد ان لا إله إلا الله واشهد ان محمداً رسول الله » فنزل الخبر
عليهم نزول الماء البارد في جوف الظامى الصادي .
فقال له ذو القرط : -

ما اسهل الطلب راعذب اللفظ الذي يمازج الشعور ، ويخالط الاحساس
فيجمع الكلمة ويلم الشمل ، ويوحد الصفوف . فيكون التكاتف ويكون
التعاون لان هذه الالفاظ هي نواة اجتماع القوم .

فقاطعه عامر وقال : -

القوم بانتظار الجواب والرأي الذي يجمعون عليه . فأرجو ان تبينوه
وتوضحوه قبل ان تغلق الفرصة من ايدينا .

فما كاد ينتهي عند هذا الحد حتى سمع القوم يقولون بصوت واحد
« نشهد ان لا إله إلا الله ونشهد ان محمداً رسول الله » ولما تأكد عامر
من شهادتهم ، أعلن هو الآخر شهادته امامهم وقال لعتبة : -

اذهب الآن الى قائد المسلمين واخبره بأننا قبلنا الشرط واقربنا به .
ثم التفت الى المجتَمعين وقال لهم : -

أرجو ان تنفروا وتذهبوا الى الجنود المرابطين فتدعوهم الى مادامكم
اليه عبد الله بن المصم ، لتكثروا أنصارنا ومؤازرينا ، وانا ابلغكم بالخطة
التي تقبعلها في هذه الليلة عندما يوافيني عتبة برأي قائد المسلمين .

تفرق القوم وتغلغلوا بين الناس . ولما اعلنوا فكرتهم وصرخوا باسلامهم
تهافتوا عليهم معلنين اسلامهم ، متصويين آراءهم . اما عتبة فقد ذهب
الى المسلمين ، فأعلمهم باسلام عرب المدينة بجملة ترأسها رئيس قنبل
« عامر » الذي قام بهذه المهمة ، وابدى هذا الرأي واردف قائلاً :

والآن تركتهم يتلهفون الى رجوعي لأوافيهم بالاخبار من عندك ،
فابلغهم الرأي الذي تبديه في سبيل الخلاص بعد الفتح . وهم على أم
استعداد لتنفيذ جميع ما تطلب وتريد .

فقال عبد الله : -

ارجع اليهم وخبرهم : - اذا سمعوا تكبيرنا ثلاثاً فعليهم والحالة هذه
ان يأخذوا بأبواب السور التي تلي دجلة فيفتحوها ، ويكبروا ثلاثاً ثم

يقتلوا من قدروا على قتله ممن يستفزه التكبير ، فيخف الى الحرب والقتال
ليقتنى لنا تطويقهم والقضاء عليهم .

ولم يلبث عتبة ان ترك جيش المسلمين ورجع الى المدينة ، فدخلها من
الباب الصغير الذي يلي الجبل من الجهة الجنوبية . ثم دخل القصر على عامر
فوجد مجلسه خلواً من المجتمعين . ولما سأله عامر عما أسفرت عنه محادثاته ،
شرح له كل ما سمعه من عبدالله . فقام عامر وسار بعد ان ركب جواده
وأمر عتبة باتباعه متجهاً نحو العرب المرابطين على السور ، وكلما خلا بجماعة
بليغهم الخبر ، واوصاهم بكتمان السر وأمرهم بالتلبية والتيقظ حتى جاء على
آخرهم ، وحينذاك التقى بسطيح فوجده يشجع جماعة أباد والروم
والشهاجرة على أخذ الحيلة والحذر . ثم الاستعداد للاصطدام والنضال ،
وبعد ان تبادلوا التحيات وتصاصوا انفجرت اسارير سطيح ثم افتر نفره
عن ابتسامه كأنها اشراق الامل لأنه قد اهدى الى شيء ثمين كان يبحث
عنه من زمن بعيد ثم اردف قائلاً : -

مراقبة جميع وحدات الجيش منوطة بك يا عزيزي عامر . ربما ارجع
اليك ، فاني ذاهب الآن لمنع وحدات جيش الروم من العبور الى الضفة
الثانية من دجلة ، وسأرجع اليك قبل ان ينباج الفجر .
اما عامر فقد رآها فرصة مناسبة لتنفيذ خطته . فقال : - تصحبك
السلامة يا عزيزي .

ولم يكد سطيح يبتعد عنه حتى ذهب الى حراس الابواب فنهاهم
عن الحراسة ، ووكل بحراستها من جمعهم مجيوش عبدالله بن المعتم
« الشهادة » . بعد ان اوصاهم بفتح الابواب عندما يسمعون تكبير
المسلمين .

وقبل ان تبدد طلأع الفجر دياجير الليل القاتم الذي كان يكتنف المدينة ، بددت سكونه صيحة موحدة ردها نخسة آلاف رجل باعلى أصواتهم ، رددتها عليهم الوديان والجبال وجدران السور ، فكانت تهز الجبال ، وترعب النفوس وهي « الله اكبر الله اكبر الله اكبر » ، خف بعدها جنود المدينة بخوف ووجل الى ابواب السور ، وقبل أن يصلوها سمعوا صيحة « الله اكبر » مرعدة ثلاث مرات في الجهة الجنوبية الشرقية ، فالتفتهم الخيرة ، وادركهم الاضطراب ، وحاروا في أمرهم ، وبدأوا يركضون الى الشمال والجنوب دون وعي أو ادراك ، لكن سيوف جيش عبدالله بن المغمم قد أمعنت فيهم الضرب من الامام ، وبادرهم عرب المدينة المسلمون من وراء ، فحاروا في أمرهم ثانية ، والقوا بأنفسهم في الخندق الذي يبعد عن السور بمسافة مائة ذراع داخل المدينة ، وكانوا قد احتفروا لهذا الغرض .

فكان نصيب الذين أصروا على عدم تبديل فكرتهم ، وتغيير عقيدتهم الهلاك التام ، أما من استسلم أو أعلن اسلامه فقد سلم من الهلاك ، شأنه بذلك شأن من جبن وخاف القتال ففر قبل ان يصطدم ، أو عندما يقن هلاكه ولاذ بحصانة القلعة (١) تحت قيادة « سطيح » وبعض قادة الروم .

(١) تلك القلعة التي منحها موقعها الحصين الى اعتصام أهل تكريت فيها وقت الشدائد والاهوال والغزوات وقد وقفت في وجه هولاء بعد غزو بعدد ثلاثة أيام .

واعتصم بها حسن باشا وقاوم تيمورلنك به ٧٢ ألف مقاتل مدة شهر ، لكنه استباحها وقتل من أهلها ما لا حصر له ولا عد .

وبينا كانت المعركة في شدتها ، كان شاب من المسلمين قد تعاهد مع
جماعته على الموت حينما كان يحمل الراية ، وقد ضايقتهم جماعة سطيح في
الجهة الشمالية من الباب الغربي ، وقد أبى أن يجعل الراية نهوي الى الارض
بالرغم من تقطيع يديه ، وانكسرت وقعت على الارض حينما وقع بجانبها
يلفظ انفاسه الاخيرة ، فكان آخر قتيل بعد قتل جماعته الذين تعاهدوا
فيما بينهم على الثبات لاهراز النصر ، أو نوال الشهادة ، فامرع عبد الله
بن المعتم اليه بعد ما رأى الراية نهوي ، فحمل على الشارجة والروم وبعض
العرب حملة عظيمة ، تمكن من تفريق صفوفهم وتشتيت شملهم ، فوقف
أمام جثة الشاب وقال :-

تعمدك الله برحمته أيها الولي الثابت (١) .

وما كادت الشمس تشرق وطلت بأشعتها على المدينة حتى هدأت كل
حركة يراد بها القتال أو الاستمرار في المقاومة كما امتنع الناس من التجوال
والخروج الى مزاولة أعمالهم ، اسكنهم اكتفوا بالاعتكاف في بيوتهم ،
والانطواء على انفسهم لما ساورهم من الخوف والفرع .

لكن الشعور بالخوف قد تبدل وتبدد حينما طاف عليهم القادة
والامراء الذين اسلموا فاستسلموا فافهمهم حقيقة الامر واعلمهم بالواقع
عند ما صار حومهم باسلامهم واسلام جندهم وتابعيهم ، لا كرهاً واجباراً ،
بل رغبة وقلهاً وشوقاً ، اما الذين تمردوا على طاعة الفاتحين فقد أصابهم
الهلاك والحصار في القلعة فذهبوا ضحية عنادهم .

(١) قد نهر وجماته في الحل الذي نتوا فيه ، وهو الحل الذي يدعى الآن

بـ « أولياء الثبوت » بمعاذاة السور .

ولما تم كل شيء بعد دخول المسلمين المدينة وخروج أهلها من دورهم
لإزالة أعمالهم ، آن لعامر ان يرجع الى قصره ليأخذ بعض الراحة ،
وإثناء ما كان متجهاً الى القصر قال لجرير :-

امرع الى بيت سلمى وقل لها عامر بانتظارك الآن .

وما كاد عامر يستقر في جلسته حتى دخل عليه جرير في زي والده وقال
باضطراب وقلق :-

عند ذهابي الى دار سلمى ، طرقت الباب عدة مرات ، فلم اسمع صدى
القرع أو النداء لذلك دخلت الدار ، وقبل ان اتغلغل فيها رأيت جمعة
والد سلمى ملقاة في صحن الدار مضرجة بالدماء ، لا أثر للحياة فيها ،
فما لي الموقف كما أحزني ، ثم تركت الجمعة على حالتها وجست الدار افتش
عن سلمى ، فلم أجدها أثراً أو أرى لها ظلاً في ذلك البيت كله ، لذلك
رجعت اليك بعد ان ضاع من يدي زمام قيادي لنفسي ، وانقطعاً في
رأسي مصباح تفكيرتي .

قال ذلك وسكت يلفتظ الجواب ، اسكن عامر قد نهض وسار مسرعاً
دون ان يتكلم بكلمة عدا قوله لجرير : أتبعني يا جرير .

وما ان فترت سرعته أو توقف من مسيره حتى صار أمام الجمعة الملقاة
في صحن دار سلمى ، ثم جنى بجانب الجمعة ، وبدأ يحركها ويقلبها باحثاً
عن معالم الحياة فيها ، فلم يجد ما كان يتوقع ويرتجي ، لأن الضربة التي
قد شقت طريقها في صدره الى قلبه قد استنزفت آخر ما بعروقه من الدم
بعد ان مزقت عضلات قلبه وخرقت اغشيته ، ولم يستطع « عامر » من
ان يحبس الدمعتين المترقتين الجائلتين في عينيه ، بل عمدتا عليه وانهلتا
على وجنتيه فغاصهما يندبيله اسكنه لم يستطع عن محو اثرهما في عينيه وقصه

ثم وقف برهة يسرح بصره ، ويمتعرض صفحات ذاكرته رغم ذهوله
وشروده ، ونجاة اندفع الى الباب كأنه السهم المنطلق من القوس وقال
لجربير عبارته المعهودة « اتبعني يا جربير » الى دير « مربحنا » لأنني
تذكرت قول مارين قبل سفر سطيج الى انزويجان فلا بد وان تكون
له يد في القضية .

ولما دخلا الدبر استقبلهما ثلاثة من رجاله ، فرحبوا بهما ، كما عجبوا
من زيارة عامر لديرهم ، وقبل ان تذهب بهم الظنوف المذاهب الشتى ،
فبيتهوا في مفاوز الشك والريب ، فاجأهم عامر بالـكلام وقال :
أريد مقابلة الراهب « مارين » .

فرد عليه أحدهم :-

انه غير موجود هنا الآن .

- فابن هو إذن ؟

- خرج عند منتصف الليل في مهمة نجملها ، ولم يعد بعد .

فلم يتألم عامر نفسه فقال :-

لقد تحقق ظني كما بان صورة حدمي ونحمني واضحة جليلة ، لأن
اللعين « مارين » قد بر بوعده لسطيج ، فاخطفها له ، بعد ان ارتكب
هو ومؤازريه من اتباع سطيج تلك الجريمة النكراء ، التي لا تليق بأهل
الورع والتقوى ، وممثلي العمالة على الارض .

ثم خرج من الدبر كأنه الماء المنطلق من انبوب ضيق وجربير يتبعه
وسار حتى وصل الى قصره ، فرأى ثلاثة من فرسان المسلمين بانتظاره
وقبل ان يدخل قال له أحدهم :-

قائدنا « عبد الله بن المعلم » مع المفرياف في « كنيسة الخضر » .

برغبان في مقابلتك هناك في أمر ذي أهمية ، وقبل ان يرد عليهم بكلمة
أمر جرير باحضار جواده ، ولما احضره له ، ركب به وسار يتبعه جرير
وبعض من حضر من ثقات حتى وصل الكنيسة ، فوجد كبار رجال
المسلمين مجتمعين مع رجال الكنيسة ، وعند ما سلم عليهم ، وتصافح مع
القائد اثر التعارف ، جلس بالقرب منه وأطرق برأسه ، ثم استسلم له واجسه
وأخيلته ، وقد انسته همومه انه في مجتمع زاخر بكبار المسيحيين والمسلمين
ولم يخف عليهم اطرافه وحزنه المكبوت ، لذلك حمد المقران «ماروثا» الى قطع
سلسلة افسكاره المزعجة ، واخفاء صور البؤس والألم التي بدأ يستعرضها في
ذاكرته أو مخيلته ، وقال بوجه كلامه اليه :-

أرجو أن تكون حارس الكنيسة يا عامر بعد اسلامك كما كنت
حاميا وفارسها قبل ذلك ، لأنها ومن فيها والتابعين لها في حمايتكم جميعاً
وتحت ظلكم أيها الاخوان ، قال ذلك والتفت الى عبد الله وجماعته .
فرد عليه عبد الله وقال :-

الاخلاق الحسنة ، والسيرة المحمودة ، والسجايا الممتازة هي التي ستتولى
حراسة من يتصف بها ويلتزمها ، وبارغم من ذلك كله فإننا سنكون خير
سلاح لكم ، تشهرونه في وجه الظالم المعتدي ، وستنالون في حمايتنا أيها
الاخوان كل ما يرضيكم ويمركم ، أما اخواتنا الذين أسلموا فسيكونون
مناصرينا ومؤازرينا عند دفع الاخطار عنكم ورفع الاضرار منكم ، فاتم
في ذمتنا ما بقيتم وبقي الدهر على ان تؤدوا الجزية لنا ، فيما اذا بقيتم على
دينكم .

فقال للمقران :-

الضريبة التي يفرضها السلطان واجبة الدفع من قبلنا ، وهي من صميم

ديننا وقد أمرنا يسوع^(١) بها قبل ان تأمرونا انتم ، ولم تأتوا بغريب
فقد كان نصارى المشرق يؤدون الجزية للساسانيين^(٢) ، ولسكننا بحاجة
الى ان تتوروننا ببعض المعلومات التي تكشف لنا عن كيفية جباية هذه
الجزية .

- لا شك انها ستجيب بواسطة العامل الذي يتولى ولاية المدينة
وادارتها ، وسيأخذها بحسب التعاليم التي زودنا بها خليفة « محمد » (ص)
« صهر بن الخطاب » .

- وكيف ذلك يا أخي ؟

- نأخذ من الرجل الذي ينتمي الى طبقة الاشراف والامراء « الطبقة
العليا » ثمانية وأربعين درهماً أي أربعة دنانير ، ومن الرجل الذي من
الاغنياء فيبن أربعة وعشرين وثمانية وعشرين درهماً أي دينارين فقط ،
أما الرجل الذي هو من عامة الناس فنأخذ منه اثنتي عشر الى
ثلاثة عشر درهماً أي ديناراً واحداً^(٣) . تدفع هذه الجزية نقداً أو
ملابساً أو غلة ، ونصيب من يمتنع عن دفعها الحبس . ونأخذها من الرجال
البالغين الذين لم يؤمنوا بديننا سواء كانوا من الوثنيين أو من معتنقي
الاديان السماوية ، ويعفى منها النساء والاطفال والشيوخ والمقعدين
وذوي العاهات .

(١) ذكر مضمونها في :- انجيل مرقس ١٢-١٣ ، انجيل متى ١٧-٢٣ ،
رسالة بطرس الأول ٤-١٣ ، رسالة قولسايس ٤-٥ .

(٢) نصارى المراق ص ٥٥-٥٦ .

(٣) فجر الاسلام ص ٨٦-٨٧ ، نزعة المشتاق ص ١٠٢ .

نصارى المراق ص ٥٥ ، فتوح البلدان ص ٦٨ .

فرد عليه المفريان وقال :-

إذن فنحن على اتفاق في ذلك .

- أكني أرجو من غبطةكم ان تأمروا باجتماع أهل المدينة غداً
لنأخذ منهم الجزية على ضوء معلوماتكم ومعرفتكم وإطلاعكم على حالتهم
الاقتصادية ، فالى الغد واستودعكم الله .

قال ذلك وخرج مع حاشيته ، بعد ان تصافح مع المفريان وعامر ، وقد
تخلف طامروبي في الكنيسة بإشارة من المفريان .

ولما انفردا ببعضهما قال المفريان :-

أراك قد تبدلت وتغيرت عما عهدتك به سابقاً ، لما يلوح عليك من
علامات البؤس ودلائل الانشغال والتفكير من جراء اطرافك وشرودك
وتقطب وجهك وقلة مناقشتك وكلامك .

- لأنني يا مولاي قد فقدت حبيبتي « سلمى »

- وكيف فقدتها يا عامر ؟ قال ذلك بعد ان بدت عليه علامات الدهشة
والعجب .

فرد عليه عامر وقال :-

اختطفها الزاهب مارين لسطيح بمساعدة بعض رجاله بعد ان ارتكبوا
جريمة قتل والدها ، اثناء الدفاع عن عرضه للحيلولة دون اختطافها .

- ومن اعلمك بذلك وادراك يا عامر ؟

وبعوجب هذا السؤال تسنى لعامر ان يبين للمفريان جميع ما سمعه من
الزاهب مارين اثناء اجتماعهم في الكنيسة للافاد « سطيح » الى
اذرييجان ، ثم اعلمه بما بيته له سطيح من الكيد ، للايقاع به في
سجستان وما عمله في بيت « سلمى » اثناء غيابه ، ثم أوضح له كل ما

كان مخفياً عليه من أعمال الراهب مارين وسطيح ، فتنبه المفريان ، وكانه قد استفاد من سبات صديق وقال :-

إذن فالنام بطربرك انطاكية علينا وعلى سطيح ما هو الا من مكائد مارين ودهائه ، قال ذلك حينما استعرض جميع المواقف والحركات التي وقفها وتحرك بها الراهب منها في امر اخبار رؤساء كنائس اليعاقبة بما فتح الله عليهم وما قاموا به من اعمال ، فأيقن بخيانة مارين لواجبه ودينه : فؤازرة سطيح ومساعدته وجرفه الى الانتيان بهذه الاعمال المزرية التي لا يقبلها العقل أو يستسيغها الذوق ويقربها الدين الذي هو براء مما يعملون .

ثم اتجه الى عامر وقال :-

يعز علي يا ولدي فراقك وبعدك عن كنيسةنا التي كنت دعامة عزها ومجدها .

- اني على العهد القديم مقيم . محافظ على صداقتكم ومودتكم ، دون ان أبتعد عن مجتمعتكم . لان الاديان ما هي إلا مسالك تسلك للوصول الى مثوى السعادة الحقة ، والرفاه الدائم . فأصلحها أقصرها وآمنها .

لذلك فسلكنا سائرون الى غاية واحدة لتحقيق هدف مشترك واحد ، هو لا سعاد البشرية بإيجاد مجتمع كامل يتألف من ذوي النفوس الطاهرة والقلوب النقية ، والاعمال الصالحة . بالرغم من اختلاف السبل ، وتمدد المسالك التي هي من اختيار المرء وانتخابه .

أما المفريان فقد أصابه ذهول وشرود ، عندما كان عامر يتكلم . لذلك أحب أن ينفرد بنفسه ليقضى بأفكاره . فقال لعامر :-

لنا اجتماع آخر يا ولدي ، وقبل أن تنصرف أرجو أن تباع أهل المدينة
بالاجتماع غداً في الساحة الغربية ، لأخذ الجزبة منهم . فكلملك بذلك رهم
همك وحزنك ، لأننا قد فقدنا كل مؤازرينا ومساعدينا ، ولم يبق لنا
غيرك نتق به ونعتمد عليه .

جلس عامر في غرفته ثم أمر جرير بالحضار « زوبعة » . ثم غاب عنه
بعض الوقت ، ورجع اليه وقال : -

ليس لها وجود في القصر كله . ولما سألت البواب عنها قال انها
خرجت عند منتصف الليل وهي تدعي انها ذاهبة الى الدير لقص رؤياها
اللفزة المقلقة على الراهب مارين . لأنها كانت تخاف من عاقبتها ، وتوقع
شرأ بعدها ولا سيما والفزاة على أبواب السور ، ولم تعد بعد .

فتبادر الى عامر قول سلمى ، فردده بصوت مسموع وقال : -

« حقاً انها جارية خفيفة الروح والظل ، لكنها هدية سطيع ، لذلك
فاني لا اركن اليها ولا ارتاح منها » . لقد صدقها ظننا ، ولم يخونها حدسها
وتخمينها . لأن سطيع لم يهدا لنا حباً فينا ، أو تقديرآ لجهودنا بل لكي
نعمد له الطرق وتذلل العقبات في سبيل نوال غايته ، أو الوصول الى
منايته .

واستمر كذلك يستعرض صور الماضي التي ارتسمت في ذاكرته ، ولما
انتهى منها التفت الى نفسه يناقشها ويذاكرها ، وقد انتهر فرصة اقارده ،
ليقدح زناد فكره ، ويمتصر خلاصة ذهنه ، يلتهم الطرق ويبعث عن
المساك التي توصله الى سلمى . فينقذها من محنتها أو يلتشلها من بين
صائديها ومقتنصيها ، ليتذوق سعادة الحياة بقربها . فلم ير غير الامراع

فتح القلعة طريقاً يسلكه ، خلاصها واقاذها .

ولم تبلور هذه الفكرة في مخيلته وفكرته إلا بعد أن يأس من وجودها حينما اخبره رجاله بتفتيش المدينة بيتاً بيتاً ، فلم يثروا عليها .

وبات ليلته يعمل نفسه بذلك البصيص الخافت من الامل الذي تسلل اليه من بين حجب الهم والحزن التي اكتتفته وحجبته عن نور الفرح والابتهاج الذي أضاء قلوب أهل المدينة ونور نفوسهم .

وفي صباح اليوم التالي اجتمع برجال الكنيسة وكبار رجال الجيش الاسلامي وبمض وجهاء المدينة في « الكنيسة الخضراء » باوقت الذي كانت الساحة الغربية تموج بالمحتشدين من أهل المدينة وتزخر بهم . فاكأن من الوجهاء إلا وقدموا الى المقرين قوائم بأسماء الرجال الذين تخلفوا عن الاسلام فوجبت عليهم الجزية . فصنفها المقرين بدوره الى ثلاثة أصناف حسب حالتهم المالية وممراتهم الاجتماعية ، حينما أعلمهم بحقيقة الامر . وقد زادهم عبد الله بن المعتم ايضاحاً حينما كشف لهم عن الاهداف والغايات التي دفعتهم الى الفتح . ثم بين لهم عن غاية اجتماعهم .

وهكذا تفرق المحتشدون الى مزاراة أعمالهم عندما فهم كل واحد منهم مقدار ما يدفعه من الجزية اذا بقي محافظاً على دينه وعقيدته . وقد راقت لهم عدالة التوزيع وحسن المعاملة .

أما من أسلم فلم ينله إلا ما يسره ويفرحه ويرضيه .

وقبل أن يهجم المجتمعون بمفادرة السكنيسة ، عرض عامر عليهم أمر افتتاح القلعة وقال : -

أرجو أن تفكروا في فتح القلعة قبل أي شيء ، لأننا لا نود أن نبقي للروم أثراً في مدينتنا ، ولا نرغب أن تكون هذه القلعة قذراً في عيوننا أو عقبة في طريقنا ، ولا سيما حينما اعتصم بها مخالفو الدين واعداء المدينة .

وان نحن اهتمنا أمرها الآن ، فربما تكون العاقبة وخيمة عندما تأتيهم الامدادات ، وتلتحق بهم النجادات .
فرد عليه عبد الله وقال : -

وكيف تقدم على فتحها وهي بهذه الحصانة ؟
- ان من يحفزكم الى فتحها هو الذي سيضمن لكم النصر بأقل كلفة وأبسط تضحية . كما ضمن لكم الدخول قبل هذا .

نحن لا نتكر شجاعتكم ومقدرتك ولا نتجحد حسن صنيعك ، وعظم نصيحتك . فلك المسكنة الممتازة والحق المحفوظ ، جزاء لجهادك وتفانيك في سبيل الدين . ولكننا بحاجة الى الايضاحات التي بواسطتها ندلل الصواب وفتح الحصن الحصين .

- لما كنت صاحب الدار ، وصاحب الدار أدري بالذي فيها . فلذلك استعجلتكم في أمر اقتحام الحصن الذي تهيبونه وتخافونه . لأنني قد

أهدت اليلة الى خطة ممتازة ، توصلنا الى فتح الحصن ، دون تضحية كبيرة أو عناء هم .

- وكيف ذلك ايها الأمير ؟

- ان هذه اليلة ستكون خير فرصة لتنفيذ خطتنا لانشغال القوم في مهرجانهم الشعبي في البيعة بمناسبة « عيد الجسد » . فعند منتصف الليل أتسلل ببني ثقلب وبعض مسلمي المدينة من الباب السري^(١) الذي نجده مفتوحاً على مصراعيه ، لأن القوم يتلقون مؤنهم وطعامهم بواسطته حينما تنقل اليهم من الضفة المقابلة بالزوارق ، ثم تقتل الحرس وتدخل القلعة بالوقت الذي تقتحمون فيه الجدول من الجهة الجنوبية الغربية فتصعدون المدرجات وأنتم في أمن من رماة المجانيق والسهام . وعندما تسمعون صيحات الله اكبر الله اكبر تهجمون ثم تردونها ثلاثاً لنوقع الرعب والفرع في قلوبهم .

- انها فكرة حسنة فبواسطتها سنأخذ القوم على حين غرة . وبذلك أرجو أن نتفرق لنستمد للامر .

وما كاد الليل يسبل ستوره على المدينة حتى ظهرت مشاعل النار فوق القلعة . كما ارتفعت أغانيهم وهازيهم التي يعبرون بها عن فرحهم واحتفالهم بعيدهم بالرغم من حالتهم التي تدعو الى القلق والاضطراب .

وبينما كان القوم منشغلون في مهرجانهم وأهل المدينة يتسمعون ضجيجهم ولغطهم تسلل رجل أيادي من الباب السري وتخلص من الحرس بحجة الاستحمام في دجلة . ولم يكد يصل الشاطئ حتى انحرف الى الجنوب وسار

(١) وهو الباب الذي يحاذي دجلة يصعد اليه بمدرجات ، وهو باق الى الآن .

في ذلك المر الضيق الذي تغطيه المياه بالرغم من هبوط مستوى النهر .
وبعد أن عبر الجدول الذي يفصل القلعة عن المدينة وصل الى قصر عامر
فدخل عليه بصحبة جرير الذي اوجس خيفة على سيده من ذلك الرجل .
وعندما مثل بين يديه أخرج رقاً مكتوباً من كفه فناوله الى عامر . ولما
قرأه وأتى على آخره تبين انه مرسل من وجهاء المعتصمين واعيانهم الذين
ترأسهم سعد بن سطيع^(١) الذي خط الرسالة بقلمه واستحث عامر الى تجديدهم
والتقدم اليهم فهم على تمام الاستعداد لمؤازرتهم ومساندتهم اذا ما اقتحموا
القلعة التي سيجدونها خالية من الحرس في هذه الليلة . وبشكو الشاب
المذكور من عناد والده واصراره على المقاومة حتى اللحظة الاخيرة من
حياته . وانه لا يرى في هذا العناد كل ما من شأنه انه يعود بالوبال
والخيبة عليهم .

فانبطت أسارير عامر وضحكت قسماته ثم دفع الكتاب الى جرير
وأمر الرجل بمصاحبته الى حيث يقيم عبد الله بن المغم . ولما وصلا اليه
ودفع جرير الكتاب اليه قرأه واستبشر منه خيراً وقال للأيادي : -

ارجع الى من أرسلك واخبرهم بأننا الليلة سنقتحم القلعة ، فليهم اذا
ما سمعوا صيحاتنا (الله اكبر الله اكبر) أن يمتكنوا في بيوتهم وملاجئهم
ولا يخرجوا كي لا يقع عليهم المكروه .

ثم رجع الرجل واعلم القوم بما سمع من عامر وقائد المسلمين فأطمانوا
وارتاحوا وظلوا ينتظرون .

وحينما هدأت الحركة في القلعة وانطفت مشاعلها هب المسلمون من

(١) وينسب اليه آل دهن وآل نوبختي في الوقت الحاضر .

مضاجعهم فقدم عامر ومن والاه وناصره من أهل المدينة الى الباب السري فوجه حينما رآه خالياً من الحرس . ولما اعتلى القلعة بمن تبعه كما هو شأن المسلمين في الجهة الجنوبية الغربية بقيادة عبد الله بن المغمم . وما هي إلا لحظات حتى تمزقت حجب السكون وتبددت سحابة الهدوء بصيحة (الله أكبر الله أكبر) التي قدفتها حناجر رجال عامر ورددها رجال عبد الله من الجهة المقابلة بصورة مرعبة ايقظت أهل القلعة بعد ان أفرغتهم وحيرتهم في أمرهم . لكنهم حملوا سيوفهم وأنجسوا الى الشرق وقبل ان يصطدموا برجال عامر أخذتهم السيوف من وراء وما كادوا يلتفتون ويصطدمون مع من هاجهم من الخلف حتى تحطفتهم سيوف رجال عامر . فتضايقوا وايقنوا بالهلاك حينما رأوا انفسهم وسط اعدائهم تتخطفهم السيوف من كل جهة ومكان . ولا سيما حينما أغلقت عليهم دائرة الحصار التي بدأت تضيق وتضجر . لكن عامر فتح لهم باب النجاة حينما ناداهم بأعلى صوته وقال : -

يا حماة القلعة : لا تكونوا مكابرين في قتالكم ، فتطوخوا بحياتكم وتلقوا بأنفسكم في مهاوي الهلاك والدمار . فان كنتم تحرصون على حياتكم وسلامة قلعكم واموالكم وعقيدتكم فاقبلوا بعد الاستسلام أحد الأمرين اللذين بهما سلامتكم وحررتكم : (الاسلام أو الجزية)

ولما علم المدافعون ان هناك مسلحاً للخلاص من الهلاك سلكوه ، فألقوا بأسلحتهم بالاجماع واعلنوا استسلامهم ، ولم يبق منهم إلا سطيح الذي انفرده بقتله وحربه وهو على حصانه الادم^(١) ويده السيف الذي

(١) الحصان والسيف والطيلسان في هذا يا عامر الى سطيح .

اهداه اليه عامر بلاعبه في رقاب المسلمين وأجسامهم ، ليمن فيهم قتلاً
وتجرباً ، وهو كالأسد الجريح الذي هب يدافع عن عرينه ونفسه دون أن
تتبرأ منه أو تضعف قوته ، أو يلتفت الى قومه الذين ضربت عليهم الذلة
والمسكنة فاستسلموا . وفي أثناء صولاته وجولاته التقى بعامر فحمل كل
منهما على الآخر حملة نكراه كي ينال من خصمه ما ييل غليله . لكن الحظ
قد خان مطيخ حينما كسر السيف بيده أثناء حملته على عامر لأنه قد
اصطدم بأحد الجدران الصخرية ، فانبعثت منه صيحة ألم وحزن وبأس
وقال : -

خاني القوم والاصحاب والولد وحتى أنت ايها السيف اللعين .

فدفع بما كان منه بيده في وجه عامر ولوى عنان جواده عنه فشق
طريقه بعد أن فرق الصفوف واتجه الى ناحية الشرق لأنه أبى أن يتدارك
الموقف ويستسلم الى المسلمين ليعيش عيش الذل والهوان ، شأنه شأن العبد
الأبق الذي ارجع الى خدمة سيده رغم انه . كما أبى أن يظل في ساحة
القتال يلتظر حتفه من القوم لتطأ أقدامهم عندما يخر في المعركة صريعاً .
وما أن قارب حافة الجبل المطل على نهر دجلة حتى وضع طيلسانه على
رأس حصانه ثم الهب صدر الجواد بالسياط فهوى به الحصان من فوق
الجبل ليخفي نفسه وهدايا عامر (الجواد والطيلسان) بين أمواج المياه
التي احتضنته بغبطة واكتنفته بفرح ، فأخفت جميع المعالم التي تدل على
وجوده وهو يلج بهذا القول : - ها انا جئتكم ايها الموت محتيماً بك من
الاهانة والذل بعد الاستسلام الذي افقدني حتى ولدي وصحبي ، ووداعاً
ابنتها الحياة . . .

وبالوقت الذي اكتشفته مياه دجلة واخفت معالمه طوت يد الالهال
صفحة حياته بعد ان حفظها التاريخ في سجله وكتب اسمه بقائمة الابطال
المخدوعين بأضاليل المستعمر فذهب ضحية اخلاصه لمضليله وخادعيه .

ولم تشرق شمس اليوم السادس عشر من شهر جماد حتى كان المسلمون
قد قضوا على آخر معقل من معاقل المدينة واستولوا على آخر حصن من
الحصون النبعة ثم كسروا شوكة مقاومة اعدائهم فانصاعوا الى أوامرهم
ورضوا بأحكامهم ومطالبهم طوعاً أو كرهاً ، وذلك بعد أن دام الحصار
والحرب اربعين يوماً تراحفوا خلالها أربعة وعشرين زحفاً كان احتلال
القلعة آخر مرحلة من مراحل المقاومة والقتال (١) .

فتسنى لأمير ورجاله ان يفتشوا جميع دور القلعة وقصورها وأقبيتها
وسرايها عن « مسلمي » فلم يعثروا عليها . ولما لم تجددهم استلهم شيئاً ،
إذ لم يتوصلوا الى من يعرف عنها أي شيء . لذلك رجع الى عامر حزنه
واساء واعتورته الكآبة وانتابته الريب ، وكاد اليأس يغلق في وجهه جميع
أبواب الامل ومنافذ الرجاء في أمر ايجاد حبيبته أو التوصل الى بعض
المعلومات التي تهديه الى محل وجودها ، وعبثاً حاول عبد الله أن يقنع عامر
بالزمام ولاية المدينة وحاكمتها من قبلهم ، لأنه كان في غنى عن السلطة
والجاه والنفوذ . ثم رد على عبد الله وقال : -

اني قد كرست حياتي لخدمة الدين المسيحي قبل هذا ، فلا عجب ولا

(١) وعندما تم قمع تمكريت انشد عبد الله هذين البيتين : -

ونحن قلنا يوم تمكريت جنها والله جمع يوم ذاك تنابموا
ونحن أخذنا الحصن والحصن شاخ وليس لنا فيها هتكنا مشايخ
معجم البلدان ج ١

غربة من ان اكرس بعض جهودي في سبيل الدين الاسلامي ، الذي
 تاقث نفسي اليه وهفت جوانحي عليه ، لذلك فاني سأرافقكم في غزواتكم
 أحارب الظلم أين ما وجد وحيثما حل الرآن يقضي الله أمراً كان مفعولاً .
 فذكره عبدالله على هذه التضحية وذلك التفاني ، واسكنه لم يعرف
 من أمره وأمر سلمي شيئاً ، ثم دعا بـ « ربعي بن الافكل المعزي »
 وسيره على رأس جيش كبير تطوع فيه مسلمو « تغلب واياذ والنمر »
 بالاضافة عما ضم من المسلمين وسار الى الحصنين بعد ان أوصاهم عبدالله
 وقال :-

اسبق الخيل وسر ما دون القبل واجي الليل (١) .

وتولى رئاسة جيش المدينة كل من « عتبة بن الوعل ، وذو القرط »
 وأبي وداعة ، وابن ذي السنية ، وابن الحجير الايادي ، وبشر بن ابي
 حوط .

أما عامر فقد تولى الاشراف على اعمال هؤلاء القادة جميعاً ، فكان
 القائد العام لقوات المدينة ، ولما ساروا وقاربوا « الحصنين » (٢) سبقوا
 جماعة ابن الافكل ، فقدموا عتبة بن الوعل ، وقد أدعى بالظفر ثم تناوبوا
 القيادة خلف الابواب حتى أقبل سراخ الخيل مع ربعي فاقترحموا
 الابواب ، وفتحوا الحصن ثم استجاب أهل الحصنين الى الصلح كما هرب
 قسم منهم ، فطاردهم المسلمون ووضعوا السيوف في رقابهم .

وبينما كان فرات بن حيان المعجلي جاداً في مطاردة الهاربين وملاحقتهم

(١) الطبري ج ٢ ص ١٨٦ .

(٢) موضع حصين يقع بين تكريت والموصل .

عز على ثلاثة فرسان ورجل آخر يرتدي لباس الرهبان ، وم يسوقون
فئتين ، سيدة وخادمة ، وقد انعب الطريق السيدة فانهمكها وهد حيلها ولم
يعد باستطاعتها الاستمرار على السير لعظم ما لاقته من المشاق ، اسكن
الراهب لم رق لحالها أو يرحم بها ، بل استمر على ضربها وسوقها ، ودأب
على صفعها بين الفترة والاخرى ، وهي تصبح وتستغيث ، ولما شمروا
بمقدم الفرسان تفرقوا وارادوا الحرب فلم يتسن لهم ، لان خيول
المسلمين أدركتها فقبضوا عليهم جميعاً وارجعهم الى « الحصنين » الى
حيث يقيم عبدالله وعامر ، دون ان يتعرضوا لهم بسوء أو يستفصروا منهم
ليطلعوا على حقيقة أسرم ، وقبل ان يسدخولهم ضجرت الفتاة وتأوهت
فقال :-

ليت عينيك ترى ذاتي ومهاتي واسكني على الابواب يا عامر .

فدخل « فرات بن حيان » على القائدين وبشر عبدالله بشقيته شمل
الحاربين بالقضاء على بعضهم اثناء مطاردهم ، وانهم قد أسروا جماعة منهم
وهم الآن على الباب ، فرد عليه القائد وقال :-

وما هي الدواعي والأسباب التي جعلتكم ترغمون الاسرى الى مقابلي ؟

- لأنهم ليسوا كالاسرى الذين نعهدهم ، وقد شكينا في أسرم .

- وما هو الشك والغربة ؟

- انهم ثلاثة فرسان يتولون حراسة راهب وفئتين ، احدهما خادمة

سوداء والاخرى يظن انها سيدها ، اسكن الراهب كان يذيق السيدة

ألوان العذاب وصنوف التعسف والجور والاضطهاد ، من جراه عدم

مقدرتها على السير ونحمل المشاق .

أما عامر فقد خفق قلبه بين ضلوعه ، ولولا قنص صدره لطار من بين

جنبيه الى حيث تقف الفتاة المذكورة ، ثم اعترته هزة عيفة بعد ان
مرى بحسه تبار قوي لا يعرف ماهيته أو سببه ، فالتفت الى فرات
وقال :-

اسمح لهم بالدخول وعجل .

فضحك عبدالله والتفت الى عامر وقال :-

يظهر انك متلهف اليهم .

- أجل أيها القائد ، لأن قلبي يتحدثني اني قد اهديت الى ضالتي . . .

وما كاد يتم كلامه حتى دخل الامرئى ولم يكذبم نظر عامر على الفتاة

حتى صاح من غير شعور وقال :-

سلمى . سلمى . سلمى . سليمانى .

فاجفلت سلمى من الصوت الذي تافت كثيراً الى سماعه ، فرففت

رأسها وفطرت فإذا بعامر ، عامر حبيب قلبها وأملها المشهود يتوسط الجمع

ثم ينهض اليها واللهفة تكاد تقتله ، فاسرعت هي اليه ، كأنها وجدت

المأوى الذي يقبها غائلة الحداث ، لكن قواها خارت فوقت مفشياً

عليها قبل ان تحتويها ذراعي عامر ، أما هو فقد انحنى عليها بعد ان اصابه

من الدهول ما افقده التفكير والادراك ، لكنه لم يفقد الاتزان رغم

خور قوته وتأرجح قوامه ، لذلك انحنى اليها في موضعها ، وطرحها على

الفراش في أحد أركان المخدع الذي هم فيه ، ريثما تصحو وتستيق ،

ثم يطلع على حقيقة هذا الموقف الذي جاء وليد المفاجأة والصدفة ، ثم

تدارك عامر أمره فاستفاق من غشيته وصحا من ذهوله وشروده ، وقبل

ان تصحو الفتاة ، اعتذر عامر من عبدالله عما فرط منه وما بدر ، لانه

قد فقد السيطرة على أعصابه فقال :-

انها حبيبتي منذ الطفولة والصغر ، ولم يعقني عائق من اجل الاقتران
 بها والزواج منها غير الجهاد في سبيل الدين ، والنضال لاسعاد أهل المدينة
 وغيرها ، ومع ذلك كله فقد شاركني « سطيج الايادي » في حبها بعد ما
 توفيت زوجته أم ولده « سعد » ذلك الشاب الذي تأوضنا في أمر التقدم
 الى القلعة لفتحها بعد تطهيرها من الروم ومناصريهم ومؤازريهم ، وعندما
 علم سطيج ان سلمى مخطوبة من قبلي ، تحداني وأصر على طلبه ، وقد
 بذل من الاموال ما لا حصر له أو عد فلم يفلح ، ولم يحظ بما يرضيه ،
 لذلك حاول اختطافها عدة مرات كما حاول قتلي مراراً ، لكنه لم يفلح إلا
 بهذه المرة فقد انتهر فرصة انشغالي وبقية أهل المدينة بالقتال في الليلة التي
 فتحت الابواب فيها فأختطفها بمساعدة الراهب الذي رأيته والحادمة التي
 صحبتهما بعد ان قتلوا والد سلمى الكفيف البصر ، وما ان وصل بكلامه
 الى هذا الحد حتى تحركت « سلمى » وبدأت تستبق وتصحو . ثم
 استوت جالسة ، ففجئت واستتعت عند رأيت نفسها في محل لا يلائم
 لنوم فتاة فيه ، وقبل ان تسترجع ما فقدته من الوعي والادراك صاحت
 بصوت متموج متهدج :-

عامر حبيبي ، أبي أبي يا عامر ، ثم اختنقت بعمرتها فاجهشت في
 البكاء ، فتقدم عامر اليها وجلس بجانبها يهدأها ويطمأنها ويقول :-
 لا تخزني ولا تخزعي يا سلمى ، اتركي الماضي وتنامي الآلام والمصائب
 فنظرت اليه بعينين دامعتين وقالت :-

كيف استطيع ان اترك الماضي وشبح الجريمة النكراء في ذلك اليوم
 الاسود لما يروح مخيلتي وناظري ؟ كيف انسى تلك المأساة التي سجلتها

أيدي الطغاة الآثمة على صفحة حياتي ؟ كيف انسى الماضي . وقد فقدت
أبي الذي هب لاعاتي وانقاذي وتحليصي ؟ يا لهول المصاب ويا لفداحة
الخطب .

داهمنا أربعة من المجرمين على غفلة ، بعد زيارة الماكر « مارين »
عندما قاذته إلينا الجاسوسة اللعينة « زريعة » بمذرة انتحلته ، واكذوبة
لنقتها ، وخطة دبرتها مع الراهب « مارين » ، وذلك انه بدأ يطوف على
البيوت كي يستحثهم على الدعاء والابتهاال الى الله برفع الخطر الذي اصبح
يحيق بالمدينة ، وقد طلبوا مني مغادرة منزلي ومرافقتهم ، ولما سألتهم عن
الحل الذي اقصده بصحبته ، والاسباب الموجبة الى ذلك ، اجابني مارين
وقال :-

الى صديقنا سطيج فيضك مخدع الزوجية في عصمته بعد ان تتوجك
الكنيسة بالعرز والشرف والقداسة . ولما ابدت استغرابي من كلام الراهب
الذي لم اكن انصوره أو أعقله ، قالت زريعة مؤكدة :-

كم كنا نتوق لهذه الفرصة المناسبة ، وننتهف الى هذه الساعة السعيدة
التي هيأتها لنا الصدف والاحداث والمقاجات ، لنقوم باختطافك ونذهب
بك الى سيدنا سطيج الذي هام بحبك ، وجن من غرامك جنون الحب
والشوق لا جنون الحب والاختلاط والالتيث ، ولم يهذي الى عامر الا
لأجل ان امهد له السبل بمختلف الطرق والوسائل كي يسعد بك وينعم
بقربك فاني انصحك بمغادرة الدار دون مماعة او بماطلة ، فانت لا بد
ذاهبة رضية أم لم ترضي ، انصحك بذلك اعترافاً بحسن المعاملة التي
عاملتني بها يا سلمى .

ولما ابدت العجب والاستغراب وذهلت بما فوجئت به ، صاح بي
مارين صبيحة مشكورة بخشونة وقحة :-

اسرعى ولا تضيعي الوقت علينا ، ثم صاح بالرجال وقال :-
خذوها جبراً وقسراً ولا تنادوا في انتظاركم واستماعكم الى اقوالها .
فكانت الصبيحة الاخيرة سبباً في ايقاظ والذي ، فهب خائفاً مذعوراً
مرتعداً لا يدري ما يصنع ويعمل ، وقد ضاعفت عذابه واضطرابه حينما
استصرخته واستنجدته على اثر هجوم اثنين من المجرمين على ذلك اندفع
كالسهم الي وقبل ان يصلني ، تصدى له الاثنان الباقيات ، فخالا دونه
ودون الوصول لا تقاذي واتزاعى من ايدي المجرمين .

فكلما ازددت استصراخه واستنجاهه كلما ازداد نحرها وتوتبها وتلويها
كما انه الثعبان الثائر الذي هب يدافع عن عشه ومخدعه المعتدى عليه .
ولما تضايق الرجلان منه وخافاه ، بادره احدهما بضربة على رأسه
افقدته اتزانة فهوى الى الارض مغشياً عليه ، كما فقدت انا السيطرة على
نفسي فانبعثت مني صرخة عالية ، وضعوا على اثرها الكلمات في في
لثلا افضحهم بصراخي واستنجادي ، ولما رأى مارين عمل والذي وسمع
صرختي ، ايقن ان الفرصة ستفلت من ايديهم وخصوصاً عندما يصحو
والذي ويستفيق من شدة وقع الضربة وعند ذلك يحول دون تنفيذ
خطتهم ، لذلك اوعز الى الرجل الآخر بالقضاء عليه فامتشق اللثيم حسامه
واغمدته في صدر ابي ، وحينما سحب حسامه ارتجف والذي وتخطب بدماه
ولفظ آخر انقاسه التي امتزجت بها بعض المقاطع والالفاظ . لم افهم منها
سوى اسمك يا عامر مقروناً باسم « سلمى » . ولم تستطع اعصابي تحمل
المصاب فالوقوف أمام الحادث الجسيم وقمة المتفرج أو المتألم فنجمت على

بصري غمامة سوداء فقدت بعدها الوعي والادراك .

ولم استفق من سكرتي أو أصبح من رقدتي إلا وأنا مضطجعة على سرير وثير الفراش ، في غرفة انيقة مرتبة الاثاث تظهر عليها الدقة والاناقة . ولما جلت ببصري في أنحاء الغرفة رأيت الرجال الاربعة الذين اقتحموا علي الدار مع مارين وزوجة وهم يشرحون قصة اختطافي لرجل آخر . وقد عرفت انه سيطيح حينما كان مارين يدعوه بـ «حامي الكنيسة» بين نقرة واخرى ، وهو يصفي الى قوله بكل حواسه . وما ان انتهى مارين وجماعته من سرد القصة حتى قال سيطيح :-

القلعة مهددة بالخطر الآن ولاسيما المسلمون قد احتلوا المدينة بمساعدة الخائن عامر ، ولا شك ان عواقب خيائنه ستنتال منا ما يعرضنا الى الخطر . ولذلك أرى من الاصلح والاسلم ان تغادروا القلعة وتأخذوا «سلي» معكم ، وتذهبوا الى «الحصنين» فاني موافقكم بعد أيام فيما اذا شعرت بقرب الخطر أو أحسست بضعف المقاومة ، وعدم المقدرة على الاستمرار في الاعتصام تحت الحصار .

ولما التفت سيطيح اليّ ووجدني قد استعدت ما فقدته من الوعي والادراك قال :-

سنخلصك من عار الخيانة العظمى التي ارتكبتها عامر فوصم بها جميع نعلب بوصمة الخزي والعار ، وستجدين عندنا ما يبرك ويرضيك يا «سلي» ولا تظني انك الآن اسيرة تساق ، وانما انت اميرة تزف الى أمير . ولم يكذبك يتلمظ بتلك الكلمات التي وقعت عليّ وقرع الصاعقة حتى انهلت عليه بالسب والشتم والتعنيف والتقرع جزاء على ما اقترفه من الآثام والاعمال الاجرامية . وقد بلغ بي الغضب والانهزام والحزن

والاسى والفرار الحالة التي افقدتني ادراكي ووعي ثانية فلم انتبه أو أشعر إلا وأنا في هودج فوق راحلة تسير في أرض لا أعرفها ولم أكن أنصورها وعندما انقضى اليوم واليلة والزمن الذي كنت فيه فاقدة الوعي وصلنا الى هذا المحل .

وقد أرغمت الى الخروج حينما قدمتم البنا ودخلتم هذا الحصن الحصين . وقد أذاقوني من العذاب ألواناً ومن القسوة والشدة صنوفاً وأشكالاً . ولا سيما في الفترة التي حاصرتمونا بها . لأنهم أيقنوا ان سطوحنا قد نال حتفه تحت سيوفكم . فعاملوني معاملة العبد الابق وساقوني سوق الحيوانات المؤذي ، وعاملوني معاملة الكلب العقور . وما ان انتهت « سلمى » الى هذا الحد ، وأمر عبدالله بادخال الامرئ عليه بعد ذلك . حتى دخلوا ووقفوا أمام القائد عامر . فارتجفت « زويعة » وخرت على الارض مغشياً عليها ، لعدم نهية القوة الكافية لأعصابها بأن تقابل عامر . ولما صحت ورجع اليها وعيها ، اعترفت بكل ما كان مخنياً على عامر . واعترف مارين بما حاكمه من الاشراك ، وديره من المؤامرات في سبيل مناصرة سطوح ومعارفته على التنكيل بعامر . ثم ان عبدالله التفت الى عامر وقال : -

بإمكاني ان اقتص من هؤلاء على ما اقترفوا من ذنوب، ولكنني سأكل أمرهم الى المفريات « ماروثا » فهو يبت في أمرهم ، ويتولى محاكمتهم فعقابهم . اما انت ايها الاخ ، فأرجو أن ترجع عن تخارم من قومك وعشيرتك الى مدينتك ، وتركنا نسير الى الموصل . فرد عليه عامر وقال : -

لا بد من مرافقتكم في الحال والترحال ، فصيري قد تعلق بمصيركم .

غيبجب أن أقدم الى الاسلام مثل ما قدمت للعيسيجية من خدمات ، ولا أرجع ما لم ترجعوا أنتم بعد النصر التام .

- النضال والجهاد في سبيل الدين ، لا يقتصر على المعارك والقتال . بل في كل سوح الحياة . فانك ان رجعت الى تكريت ، وتوليت رئاستها وادارتها من قبلنا ، تكون قد أدت خير خدمة للدين . لأنني اوجس خيفة من سكان المدينة من أن يشقوا عصا الطاعة علينا ، ولا سيما وقد تركناها بدون والي واقصر أمرنا فيها على اتكالنا على أفراد قليلين من الجيش تولوا ادارتها وحمايتها .

- لم يكن عملي الذي عملته حباً في الرئاسة ، أو طمعاً بالمنصب لأفضلها الآن على الجهاد في سبيل الدين ونشر لوائه ، لأن حبي لنشر السعادة بين الناس كي يتمتعوا بها بعد تطبيق قوانين الله ونظمه هي التي سيرتني معكم بعد أن مهدت لكم الدخول في المدينة . وأنا الآن قد آليت على نفسي أن لا أتولى أي منصب مهما سمى أو ارتفع .

- لم نسندك ولاية المدينة يا عامر إلا لاعتمادنا عليك ووثوقنا بك من انك خير من يحفظ لنا المؤخرة ، ويتولى تهدأة الاعصاب الثائرة في المدينة وثق انك سوف لا تبقي على ولاية المدينة إلا مدة غيابنا عنها . وعند رجوعنا ، نعين عليها من نشاء من أهل السكفاء والدراية ، إن لم ترض بالاستمرار فيها .

وفي صباح اليوم التالي ، انفصل عامر وقسم من بني قلوب عن جيش عبداقه الذي اتجه نحو الشمال لفتح الموصل وما جاورها من البلاد . وسار عامر بمن معه من مسلمي قلوب متجهاً نحو الجنوب راجعاً الى مدينته تكريت يستصحب الامرئ معه كذلك . وقد استقبلهم المفريان بالترحيب

وهناهم بالسلامة كما هنا عامر بالاهتداء الى ضالته الثمينة « سلمى » وقد
تسنى لعامر ان يقص قصة اختطاف « سلمى » على المقرين بعد ان أحضر
الامرى المجرمين .

ثم ان المقرين نزع عن « ماريين » ثياب الرهبنة والقداسة ، وأمر
بسجنه مدى حياته ، جزاء لما اقترفه من الآثام التي اعترف بها كاملة أمام
المقرين .

أما زوبعة فقد اعفاها عامر ، كما اعتقها ، ولم يلبث الباقون أن اسلموا
بعد عفو عامر لهم ، لأنه يفعلون ما يؤمرون به ، فلا ذنب عليهم .
ولم تمض على رجوع عامر ستة شهور ، حتى صمت المدينة الافراح
وغمرت بالبهجة ، وكساها السرور باردته الزاهية . قطاب لأهلها الرقص ،
وراق لهم ، فانتظموا مع بعضهم في مهرجان كبير حتى ليظن انهم في عيد
من اعيادهم المحببة وهم في أيام رغدم ورخائم . لذلك انبعثت روائح
المطور المسكوبة على الاردية والبشرات وخالطت النسائم في الآصال
لتذكي الشوق في قلوب القوم وتيقظ منها تلك البهجة المكبوتة . وقد زاد
في سخامة المهرجان كثرة مانح من الذبائح وما وضع من الطعام المشاع لكل
من تتوق نفسه اليه لأنه في محل يتوصل اليه كل من طلبه واراده .

وقد جرت هذه الافراح والمسرات حينما زفت « سلمى » الى عامر كي
يضمها مخدع الزوجية ويربطها رباط الحب المقدس « الزواج » بعامر .
وقد تم ذلك وعاش الزوجان في رغد ورخاء وهناء .

وفي صباح اليوم الثالث من شهر أيار سنة ٦٣٩ م^(١) شقت حجب

لا يكون أصوات نواقيس الكنيسة المحزنة ، تلك الاصوات التي كانت تدخل الحزن والامسى حتى الى النفوس المتهيجة ، والقلوب الثلجة بيرودة الفرح . لذلك اضطرب مسلموا المدينة ومسيحيوها من أن يكون قد حل في الكنيسة ما يموء مفرياتها بموت أحد شخصياتها المحببة اليه . لكن الخطب كانت أروع وافدح مما كان الناس يتوقعونه ، فقد فوجئوا بوفاة المفران « ماروثا » نفسه . لذلك ذهولوا حينما وقع عليهم النعي ووقع الصاعقة ، فهربوا الى الكنيسة دون وعي أو ادراك وهم لا يملكون لأقصد رعداً .

وفي الوقت الذي مر على وفاة المفران فاجراء الطقوس وعمل الترتيبات المناسبة لجنازته ، استقروا الناس آخر ما في عيونهم من الدموع التي جادوا بها بسفاه . ولم يبق أحد في المدينة إلا وسار خلف جنازة المفران التي شيعت الى المرقد الدائم بعد الانتقال الى الدار الثانية السكينة في البيعة (١) الكبيرة التي بناها المفران نفسه في القلعة .

ولبعد أيام اجتمع مسيحيوا تكريت فانتخبوا تلميذ ماروثا « دنحما » (٢)

(١) ذخيرة الأذهان ص ٣٢٦

(٢) دنحما وهو الذي تولى مفرانية كرمي المشرق بتكريت بعد وفاة ماروثا . وبعد توليته بمئتين سنين توفي وخلفه المفران « باريشوع » الذي امامه البطريرك « ساويرا » ابن مشتا . وقد بنى بيعة فاشرة في تكريت . وبنى بيعة اخرى على اسم « سرقيس » ، دفن فيها « يوحنا الشيخ » و « اتاسيوس » و « سرقيس » و « قرياقوس » . وقد بنى دنحما الثاني بيعة ثالثة على اسم « اهودي » صارت شهيرة بين بييم تكريت .

راجع : - ذخيرة الأذهان ص ٣٢٦

وقد ظلت تكريت مركزاً لكرمي المشرق يقيم المصارعة فيها حتى سنة ١٠٧٩م زلزلوا بعدها الى الموصل أما البقية الباقية من المسيحيين فقد رحلوا من تكريت =

مفريانا عليهم وتوجهوا به الى البطريق « فاودور » فاسامه « مفريان
تكرت وكل المشرق » .

وبعد أن دار دولاب الزمان ثلاث دورات وبعض الدورة وجه « عتبة
بن فرقد ^(١) » من الموصل « مسعود بن حريث بن الابجر » أحد بني تيم
بن شيبان ، الى تكرت فدخلها وعدّ دخولها فتحاً ثانياً للمدينة المذكورة
ولما استقر بجيشه في تكرت اقتسم الاموال فيها فأصاب الفارس ثلاثة
آلاف والراجل ألف . وبعث بالانخاس مع « فرات بن حيان » وبالفتح
مع « الحارث بن حسان » وتولى حرب الموصل « ربعي » والحراج
« عرجة بن هرثة ^(٢) » .

وتمكن مسعود بن حريث ^(٣) من أن ينزل في القلعة عندما تولى ولاية
المدينة من قبل المسلمين ، بعدما تنازل عامر عنها له . وبند الحياة السياسية
وهجرا الى الابد وعاش مع سلمى عيشة وادعة هائلة ، يعمر الحب قلبيهما ،
ويملأ الايمان بالله ووحدانيته وصدق رسالة محمد صلى الله عليه وسلم تينك
القلبين .

واستمر كذلك حتى أصابها ما أصاب اسلافها من الهلاك الذي فرق

= الى احواء الموصل سنة ١١٥٠ م ولم تبق الا عائلتي « آل نوبختي وآل دهمش

السلتين » المنتسبين الى سطيج

راجع :- ذخيرة الأذهان ص ٣٢٦ ، والمؤاخذ المنتور ص ٥٠٦ ، نصارى العراق

ص ٢٣

(١) ذكر في معجم البلدان ج ١ ، دائرة المعارف الإسلامية ج ٥ ص ٣٤

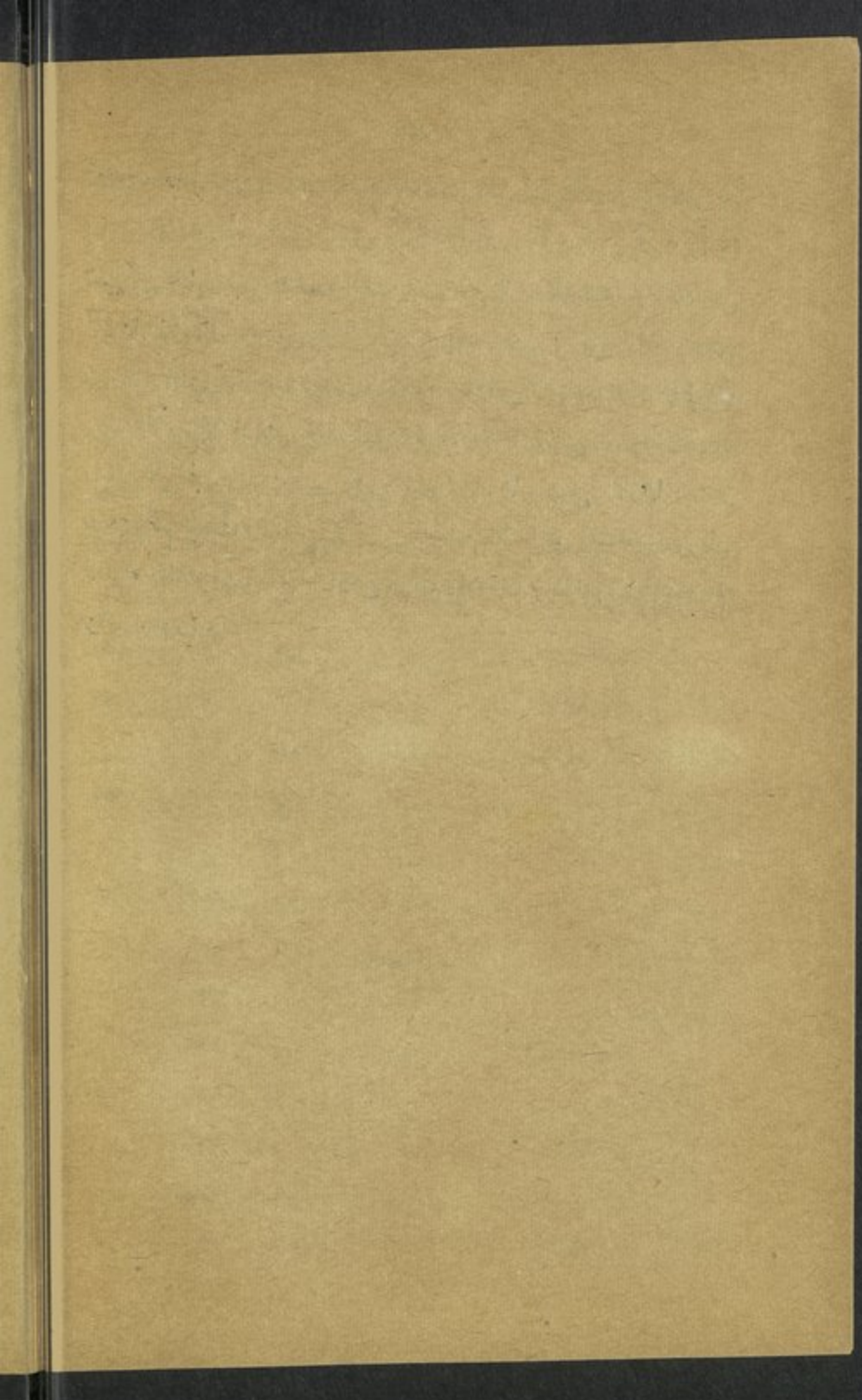
(٢) الطبري ج ٢ ص ١٨٦

(٣) وقد بنى مسعود مسجداً وجعله مرتفعاً عن الارض خوفاً من الخنازير التي

اتهم عليها من أن تدخله . معجم البلدان ج ١

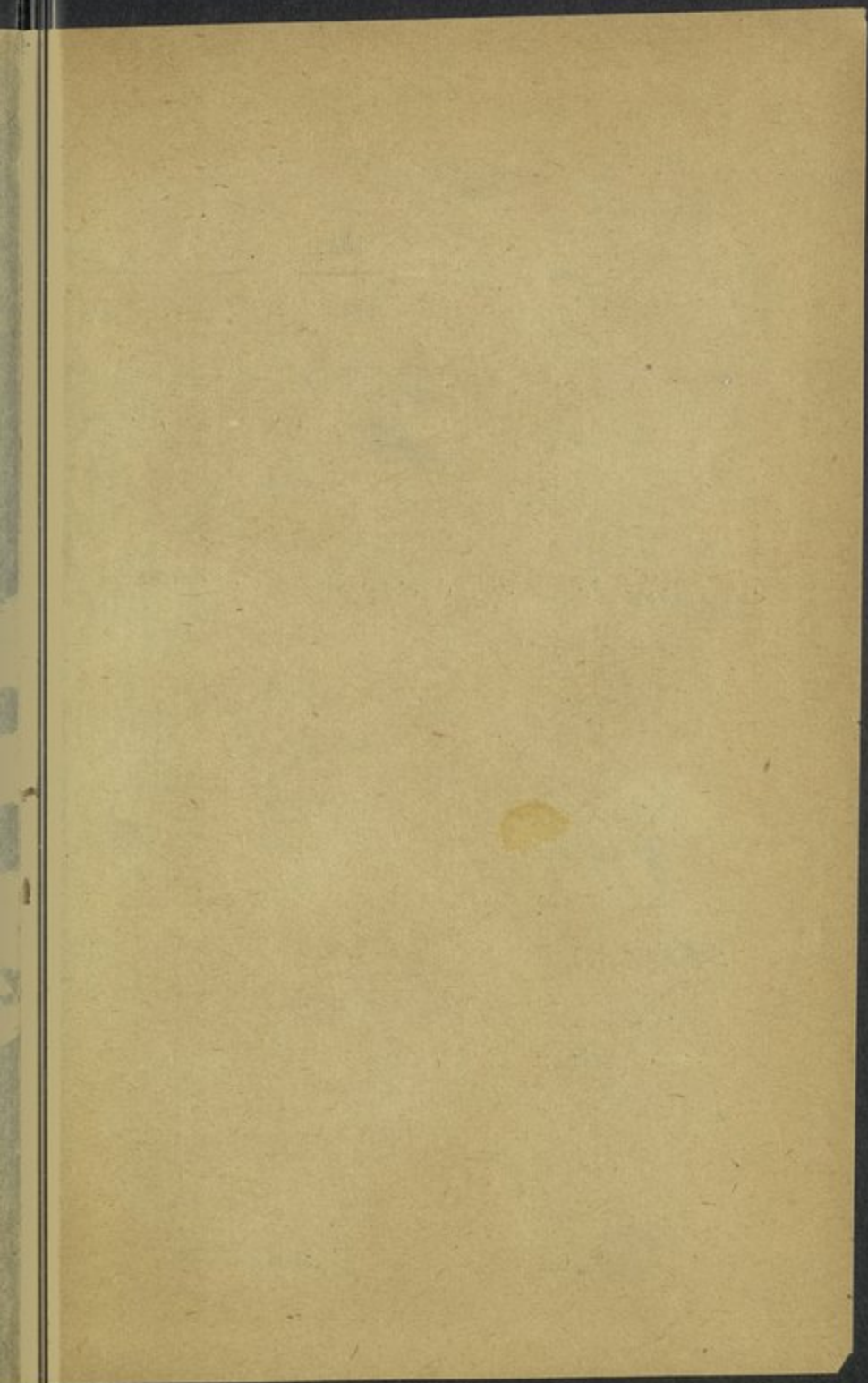
تحملها بعد ان ارشفا كآس المنية بالتعاقب فكانت سلمى أسبق من عامر على
 تناول ذلك الكأس الذي أودى بحياتها الى الموت بعد أن تركت وراءها
 طفلاً في التاسعة من عمره ، وطلة بلغت سن المراهقة والبلوغ ، لقيا من
 والدهما الذي آل على نفسه أن لا يتزوج بعد سلمى ، كل رعاية وحسن
 معاملة ، لأنها نعمة حبه وصورة حبيبته وظلها في الحياة . لكنهما لم ينهما
 برعاية الأب إلا قليلاً . فقد طوتها موجة الامل والنيسان واخفتهما في
 داخل بحر المجتمع لذلك عسر على متبوع اخبارها ومقتني آثارها المشور
 عليهما رغم البحث والتنقيب لأن المجتمع الاسلامي قد قلص من ظل
 الامراء والمتنفذين ، بعد ان اوهن قوتهم واضعف اجسامهم وأباد معالم
 عزهم وجبورتهم .

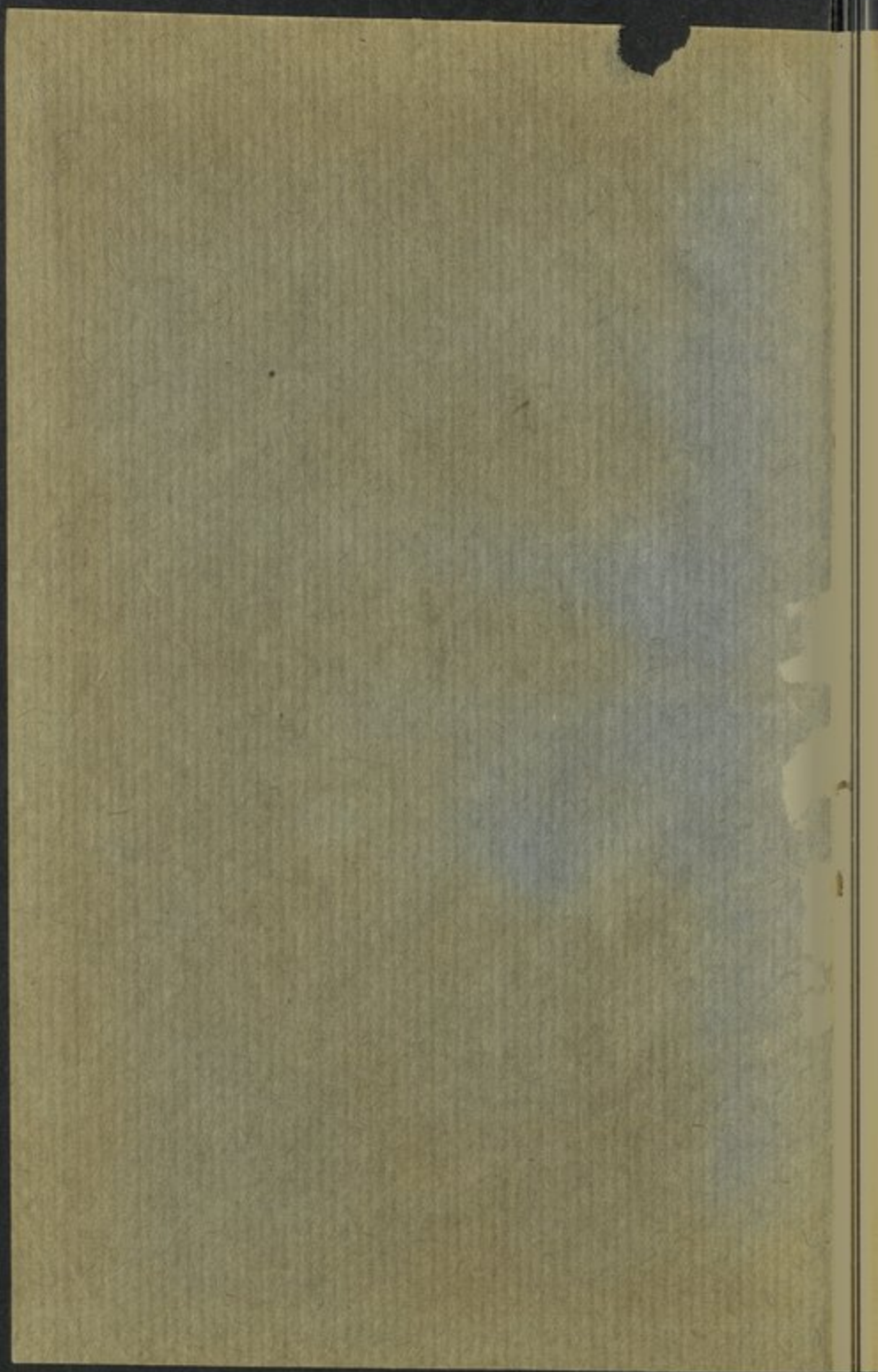


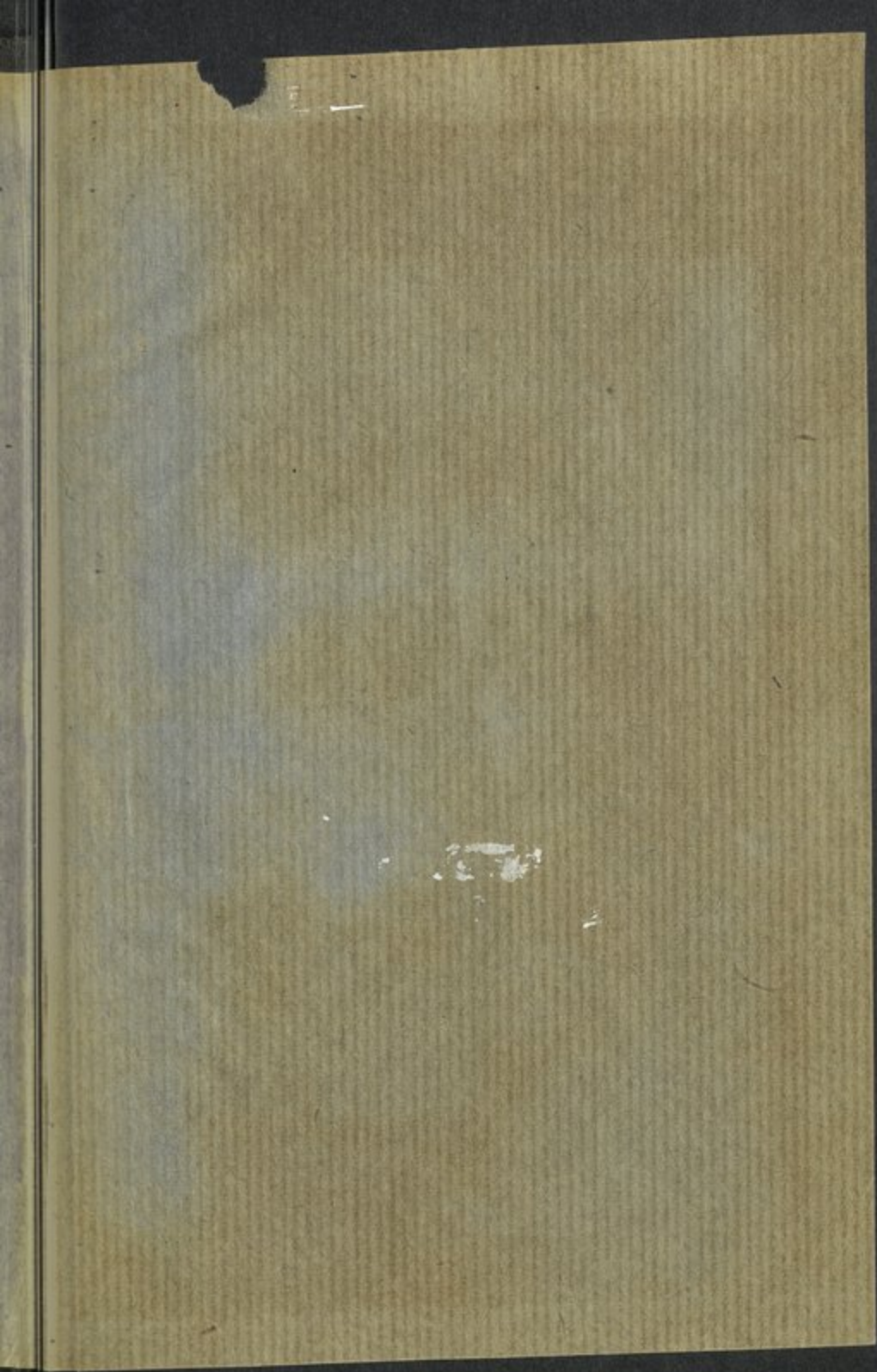


تصويب

س	ص	الخطأ	الصواب
١٥	١١	فروس	فردس
٨	٢٧	ابرديز	ابرويز
٦	٣٤	تدما	توما
١	٣٦	نخرج	فزع
١٢	٣٦	مفريانا	مفريانا
١٤	٣٩	سابور ابن اردشير ابن بابك	سابور بن اردشير بن بابك
٨	٤٥	متوسط	متوسطة
٥	٤٨	الاجتماعية	الاجماعية
٢	٥٤	وجدت	وجدن
١٧	٦٢	ازديخ	ازرنج
٤	٧٥	لاقصاه	لاقتناصه
١٣	١٠٩	بصلاته	بصلاتها
٢٢	١٢٠	اثبات المشكوك	اثبات قوله المشكوك
٧	١٤٧	ليتمكن ان	ليتمكن من ان
٤	١٩٠	التخشفات	التخشفات
١٥	١٩٦	يائمة بانماها	حديثته يائمة بانماها
٩	١٧٣	من حقول	في حقول
٦	١٨٨	طامو	عامر
١٧	٢٢٠	لاصماد	اسعاد

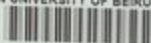






892.73:SH54

الشهاب، شعيان رجب
سلمى الثقلبية أو قصة الفتح الاسلامي
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01038187

American University of Beirut



General Library

